سلسلة في الدراسات الفلسفية والأخلاقية

يشرف على إصدارها الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

الإسلام بين أمسه وغده

تأليف

دكتور محمود قاسم

دكتوراه الدولة في الفلسفة من السربون
برتبة الشرف الأولى

مكتبة المهتدين الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

مطبعة احمد علي مخيمر ٤٧١٩٣

http://www.al-maktabeh.com

مقدمة

قد نحسن الظن لو قلنا إن شباب المسلمين وشيوخهم ، قد انقطعوا ، منذ جيل أو جيلين ، عن الفخر بماض لم يصنعوه ؛ وعن الأسى والحسرة لحاضر يزعمون عجزهم عن إصلاحه ؛ وعن الأمل العريض في مستقبل يلقون عبء تحقيقه على الأجيال بعدهم . ذلك أنهم كانوا ينتظرون إحدى المعجزات لكي تقودهم إلى الحرية عفوا ، وإلى المجد دون أن يبذلوا من ذات أنفسهم شيئا .

واليوم يوشك القوم أن يعترفوا أن النهضة لا تأتى دون جهد ، وإنما تنبعث من أعماق الأمة ، وتصنع بأيدى أبنائها وعلى عيونهم ، فإن البكاء لا يحيى الميت ، والأنين لا يرد المجد الضائع . ولهم بعد ذلك أن يدركوا أن تدهورهم أبعد عهدا مما يظنون . إنهم يرجعونه عادة إلى زمن الحروب الصليبية أو هجوم التتار على بغداد ، مع أنه بدأ في الحقيقة مع ظهور النظام الملكى الاستبدادى ، وما صحبه من انقسام المسلمين إلى فرق ومذاهب دينية متناحرة ، تزعم كل فرقة منها أنها على الحق وحدها . ولهم أن يدركوا — لو شاءوا — أن مما عجل بركودهم أنهم أفسحوا صدورهم لنوع غريب من التصوف جاءتهم عناصره من الغرب والشرق على حد سواء ، فحجب عنهم عقيدة التوحيد ، واتجه بهم قدماً نحو لون من الشرك الخفى أو الصريح . ثم زاد بهم البلاء حدة والتدهور عنفاً ، رغم تلك اليقظات العابرة التى كانت توحى إليهم أنهم ما زالوا بخير .

إن تقهقر المسلمين ، الذى بدأ منذ عصور متطاولة ، قد أدرك غايته في القرن الثامن عشر الميلادى . وعندئذ أحس هؤلاء أنهم قد تدهوروا حقيقة . وما كانوا يستطيعون ألا يشعروا بهذا التدهور ؛ فإن جيوش الغرب عادت مرة أخرى توقظهم من أحلامهم وغرورهم ، وتنبئهم أنهم لم يعودوا ممثلى الحضارة الإنسانية التى ألقت إليهم مقاليدها طيلة أربعة أو خمسة قرون . وهكذا كانت الكوارث الكبرى ، التى نزلت بمختلف الأقطار الإسلامية في العصر الحديث ، هى التى كشفت لأهلها عن مقدار ما انحدروا إليه ، فحاول هؤلاء الوقوف أمام موجة الزحف الأوروبى ،

مكتبة المهتدين الإسلامية

وقام مصلحوهم ينبهونهم إلى الخطر الجلل الذى يوشك أن يطمس حضارتهم وينتزع من أيديهم ما بقى فيها .

لكن تلك الموجة كانت أقوى من أن تقف أمامها أمم منحلة متخاذلة لا تربطها رابطة قوية من الأخوة أو التعاون ؛ فسقط كثير منها فى حوزة الغرب ، واستمر الزحف الأوروبى فى عنفوانه إلى عهد قريب . ولم يبطىء من سيره لكى يقف ثم ينحسر إلا بعد أن ظهرت ثمرة الجهود التى بذلها كبار المصلحين من أمثال صاحب الحركة الوهابية ، وجمال الدين الأفغانى ، وأحمد خان ، ومحمد عبده ، وآخرون كثيرون . فدبت روح المقاومة فى تلك الشعوب الخامدة ، وقامت الثورات متتابعة على حكم الغرب ، وعلى الخونة من أبناء الدول الإسلامية أو أمرائها .

وقد أكدت هذه الثورات المتلاحقة أن يقظة المسلمين شاملة ، وأنها تسير فى الاتجاه الصحيح ؛ لأنها ليست قاصرة على الإصلاح الدينى وحده ، ولا على الإصلاح السياسى وحده ، ولا على النهضة الاقتصادية وحدها ، ولا على النهضة العلمية وحدها؛ وإنما تبسط ظلها على مختلف هذه النواحى الاجتماعية الرئيسية فى كل دولة جديرة بالحياة . ولا ريب فى أن تعدد نواحى الإصلاح كفيل بتحقيق الأمل فى المستقبل الذى تبنيه الأجيال الحاضرة فى مختلف الأقطار الإسلامية . ومما يؤذن بأن هذا الأمل ليس حلما يستحيل تحقيقه هو ما نراه من التجاوب العميق اليوم بين المسلمين إن فى المشرق ، وإن فى المغرب .

وهذا التجاوب هو مظهر الرابطة الإسلامية التى بدأت تتأكد من جديد بين المسلمين فى مختلف بقاع الأرض ، بعد أن كادت تنفصم عروتها بسبب ضروب الاستبداد السياسى والروحى التى استسلم لها المسلمون ، أو اضطروا إلى الاستسلام لها ، منذ أن غابت عن قلوبهم الأصول الدينية الأولى التى حجبها جدل الفقهاء فى العقائد وتمنتهم وتشددهم وغلوهم فى التفريع والتشريع ، والتى صمت آذانهم عن سماع ندائها بسبب صخب الدفوف والمزامير فى حلقات أهل التصوف .

ولا أدل على نهضة الأمة الإسلامية من أنها أخذت تفسح صدرها لكل رأى حر وجملت تؤمن أن العلم ليس عدواً للدين ؛ بل هو حليفه وناصره ؟

محمود قاسم

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الأول

تدهور المسلمين

١ — حالة المسلمين فى العصر الأخير

أ — الاستعمار والمسلمون :

لقد أخذت بلاد المسلمين فى الانحطاط منذ عهد ليس بالقريب ، وربما كان أشد البلاء الذى نزل بأهلها أنهم لم يفطنوا إلى تدهورهم ، ولم يتبينوا أنهم ابتعدوا عن نهج الحضارة الواضح ، فاتخذوا لأنفسهم طريقاً ينحدر بهم ، وهم يظنون ، لجهلهم وغفلتهم ، أنهم هم الصاعدون السابقون . ومما جعل هذا الوهم يبدو حقيقة فى أعينهم أنهم كانوا ينتفضون بين آونة وأخرى ، فتدب فيهم الحمية والنخوة ، وتسرى فيهم روح أسلافهم ، فيهزمون أهل الصليب الذين أغاروا على بعض بلادهم ؛ أو تجوس جنودهم خلال بلاد أوروبا عندما استطاع الأتراك أن يشيدوا أمبراطوريتهم الكبرى . لكن لم يكن هذا الملك العريض يعتمد على غير القوة والقهر ، ولذا كان يحمل جرثومة فنائه بين ثناياه . فلما آن لموجة القوة أن تنحسر أجمعت دول أوروبا أمرها على تمزيق أوصال الخلافة العثمانية ، وتوزيع حطامها ؛ فسقطت الجزائر فى يد فرنسا ، ثم هوت مصر فى قبضة انجلترا ، وتهاوت الممالك الإسلامية ، واحدة بعد أخرى ، فى حوزة الأعداء على النحو الذى ما زلنا نلمس كثيراً من آثاره حتى يومنا هذا .

ولم يكن بد للمسلمين من أن يتركوا وهمهم وغرورهم بعد أن اشتد بهم

مكتبة المهتدين الإسلامية

ضغط البلاد الاستعمارية ، ولاسيما بعد أن تكشفت لهم أهداف هذه الدول المسيحية بالاستيلاء على مصر ، وهى باب الحرمين . فعم الحزن واستيقظت الشعوب الغافلة الخاملة ، ونشط مفكروها ، وبدأوا يدرسون أدواء الشرق ، ويحاولون ، إن استطاعوا ، أن يدفعوا عن ديارهم شرَه الأجانب ، وأن يستعيدوا ما فقدوه .. وأصبح الحديث عن ضعف المسلمين وسوء حالهم حديثاً لا تنفر منه النفوس ولا تضيق به أو تغضب له ؛ بل جعلت تقبل عليه وتطمئن لسماعه ، وربما وجدت فيه نوعاً من الرضا والمتعة ، كالمريض الذى يحلو له أن يكشف عن علته عسى أن يجد سبيلا إلى شفائها .

لقد صحا المسلمون من نومهم ، فوجدوا أنهم كثرة ، ولكنها كثرة لا تغنى عنهم شيئاً . فهم مستعبدون فى الأرض : تتحكم فى كل قطر من أقطارهم شرذمة قليلة من جند الأجانب وحكامهم وتجارهم ؛ تسومهم الخسف ، وتحتكر موارد الثروة عندهم ، وقد تنصب عليهم ولاة أو ملوكا أشبه بلُعب الدمى ، يحركونها كيفما شاءوا ، ويستخدمونها فى فرض سلطانهم على رعايا لا حول لها ولا قوة . وقد بلغ الذل بهذه الرعايا أن فريقاً منها رضى أن يكون من جند الفاتحين ، فأسلم قياده لهم ، وأصبح أداة عسف وقهر لبنى جلدته وملته ، يساق إلى الموت سوقاً ، ويشترك فى حروب خارجية لا نفع له فيها ولا مجد ؛ لأنها تنتهى دائماً بخسرانه ، سواء أكان مع الغالب أم مع المغلوب .

كذلك فجأهم أنهم أبعد الناس عن الحضارة والتقدم ، وأدناهم مرتبة فى شئون العمران ، وأقلهم خبرة بالسياسة وتدبير المال واصطناع القوة . فإذا نحن قارنا منصفين بين « إقليمين متجاورين أو ناحيتين فى إقليم أو قريتين أو بيتين فى قرية واحدة أهل أحدهما مسلمون والآخر غير مسلمين إلا ونجد

http://www.al-maktabeh.com

المسلمين أقل من جيرانهم نشاطاً وانتظاماً فى جميع شئونهم الحيوية الذاتية والعمومية ، كذلك نجدهم أقل إتقاناً من نظرائهم فى كل فن وصنعة .»[١]

ولو نحن قارنا مرة أخرى بين الدول الإسلامية والدول المسيحية فى عصرنا الراهن لفزعنا لمقدار انحطاط وتأخر الدول الأولى فى جميع مرافق الحياة : من تعليم وصناعة واقتصاد وعمران وقوة . ولا حاجة بنا إلى الاستطراد بذكر الأمثلة لتوضيح الفارق بيننا وبينهم فى هذه الأمور وغيرها ، فإن هذا الفارق أظهر وأوضح من أن يشار إليه . وهو من الظهور والحدّة فى الوضوح بحيث يوهم من لا علم له بحقيقة الإسلام، أو بمقدار انحراف أهله عنه ، أن هذا الدين كان سبباً فى تدهور معتنقيه. وسنعود إلى هذه المسألة فى موضعها .

لكن يكفينا أن نقرر هنا أن الدول المستعمرة تحاول أن تدخل هذا الوهم فى عقول رعاياها من المسلمين . ولا يجد دعاة الاستعمار حرجا فى أن يقرنوا بين الإسلام والمسلمين فى العصر الحاضر ، ما دام الهدف الذى يريدون تحقيقه ينحصر فى تحطيم آخر رابطة توشك أن توجد بين الشعوب التى يستعمرونها ، ونعنى بها الرابطة الإسلامية . وهم موقنون أنهم لو استطاعوا القضاء على هذه الرابطة لأمنوا على أنفسهم أن تهب تلك الشعوب من ركودها ، فتحطم قيودها ، وتسترد شيئاً من القوة ، فتفلت من قبضتهم ، وربما أصبحت خطراً عليهم . وليس لنا أن نتوقع من هؤلاء المستعمرين أن يسلكوا مسلكا مخالفاً ، طالما بقى الشرق منبعاً وموردا لرخائهم وقوتهم . وكيف لهم أن يحترموا قوماً من المبذرين السفهاء الذين لا يحجمون أو يترددون فى بيع ديارهم وأملاكهم بثمن بخس لكل غاصب

---

(١) عبد الرحمن الكواكبي : أم القرى ص ٢١ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

أو طامع ؟ وكيف لا يلصقون بهم ما شاءوا من التهم ، وهم يدّعون فى أثناء ذلك كله أنهم إنما جاءوا إلى ديارهم لا لشيء سوى النهوض بهم واطلاعهم على نتائج الحضارة الحقة ، ويريدون بها حضارتهم ؟ والحق أنهم لا يريدون بهم خيراً ، أو يبغون لهم صلاحاً ؛ إذ ما النفع الذى يعود على الغرب من إصلاح حال المسلمين ومنعهم من السفه ، فإن من أمانيه أن يتمادى الشرق فى غيه وإسرافه ، حتى يطول عهد السيطرة عليه ؟

ولقد سبق أن قارن جمال الدين الأفغانى بين حال المسلمين وحال المسيحيين فى أواخر القرن الماضى ليرى ما السبب فى ضعف الأولين وتقدم الآخرين ، فرأى أن أهل المسيحية حوّلوها عن أصولها الأولى من الوجهة العملية . فبعد أن كانت ديانتهم ديانة زهد وتنسك ، وانصراف عن الدنيا ، وندم وحسرة على الخطيئة الأولى التى أخرجت آدم من الجنة إذ بهم يسخرون الدين من أجل الدنيا ، فيحسنون القيام بأمور دنياهم ، ويفتنّون فيما تتطلبه هذه الحياة من أسباب الترف وألوان الهناء ، وما تقتضيه من الغزو والفتح واحتكار أسواق التجارة . وهكذا اتجه المسيحيون الذين يؤمنون بدين يدعو إلى السلم اتجاهاً مادياً ، وانكبوا على الدنيا ونعيمها ، يفتحون الممالك بالسيف ، ويخرجون على الناس باختراعات متتابعة مذهلة فى أدوات الحرب ، ويعنون بإعداد الجيوش وتدريبها ، حتى بلغوا فى الفن الحربى أقصى مراتبه . ومع ذلك فهم يقولون إن حضارتهم هذه هى الحضارة المسيحية الحقة التى يجب أن يتقبلها البشر فى كل صقع من أصقاع الأرض حتى يكونوا من الناجين .

ولم يكن الأفغانى بعيداً عن الحق فيما رأى . فلقد شهدنا فى الزمن القريب كيف استخدمت أوروبا فكرة الحضارة المسيحية والدفاع عن مثلها العليا

http://www.al-maktabeh.com

لكى تبعث أبناءها ، وغير أبنائها ، على قتال أعدائها وأعداء هذه الحضارة . أما المسلمون ، فبدلا من أن يعملوا للدين والدنيا جنباً إلى جنب ، كما كانوا يفعلون فى سابق عهدهم ، فإنا نجدهم يصبغون كل شىء بصبغة الدين ، حتى أنهم وجدوا لكل من الركود والجمود والانحطاط ما يبرره من الوجهة الدينية ، أى أنهم سخروا دنياهم لدينهم . غير أنهم سخروها لدينهم على النحو الذى يفهمونه[1] . ومن ثم لم يكن عجباً أن خسروا دينهم ودنياهم معاً . ذلك أن دينهم يدعوهم إلى العزة والقوة والغلبة ، ويحثهم على رفض كل قانون يخالف الدين ، وينهاهم عن الاعتراف بولاية من لا يستحق الولاية على المسلمين ولكنهم ينفرون من الجد ، ويؤثرون الضعف ، ولا يفكرون فى الدفاع عن أنفسهم ، فضلا عن نشر سلطانهم ؛ وهم يتقبلون صاغرين كل قانون ولو كان مخالفاً لشريعتهم ، ويتسابقون للاعتراف بسلطان من ليس على دينهم . لقد كان ينبغى لهم ، حسبما يأمرهم به دينهم ، أن يكونوا أقوى الأمم من الوجهة الحربية . لكن ليست تلك هى حالهم . وهم أعجز عن أن يلبوا دعوة الإسلام إياهم إلى المنعة والعزة . وهم لا يذكرون أنهم مطالبون بحماية ديارهم والدفاع عن إخوانهم فى الدين على اختلاف أجناسهم ، وأنهم لو نكصوا عن أداء هذا الواجب لحق عليهم أن يبوءوا بالإثم . نقول إنهم لا يذكرون ذلك أو قليلا منه ، ثم يظنون أنهم يضحون دنياهم من أجل آخرتهم ، ويخيل إليهم أنهم يتبعون أوامر دينهم ، وأن ما نزل بهم من الكوارث إنما هو من عنت الدهر وعسفه . وفى أثناء ذلك نراهم « يتهاونون بالقوة ويتساهلون فى طلب لوازمها ، وليست لهم عناية بالبراعة فى فنون القتال ولا فى اختراع الآلات ، حتى فاقتهم الأمم سواهم فيما كان أول واجب عليهم ، واضطروا

---

(١) قال أبو العلاء المعرى : وكم من فقيه خابط فى ضلالة ∴ وحجته فيها الكتاب المنزل

مكتبة المهتدين الإسلامية

لتقليدها فيما يحتاجون إليه من تلك الفنون والآلات .»[١] فإذا عجزوا عن مباراة الأمم الأخرى فى هذه السبيل ، وكثيراً ما يعجزون ، بسطوا أيديهم إلى أعدائهم يطلبون إليهم أن يمدوهم بأجهزة القتال وأدواته . ثم عجبوا أن يضن عليهم هؤلاء الأعداء بالسلاح . وما كان لهم أن يعجبوا ، إذ لو كانوا مكانهم لفعلوا مثلهم .

ب — المسلمون بين عهدين :

وليس أدل على أن المسلمين خسروا دينهم ودنياهم ، على حد تعبير جمال الدين ، مما نراه من تضاد بين صفاتهم وصفات أسلافهم «فنحن لا نحفظ عهداً ، ولا نفى وعداً ، وهكذا مضاؤهم فى العمل وتسويفنا ، إنجازهم وتطويلنا ، صبرهم وجزعنا ، شجاعتهم وإقدامهم جبننا وإحجامنا ، عزة نفوسهم وإباؤهم ذلتنا واستكانتنا ، وإلى ما هنالك من المحزنات .» وهل هناك من يدّعى أننا صادقون فى العمل والقول صدق الأوروبيين فيهما ؟ وهل هناك من يزعم أننا نهرع دائماً إلى نصرة الحق وإزهاق الباطل ، أو أننا نعمل لدنيانا كما يأمرنا ديننا أن نعمل لها ؟ ثم هل هناك من يأتى ، فى آخر الأمر ، ليقول إن ما حلّ بالمسلمين إنما هو قضاء الله وقدره ، وإنه لا قِبَل لهم بدفع ما هم فيه من ضر ، وإن عليهم أن يخلدوا إلى ما هم فيه من ذل وضعف حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ؟ ما نظن ذلك . فقد مضى ، أو كاد يمضى العهد ، الذى كان يحبب فيه نفر من رجال الدين للمسلمين أن يرضوا بما هم فيه من هوان وضعة باسم الدين نفسه ، أو باسم الإيمان بالقضاء والقدر .

---

(١) العروة الوثقى ص ٧٩ .

http://www.al-maktabeh.com

إن ما نزل بالمسلمين فيما مضى يرجع فى الأغلب إلى تشويه إحدى العقائد الإسلامية ، ونعنى بها عقيدة القضاء والقدر . ذلك أنهم انصرفوا عن الوجه الصحيح لفهمها ، فكان هذا الانصراف سبباً فى فساد الأخلاق ، وقبح الأعمال . ومما يؤسف له أنه ما برحت هناك جماعة من السذج تحيل كل شيء على القضاء والقدر ، إما لعجزهم، وإما لرغبتهم عن العمل ، وإما جهلا بحقائق الأشياء . وقد اتخذ الأوروبيون من مسلك هؤلاء السذج ذريعة للطعن فى المسلمين ودينهم ، فقالوا إن المسلمين لم يصلوا إلى ما هم فيه من فقر وتدهور وانحطاط وتخلف عن جميع الأمم الأخرى إلا لإيمانهم بالقضاء والقدر . فإن هذا الإيمان كان سبباً فى كثرة النفاق والرياء والحقد والتباغض والكذب وتفرق الكلمة ، والانصراف عن البحث فى علل الأشياء ومقدماتها . لذلك ليس بعجيب أن أصبح المسلمون من الغفلة إلى حد أنهم لا يفرقون بين ما يضرهم أو ينفعهم. وهذا هو السبب فى تواكلهم وقعودهم عن طلب الخير لأنفسهم وفى قناعتهم بحياة لا تسمو كثيراً عن حياة العجماوات : فهم يأكلون ويشربون وينامون على أسوأ ما يأكل المرء أو يشرب أو ينام . ولا يخطر لهم ببال أن يجدّوا فى العمل وأن ينافسوا غيرهم فيه . ومع هذا فإنهم مغاوير أبطال إذا كان الأمر بصدد إلحاق الضرر بعضهم ببعض. فبقدر عجزهم عن النهوض بأنفسهم ونفورهم من التضحية من أجل الآخرين تراهم يجعلون بأسهم فيما بينهم ؛ فلا رفق ولا هوادة فى الخصومة والرغبة فى الأخذ بالثأر ، بحق أو بغير حق؛ بينما تجدهم يتطامنون للأجانب الذين يمدون سلطانهم على أوطانهم، وينالون من أرزاقهم ماشاءوا، ويسخرونهم كما يسخر العبيد . وأدهى من ذلك أنهم قد يرون ذلك عدلا وخيراً ، أو قضاء وقدرا .

مكتبة المهتدين الإسلامية

فهم جماعة رضوا بهالأنفسهم الذل ، ووطنوا النفس على قبول الضيم : يقنعون بالقليل الذى يلقى به إليهم . أماملوكهم وأغنياؤهم وذوو الأمرمنهم فلايعنون إلا بأنفسهم ، ويحسبون أن القضاء والقدر قدكتب لهم أن ينعموا بلهوهم وتلبيته رغباتهم وشهواتهم . وهم قد لا يحمدون الله إلا لأنه لم يجعلهم من فئة الفقراء الجائعين . فإذا بقى لأمير أو ملك منهم ، بعد اللهو واللعب واغتصاب حقوق رعاياه ، فسحة من الوقت سخرها للنزاع مع أمير يشاكله فى أمره وخلقه . وكثيراً ما يعجز المتنازعان عن أن ينال كل من صاحبه ؛ فلا يجد أحدهما حرجا فى أن يستظهر الأجنبى على خصمه يرجو لديه عوناً . فلا يجد الدخيل أمامه قوة تردعه ، فينال من الخصمين ما أراد ، دون أن يكون فى حاجة إلى استخدام عدد ولا عدّة . تلك هى حال أمراء المسلمين فى عصر جمال الدين ، وما أشبه أن يصدق قوله على حالهم فى عصرنا . فإنهم كما يقول جماعة من المترفين «شملهم الخوف وعمهم الجبن والخور ، يفزعون من الهمس ويألمون من اللمس ، قعدوا عن الحركة إلى مايلحقون به الأمم فى العزة والشوكة .» وقد تقطعت بينهم الروابط فلا نجدة ، ولا محاولة للاتحاد للوقوف جبهة واحدة ، وإنما هم أحزاب وشيع يظنون بأنفسهم القوة ، وهم لا يعلمون أنهم الخاسرون جميعاً ، وأن عدوهم هو الذى يحركهم ، ويؤلف بينهم متى يشاء ، ويفرق بينهم متى أراد .

وفيما بين عصر جمال الدين وعصرنا ما برح كثير من المسلمين يغررون بأنفسهم ، فيذكرون ماضيهم الذى لم يصنعوه بأيديهم ، لكى ينسوا حاضرهم الذى يتبرأون منه ، ويتعللون بالقضاء والقدر الذى أزاحهم فى زعمهم عن مكان الصدارة ، والذى ربما أعادهم إليه عفوا ، أى دون جهد ينبغى لهم أن يبذلوه . وقديماً ضاق الأفغانى بغرورهم ، فقال لمن يحدثه عن عبور الحرب

http://www.al-maktabeh.com

المحيط الأطلسي وكشفهم لأمريكا قبل الأوروبيين (١): « إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان : كونوا بني آدم أجابوه إن آباءنا كانوا كذا وكذا ، وعاشوا في خيال ما فعل آباؤهم ، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفي ما هم عليه من الخمول والضعة . إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم ! لقد كان آباؤكم رجالا ، ولكنكم أنتم أولاء كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذاكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم . . . إن المسلمين قد سقطت هممهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شيء واحد فيهم هو شهواتهم . » ومع كل ما بذل الأفغاني من عناء في إيقاظ المسلمين وتحريرهم من الغرور بأنفسهم والتشدق بماضيهم في غير ما يجدي فإنه كاد لا يفارق هذه الحياة إلا يائساً منهم . وهو يستصرخ أسلافهم الأمجاد في قبورهم ، لكي ينظروا إلى ما فعله خلفهم ومن يدين بدينهم عندما حادوا عن الطريق وضلوا السبيل ، وتفرقوا شيعا ، « حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب له القلوب أسفاً ، وتحترق الأكباد حزناً ، أضحوا فريسة للأمم الأجنبية . لا يستطيعون ذودا عن حياضهم ، ولا دفاعا عن حوزتهم . » وهم فيما بين ذلك لاهون يفخرون بما لم يفعلوا ، ويحيلون على الأجيال بعدهم أن تفعل ما يظنون أنهم يعجزون هم عن فعله .

ولقد كانت نفسه تدمى أن يرى كيف ينصرف كثير من الأوروبيين أو الأمريكيين عن الديانة المسيحية التي تعجز عقولهم عن فهمها ، وكيف يبدو لديهم استعداد لقبول دعوة الإسلام ، وبخاصة الأمريكيين منهم لعدم وجود أحقـــاد دفينة بينهم وبين المسلمين . ومع ذلك فإن حال المسلمين ما كانت

(١) شكيب أرسلان : حاضر العالم الإسلامي . ص ٢٩٩ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

لتدفعهم إلى الإقبال على هذا الدين العقلى . ولذا نجده يقول « إذا نحن أردنا أن نحمل غيرنا على الدخول فى ديننا وجب علينا، قبل كل شىء ، أن نقيم لهم البرهان على أننا لسنا متمسكين بخصال الإسلام. » فهل هناك بعد الوصول إلى هذا الحد ما يوجب علينا الاستطراد فى بيان مقدار ما بلغت إليه حال المسلمين من سوء فى ذلك العصر ؟

(ح) الفقر :

وحقيقة كيف تستقيم أمور كثير من الدول الإسلامية ، وقد عمها الفقر ، وشملها البؤس ، وغلب على أهلها ملوك مستبدون يتخذون أعوانهم وبطانتهم إما من رجال أجانب أو من قوم زعموا أنهم قوامون على الناس فى عقائدهم وخلجات نفوسهم ؟ فاجتمع الفقر مع الاستبداد وسطوة الكهنوت على قوم من البؤساء ، ففسدت عقولهم وشوهت أخلاقهم ، واندثر ما قد عسى أن يكون قد بقى فى نفوسهم من أثر للعزة والنخوة . فانقاد هؤلاء إلا قليلا منهم انقياد الأعمى، واستحبوا ذلهم على الكرامة ؛ بل ربما يبلغ من فساد طباعهم أنه لو نفرت منهم طائفة تؤمن بالله والوطن ، وأخذت ترشدهم وتحررهم مما هو فيه هوان لظنوا بها السوء ،ولنسجوا حول أعمالها ستاراً من الأباطيل، ولبرموا بها وحاولوا الوقوف أمامها إما حقداً وحسداً ، وإما لكى يعودوا القهقرى إلى ما كانوا فيه من هوان . وقد تدفعهم سذاجة التفكير وسقم الرأى إلى الاتحاد مع أنصار القديم ، فيعضدونهم ويحاولون جاهلين مساعدة أعوان الاستبداد السياسى والاقتصادى الذين يغررون بهم بأسماء زائفة ، كالعدل والمساواة والحرية. كل ذلك لأن طول عصور الاستبداد التى خنعوا

http://www.al-maktabeh.com

لها أفسدت طباعهم ، وقضت أو كادت تقضى على معايير الحق والخير في نفوسهم .

ولا يملك المرء إلا أن يعجب لتلك الأمم الإسلامية التى تتحدث عن ماضيها ما وسعها الحديث ، وتتشبث بالأوهام والأحلام ، وتشكو حظها العاثر ، وتئن من الاستبداد ، وتبدى فى الشكوى وتعيد . كل ذلك وهى لا تفطن إلى أن ما هى فيه من ضنك يرجع إلى قعودها عن منافسة الأمم الأخرى فى استغلال ثرواتها الطبيعية . فهى بلاد غنية بأرضها فقيرة بأهلها الذين لا يرون أن بناء الأمم لا يكون بالشكوى والنواح ، وإنما يكمل عن طريق العمل الذى يخلق المال ، فيقضى على الجهل ويسمو بالخلق ، ويضع حداً للشقاق والخلاف ، ثم يشعر الناس بكرامتهم ، وأنهم لم يخلقوا لكى يقنعوا بالقليل الذى ربما هبط بهم عن مستوى البهيمة . وهم لا يستحون أن يقال عنهم إن ما يقوم بأود بقرة أو حصان أكثر مما يكفى ليقتات به فلاح مصرى أو عراقى أو سودانى . وليس أحب إلى قلوب المستبدين من أن يكون رعاياهم فقراء جهلاء راضين بالقضاء والقدر . فإذا بدأت الشعوب تعمل ، وتربأ بنفسها أن تكون هملا ، غرس بها حكامها فأدخلوا نظاماً نيابياً ليس بينه من شبه وبين مثيله فى البلاد الأوروبية سوى الاسم ؛ إذ أن القوانين تطبق بحيث تجمع الأموال من الفقراء، لكى ينعم بها الأغنياء والمسرفون السفهاء .

هذا إلى أن يقظة الشعوب الإسلامية فى مثل هذه الأحوال يمكن أن توصف بأنها إحدى المعجزات . فقد تشابكت الأسباب على قتل كل استعداد لدى الأفراد الممتازين الذين يرجى منهم الخير ؛ إذ كيف يوجد أمير عادل

مكتبة المهتدين الإسلامية

أو زعيم مصلح فى أمم تحالف عليها الاستبداد والفقر . وقد صور لنا عبد الرحمن الكواكبى فى كتابه طبائع الاستبداد كيف ينشأ الفقير فى دولة الظلم، فقال : « إذا افتكرنا كيف ينشأ الأسير فى البيت الفقير ، وكيف يتربى نجد أنه يلقح به ، وفى الغالب أبواه متناكدان متشاكسان ، ثم إذا تحرك جنيناً حرك شراسة أمه فشتمته .. فإذا نما ضيقت عليه مقره لألفتها الانحناء خمولا .. أو التقلص لضيق الفراش . ومتى ولدته ضغطت عليه بالقماط اقتصادا أو جهلا . فإذا بكى سدت فمه بثديها . . . أو سقته مخدراً عجزاً عن نفقة الطبيب . فإذا ما فطم يأتيه الغذاء الفاسد يضيق معدته ويفسد مزاجه . فإن كان طويل العمر وترعرع يمنع من رياضة اللعب لضيق البيت . فإن سأل واستفهم ليتعلم يزجر ويلكم لضيق خلق أبويه . فإذا قويت رجلاه يدفع به إلى خارج الباب إلى مدرسة الألفة على القذارة ، وتعلم صيغ الشتائم والسباب . فإن عاش وضع فى مكتب أو عند ذى صنعة . ويكون أكبر القصد ربطه عن السراح والمراح . فإذا بلغ الشاب ربطه أولياؤه على وتد الزواج ، كيلا يبرح يقاسمهم شقاء الحياة ويجنى على غيره كما جنى عليه أبواه . . ويتولى المستبدون الضغط والتضييق على عقله ولسانه وعمله وأمله . وهكذا يعيش الأسير من حين يكون نسمة فى ضيق وضغط ، ويهرول ، ما بين وداع سقم واستقبال سقم ، إلى أن يستقبله الموت، مضيعا دنياه مع آخرته ، فيموت غير آسف ولا مأسوف عليه . »

حقاً قد تكون هذه اللوحة التى رسمها الكواكبى قاتمة تبعث اليأس ، لكنها كانت صادقة فى عصره؛ بل قبله بعدة قرون ، ومازالت تنطبق للأسف على ملايين من المسلمين فى الوقت الحاضر .

http://www.al-maktabeh.com

(ى) الجهل :

وللفقر فى البلاد الإسلامية حليف ليس أقل منه خطراً وقهراً ، وهو الجهل . فالعلوم الحديثة لم تطرق دور الدراسة إلا بعد جهد وصراع طويلين ، وإلا بعد مقاومة رجال الدين الذين يحرصون عادة على إبقاء القديم على قدمه ، إما خوفاً على نفوذهم أن ينحسر عن أفئدة العامة ، وإما طمعاً فى التقرب إلى الحكام المستبدين الذين يحسبون أن سلطانهم لا يستقر ولا يزدهر إلا بفضل الجهالة الشاملة . وإذا تطرقت هذه العلوم إلى عقول طبقة من الشعب ، غير مشوهة أو محرفة ، فإنها لا تغنى عنهم إلا القليل ؛ فإن هناك نوعا من الجهل العاتى الذى صنعه السابقون فأحكموا صنعه ، على غير ما جرت به عادتهم فى فنونهم الأخرى ، ونعنى به جهل النساء . وكفى بهذا الجهل سبباً فى إفساد كل شىء ، وفى خيبة الرجاء فى الأجيال القادمة . فلقد ظن المسلمون فى عصور تدهورهم أن الحجاب معناه حرمان نصف المجتمع ، أو أكثر من نصفه ، من حقوقه الاجتماعية والروحية والعقلية . واعتقدوا أن صلاح حالهم إنما يكون بأن تعامل المرأة معاملة الرقيق ، وأن يُضيق عليها الخناق حتى يُؤمن شرها وكيدها . فتولد الأنثى فلا ترى الحياة إلا طفلة حتى إذا كادت تدرك حبسها أهلها فى دارها . وإذا هى بلغت مبلغ النساء دفعت إلى رجل لا تعرف عن أمره شيئاً ليتخذها أداة للمتعة وإنجاب البنين والبنات . ثم تودع الدنيا دون أن تعمل عملا سوى أن تنشىء جيلا أكثر جهلا منها .

ويظن الرجال أن هذا السجن شريعة إلهية ، وأن جهل النساء ضمان لعفتهن ؛ فى حين أن تعليمهن أدعى إلى فجورهن . وقد نسى هؤلاء أن النساء المسلمات فى عصور القوة لم يكن سجينات دورهن ؛ بل كان منهن العالمات والشاعرات ،

مكتبة المهتدين الإسلامية

وكن يساهمن فى الحياة العامة أكبر مساهمة ، يحرضن على القتال ويفتين أخواتهن فى أمور دينهن .

وكأنما حسب أعداء المرأة أن العلم يقودها إلى الفجور ، مع أن العلم والجهل قد يكونان سواء فى هذه الناحية . وإنما الذى يحفظ المرأة ويقيها السقوط هو أن يحسن أهلها تأديبها وتعليمها تعلما دينياً وأخلاقياً . وماذا يجدى الجهل إذا ساء الخلق ؟ وماذا يضير العلم إذا أحسن التأديب ؟ إن الجاهلة لا تتردد فى الزلل متى سنحت لها سانحة . وكثيرا ما تلقى من الصدف ما يكفى فى سقوطها . وهل من سبيل إلى المقارنة بين إمرأة متعلمة تعف لحسن تأديبها ، وامرأة جاهلة لا تعف إلا مقهورة مغلوبة على أمرها ؟ ومن قال إن تعليم المرأة دعوة إلى الفجور وخروج على التقاليد ؟ أليس من الممكن أن تقاسم المرأة الرجل حظه فى المعرفة ، ثم تستقر فى بيتها ترعاه وتخرج نشئاً صالحاً ؟ وهل يحسن لدى العقل أن نحجر عليها أن تعمل خارج دارها ،وأن تساهم فى العمل الاجتماعى بقدر طاقتها إذا إضطرتها الحياة إلى العمل، أو إذا أوجبت عليها حاجة المجتمع أن تعمل؟ وهل الدين هو الذى يوجب على المرأة أن تكون جاهلة خاملة؟وأى نفع للمجتمع الإسلامى فى أن تعامل المرأة معاملة الرقيق ؟ إن المرأة مساوية للرجل من جهة تركيبها العقلى . وإذا كان هناك تفاوت بينها وبينه فهو من جهة التربية التى تعد كل منهما للعمل الذى يتفق مع ميوله واستعداده . ورعاية البيت صناعة من الصناعات ؛ بل من أهمها، إذ البيت مصنع تسوّى فيه النفوس وتغرس فيه الأخلاق ، شرها وخيرها . لكن إذا فقدت المرأة من يعولها فلا عليها أن تسعى لعمل يناسبها ويكفيها مئونة الانحدار إلى الرذيلة ، أو أن تكون كلاًّ على ذوى قرباها ممن يضيقون بأنفسهم، قبل أن يضيقوا بها أيضاً . « وإذن فلا مانع من السفور إذا

لم يتخذ مطية للفجور » كما كان يقول جمال الدين الأفغانى .

على أن جهل الرجل والمرأة كان منبعاً لكارثة اجتماعية كبرى ، وهى كثرة النسل . حقاً إن عامة الناس محرومون ، بسبب جهلهم وفقرهم ، من اللذات الحقيقية ، كالحياة الطيبة وتحصيل العلم ، والسعى وراء المجد ، والتضحية من أجل الوطن والإنسانية ، والرغبة فى الذكر الحسن وغير ذلك من اللذات الروحية التى تجعل للحياة معنى يسمو بها عن حياة البهيمة . ولما كان الجهلاء لا يعرفون عن هذه اللذات شيئاً فإنهم يسخرون من قائلها إذا حدثهم عنها ، ولا يرون أن هناك لذات أخرى سوى لذة البطن والفرج . فلذاتهم لا تعدو ملء بطونهم بما يتيسر لهم ، ثم إنجاب الأبناء الذين يزداد بؤسهم كلما درجوا فى الحياة . هذا إن لم يأت الموت يخترمهم فينقذهم من أن ينهجوا نهج آبائهم . وربما احتج بعضهم بالدين ، فقال إن تحديد النسل جريمة لا تغتفر . لكن الدين السمح لا يكلف الناس ما لا يطيقون ، ولا يأخذهم بما لا قبل له به . وهذا هو ما فهمه الإمام الغزالى الذى يذكر لنا فى كتاب « إحياء علوم الدين » أن للرجل أن يتجنب كثرة النسل عن طريق العزل إن خشى الفاقة ، وللمرأة أن تفعل مثله إن خشيت المرض ؛ بل إن خافت أن يذهب جمالها . وقد فطنت الأمم المتمدنة إلى خطورة إطلاق النسل دون ضابط يحدده ، ولم يمنعها ذلك من أن تحتفظ بقوتها وسطوتها . لكن لو قام رجل ينادى بذلك فى بلد إسلامى متأخر للقى من جهل العامة وحنق رجال الدين ما قد يسوء له أمره . هذا إن لم يتهم من هؤلاء وهؤلاء بالمروق أو الكفر .

وهكذا يعيش المرء فى دولة الجهل والاستبداد والفقر لا يعلم لنفسه غاية ، ولا يبذل جهداً لتبديل حاله بما هو خير منها . وربما ثارت نفسه ضد الاستبداد

مكتبة المهتدين الإسلامية

والظلم . لكنه قلّما يفكر فى الحرية الحقيقية أو العمل المثمر للنهوض بأمره؛ إذ كل ما يصبو إليه هو أن يستبدل مستبدا بمستبد آخر علّه يجد طعماً جديداً للاستبداد . وهو يتوقع دائما أن تأتى معجزة من الخارج لكى تنقذه مما هو فيه ، مع أن المعجزات فى النظم السياسية والاجتماعية لا تأتى إلا من الداخل ، أى لا تنبعث إلا من أعماق الشعب نفسه . فإذا بقيت أمة جاهلة غافلة متخاذلة فليس لها أن تطلب المعجزات . وذلك أن الجهل والغفلة و التخاذل تدفع أى حكومة ، ولو كانت عادلة ، إلى الاستبداد . وإذا هى استبدت مرة واحدة لم تترك الاستبداد إلا مكرهة . لكن لن يقهرها الفقر والجهل والتخاذل .

٢ — ابتعادهم عن الدين

(١) الصراع السياسى والدينى :

لم ينته المسلمون إلى ما انتهوا إليه من الضعف والتدهور قضاء وقدراً ؛ وإنما قادتهم إلى ذلك أسباب ومقدمات » ، يميلون هم عادة إلى أن ينسبوها إلى غيرهم ، مع أنهم أحق بأن يعزوها لأنفسهم . فهم يقولون إن الأيام دول ، وإن المؤمن مصاب ، وإن الحياة الدنيا تحلو لغيرهم وفى عاقبتها الحسرة والندم ، ثم يخدعون النفس بالأمل فى انقشاع الغمة وزوال الكربة قضاء وقدراً ، وينسون سنة الله فى أنه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

والحق أنهم بدأوا من تلقاء أنفسهم يختلفون فيمن يتولى أمر المؤمنين ، وتخضبت أرضهم بالدماء ، وقتل من خلفائهم كثيرون ، ولم تسكن الفتن بمقتل هؤلاء . فقد تشتت شمل الأمة من ذلك الحين ، وكانت العصبية الكريهة التى قضى عليها الإسلام تعود تطل برأسها كلما آنست ضعفاً من

http://www.al-maktabeh.com

الولاة. فلما استقر الملك لبنى أمية استعادوا قوتهم واتسعت فتوحهم وامتدت حتى جنوب فرنسا. لكن عادت الفتن، فانتقل الملك لبنى العباس، فلم يستطيعوا إعادة وحدة المسلمين، إذ اشتد ساعد الدعاة لآل على، وبقى جزء من المغرب فى يد بنى أمية. ثم بدأت دولة الشرق فى الانحلال لاستبداد خلفائها وجبروتهم. وزاد فى انحلالها أن قويت شوكة الفرس الذين استظهر بهم العباسيون على العرب. وكان الاستبداد أظهر سمة فى هذه الدولة الشرقية. والاستبداد كما نعلم، يميت الأمم، ويشوه الدين والخلق. ودولة الاستبداد دولة من الأرقاء يسوسهم فيها رقيق مثلهم، فإن الحاكم المستبد يدعوه هلعه وفزعه أن يقبع سجيناً فى قصره بينما يستعين على قهر رعيته من الأرقاء بالجنود الأجانب، الذين يفنيهم طبقة بعد أخرى خوفاً من أن يغلبوه على ملكه، حتى ينتهى الأمر بأن ينكسوه عن عرشه، أو يبقوه عليه بعد أن يقلموا أظافره. حقاً استطاع هارون الرشيد أن يفتك بالبرامكة، لكنه لم يستطع القضاء على نفوذ الفرس الذى أخذ فى الازدياد فى عصر المأمون. ثم أراد خلفاء هذا الأخير أن يستبدلوا بالفرس غيرهم، فجاءوا بالأتراك. فكان ذلك نهاية ملكهم الحقيقى، إذ أصبح الخلفاء المستبدون لعبة فى أيدى الخطايا، توليهم وتعزلهم دسائس القصر ورغبات أمراء الجيش.

ولم يكن بد من أن تنعكس صورة الصراع السياسى فى عقائد المسلمين وآرائهم. وليس بعجيب أن تتفرق الأمة فى عقيدتها منذ أواخر القرن الأول الهجرى بظهور فرق الجبرية والقدرية والشيعة. ثم ازداد عدد هذه الفرق تبعاً لاختلاف النزعات السياسية والقومية. وأباحت كل فرقة لنفسها أن تفسر القرآن على ما تهوى، وأن تضع من الأحاديث ما تشتهى. وتشتت

مكتبة المهتدين الإسلامية

الفكر ، وأخذ أعداء الإسلام يكيدون له . ونشأت معركة الجدل فى العقائد بين المفكرين المسلمين أنفسهم . واختلف هؤلاء ما شاءت لهم ثقافاتهم وعقولهم وأهواؤهم أن يختلفوا . وشغل القوم أنفسهم ومعاصريهم بمشاكل دينية مزعومة ماكان أغناهم عنها ، كالبحث فى صفات الله وأفعاله وفى خلق القرآن والقضاء والقدر . واحتدت الخصومة فيما بينهم ، واضطهد كل فريق صاحبه ، أو سارع إلى تكفيره . لكن إذا نحن نظرنا اليوم إلى المشاكل الدينية التى فرقتهم وجدنا أنها ترجع ، فى الأغلب ، إلى سوء فهمهم للنصوص الدينية وإلى انحرافهم ، إن قليلا أو كثيراً ، عن العقيدة الإسلامية الرئيسية التى تنص على تنزيه الله سبحانه تنزيهاً مطلقاً عن مشابهة المخلوقات ؛ إذ أن القرآن يذكرهم بأنه ليس كمثله شىء . (١)

ونجم عن هذا الصراع السياسى الدينى أن تغير وجه الإسلام الحقيق ، على قرب عهد الناس بالدعوة الإسلامية ، فلحقه التشويه والتحريف ، وانزلق أهله من حيث لا يشعرون إلى الشرك ، فعبدوا مع الله غيره ؛ بل كان الزيغ عن التوحيد أبعد عهداً من ذلك . فإن جماعة ممن تشيعوا لعلى بن أبى طالب زعموا أنه لم يقتل ، لأن روح الإله حلت فيه ، ثم انتقلت منه إلى أبنائه . ثم إن أهل أفريقيا الشمالية من البربر والعرب خلطوا توحيدهم بديانة بدائية شهدتها الأمم القديمة كالصين وروما ، وما زالت تؤمن بها شعوب منحطة فى جزر المحيط الهادى ، ونعنى بها عبادة الموتى من الآباء والأجداد . غير أن هذه العبادة تطرقت إلى المسلمين فى صورة تقديس الأولياء والتقرب

---

(١) لقد عرضنا هذا الرأى بشىء من التفصيل فى مقدمتنا فى نقد مدارس علم الكلام التى صدرنا بها كتاب مناهج الأدلة فى عقائد الملة لابن رشد .

http://www.al-maktabeh.com

إليهم بالقرابين ، والالتجاء إليهم دون الله فى رفع الضر ، لأنهم أقرب إليهم من الله فيما يزعمون ، أو لأنهم بمثابة وزراء يشفعون لهم عند صاحب الأمر كله ، مع أن الدين الإسلامى يقرر أن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد . ثم امتد التشويه والتحريف من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق ، حتى عم البلاد الإسلامية بفضل جماعة من العلماء المزيفين الأدعياء ، أو من محترفى نوع من التصوف لا تربطه بالإسلام صلة قريبة أو بعيدة .

ب — التفرقة بين العقيدة والعمل :

ولما فطن العامة إلى أن ذوى الرأى فيهم من الفقهاء وأهل الجدل ليسوا على وفاق فيما يمس أمور العقيدة ، التى كانت لا تتطلب فى الحق لا جدلا ولا خلافاً ، أدركوا أن الحق كله لا يمكن أن يكون فى جانب أى فرقة من هذه الفرق . فاختلط عليهم الأمر ، وضاقوا بتشدد الفقهاء وتعنتهم ، وتفريعات أهل الجدل وتفسيراتهم التى لا تنتهى . فظنوا أنه من الممكن أن يفصلوا ، غير آثمين ، بين العقيدة والعمل الدنيوى من بيع وتجارة وروابط اجتماعية . ولم يكن هذا الفصل فى صالح العقيدة ، ولا فى صالح العمل ؛ إذ انقلبت العبادات إلى صيغ وعبارات جامدة وحركات لا روح ولا خشوع فيها . وبطل تأثيرها فى أعمال الناس ، ولم تعد تردعهم عن الفحشاء والمنكر ، وذلك لفقد روح الإخلاص فيها ، ولمّا غلب على الناس من الكذب والخداع والنفاق فى أمور دنياهم . فانتقل هذا الرياء إلى العبادات نفسها . وذهب كل إمرىء يسعى إلى ما يظن أنه الخير لنفسه ،

مكتبة المهتدين الإسلامية

ولو كان فيه ضرر لغيره . « لا يحن أخ لأخيه ، ولا يهتم جار بشأن جاره ، ولا يرقب أحدنا فى الآخر إلا ولا ذمة ، ولا نحترم شعائر ديننا ، ولا ندفع عن حوزته.» وينكر الأفغانى على بنى ملته أنهم يفرقون بين العقيدة والعمل فيقول : « أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى عنهم بما يظهر على الألسنة ، ولا يمس سواد القلب ؟ هل يرضى عنهم بأن يعبدوه على حرف ؟ فإن أصابهم خير اطمأنوا به ، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والأخرى ؟» .

وبينما يئن المسلمون مما يصيبهم كان العدو يغير على بلادهم فيستولى عليها قطراً بعد آخر ، فلا يثير ذلك نخوة لدى هؤلاء الذين يشتدقون باسم الدين ، ولا تدفعهم حمية للدفاع عنه . وكلما مضى بهم العهد زادوا تفرقة بين دينهم وأعمالهم ، وظنوا أنه يكفيهم أن يتقربوا إلى الله بعبادات ، ثم هم فى حل بعد ذلك من أن يسيئوا إلى الناس ، أو يقترفوا ما شاءوا من الآثام ما دامت العبادة فى ظنهم تمحو آثار أعمالهم . فهم يعبدون الله لا حباً فيه أو خشية منه ؛ وإنما لأنهم يحسبون أنهم يكفرون عن خطاياهم أو عما يأتون من شر . فكأن العبادة نوع من العوض أو هى تجارة وحيلة / فما جاء القرن الثامن عشر الميلادى حتى كان العالم الإسلامى قد أشرف على الفناء ؛ إذ فسدت أخلاق أهله ، واستسلموا لشهواتهم وأهوائهم ، وزهق الحق وجاء الباطل ، واندثرت الفضيلة ، وعم الجهل ، وتحالف رجال الدين الأدعياء مع الحكام الطغاة ، وأخذوا يدعون الناس إلى طاعة أولى الأمر منهم ، ولو كانوا فساقاً أو من غير دينهم . وعلم المستعمرون خطر رجال الكهنوت فى الأمم الجاهلة البدائية ، فقربوهم إليهم . وأفسحوا لهم فى مجالسهم بين حين وحين ، وأسرع

http://www.al-maktabeh.com

هؤلاء فألقوا بأنفسهم فى رحابهم ، وربما آثروهم على الحاكم المسلم ، بعد أن رأوا أنه غـدا لا يرتجى لديه خير أو نفع ؛ بل ربما هرع بعض هؤلاء إلى المستعمر يستنصرونه على إخوانهم الذين يطالبون بالحرية ، أو ينادون بعزل الولاة الخائنين . ولقد رأينا فى أثناء الأزمة المراكشية الأخيرة أن بعض رجال الطرق الصوفية يقفون موقفاً صريحاً ضد رغبات الشعب المراكشى بأسره ، وينصرون أعداءه عليه .

وعلى كل فقد كان مسلك هؤلاء المزيفين من العلماء أشد وبالا على العامة من جهلها ، فخارت النفوس ، وذهبت النخوة ، ودب التخاذل فى القلوب ، فأهملت الزراعة والتجارة واستشرى التواكل ، وطفق القوم يخدعون أنفسهم عما هم فيه من ضيق بحياة أخرى هى خير من حياتهم الدنيا ، إذ سينعمون فيها . وانصرفوا عن المساجد والعمل إلى الطرق الصوفية التى سيطر على المنتسبين إليها نفر من الأدعياء الجهلاء ، والتى استغلها المستعمرون فى جميع الأقطار الإسلامية لما رأوا أنها كفيلة بإبقاء الجاهلين على جهلهم ، والمتواكلين على تواكلهم .

وقد اضطرت عامة المسلمين إلى سلوك مسلك التصوف الـكاذب فراراً من تشدد علماء الـكلام والفقهاء الذين ذهبوا فى تفريع المسائل وتقسيمها وفرض الفروض المستحيلة كل مذهب ، فتخيلوا جميع الحالات الممكنة التى قد لا تتحقق بالفعل . ثم اختلفوا فى حكم كل مسألة من هذه المسائل ، فتشعبت الحلول، وتفرقت الآراء ، وأصبح الاهتداء إلى الحق فيها أمراً يكاد يشبه المستحيل ، حتى لدى المختصين فى دراسة العقائد والفقه ، فما بالك بالعامة التى تنفر من البحث ، وتكره التعمق ، ولا تبحث إلا عن السهل

مكتبة المهتدين الإسلامية

اليسير ؟ . وهل هناك ما هو أشد يسراً من مذهب يريحهم من عنت الفقهاء ولججهم ، ويحبب إليهم التخلص من المشاكل التى لا يجدون لها حلا ؛ بل يبيح لهم التحرر من التكاليف التى أصبحت ثقيلة مجهدة ، لاضطراب العقيدة التى توجها عليهم .

لقد كان هذا المذهب السهل اليسير هو التصوف . وليته كان تصوفاً إسلامياً بالمعنى الذى كان يفهمه السلف من الزهد والتقشف ، والرغبة عن غرور الدنيا ، ولكن مع العمل المستمر لنشر الإسلام ، وكشف حجب الوثنية والشرك لدى الأمم الأخرى . لقد كان تصوفهم على العكس من ذلك تصوفاً دخيلا على الإسلام ، ضم شتات آراء مسيحية وأخرى وثنية ترجع بعض أصولها إلى فلاسفة الإغريق كفيثاغورس وأفلاطون ، كما حوى آراء أفلوطين من أقطاب مدرسة الإسكندرية ، ومن أشهر القائلين بوحدة الوجود ، أى بأن كل ما فى هذا العالم إنما هو مظهر لوجود واحد، وقد فسَّره بعض المتصوفة من المسلمين بأنه الله الذى يحل فيهم وفى كل كائن ، مع أن فكرة الحلول هى تلك التى حاربها الإسلام وجاء لهدمها .

(ب) تصوف المتأخرين :

لقد كان تصوف السلف وزهدهم فى الحياة مظهراً للتعبد والخشوع ، وحافزاً إلى العمل ؛ بينما أصبح التصوف لدى المتأخرين تظاهراً بالعبادة ، وذريعة للتخاذل والتغرير بالعامة . فنشأ فى القرن الرابع الهجرى أو قبله بيسير جماعة من الأدعياء الذين أرادوا احتلال مكانة كبار الأئمة وأجلة العلماء ، فأخذوا يغربون فى الدين ، ويتظاهرون بالتقشف ، ولبسوا مسوح

http://www.al-maktabeh.com

التصوف أو الرهبنة . ومن العادة ، كما يقول عبدالرحمن الكواكبي ، « أن يلجأ ضعيف العلم إلى التصوف ، كما يلجأ فاقد المجد إلى الكبر ، وكما يلجأ قليل المال إلى الزينة واللباس . » فصار هؤلاء المدّعون للعلم والزهد يدسون على المسلمين بتأويل القرآن على نحو لا يحتمله النص الصريح . ثم نفقت سوق الدجل فى القرن الخامس ، واشتد ساعد الآراء الإلحادية ، وجاهر بعض الدعاة بمذهب إباحى ، على نسق ما كان يدعو إليه الدهريون من الإغريق والفرس .

وكان يرأسهم جماعة من الدهاة الذين علموا كيف تنحدر الأمة نحو الشرك بسبب جهلها وابتعادها عن المنابع الأولى لدينها . فنصب هؤلاء الدعاة أنفسهم أئمة فى الدين ، وزعموا أنهم أخذوه عن أئمتهم المعصومين ، أو تركوا أتباعهم يزعمون أنهم أولياء الله ، وأقطاب الطريق . ثم توسعوا فى تصوفهم هذا ، فرسموا الطقوس ، ووضعوا الأذكار ، وحددوا لها ترنحاتها ونغمات مزاميرها وطبولها ، وألفوا التراتيل ، وصنفوا الكتب التى ملأوها بالأساطير والأباطيل : ينسبونها فيها إلى أنفسهم أو إلى مشايخهم الذين أخذوا عنهم كرامات أو معجزات ، دونها معجزات المرسلين . ثم ستروا باطلهم بالغموض فى العبارة ، واستخدموا مصطلحات يعجز الرجل العادى سليم العقل عن فهمها ، وقالوا إنها أسرار لا يرقى إليها إلا الخاصة ، وإنه لا مدخل للعقل فى إدراكها ؛ لأن العارف منهم متى وصل أدرك بذوقه ما لا يخطر بعقل بشر . وعند الوصول يستوى الجمع والإفراد ، والكثرة والوحدة ، أى أن للتصوف منطقاً دونه منطق العقل ، أو هو مضاد له ، إن صح أنه يسمى منطقا . ثم قالوا إن من رام التعبير باللغة عما يشاهده أهل التصوف فى شطحاتهم يشبه أن يكون كمن يروم ذوق الألوان . أما هؤلاء الذين يأبى

مكتبة المهتدين الإسلامية

عليهم عقلهم أن يرتضوا ما يقرره المتصوفون من أمور تخالف صريح الشرع فهم كالخفافيش التى لا ترى ضياء الشمس ؛ لأنها ألفت ظلمة الليل . وخليق بهم أن يعيشوا مع العقلاء أمثالهم من الذين أوتوا ظاهراً من الحياة الدنيا . أما أهل الذوق أو المعرفة الصوفية فهم المصطفون المجتبون الذين تفيض عليهم أنوار من لدن عالم الغيب ، لا ينالها إلا كل ذى حظ صبور !

وقد فطن الخلفاء أول الأمر إلى خطر هؤلاء الغلاة من الأدعياء على الدين، فقتلوهم . لكن ذلك لم يحل دون انتشار كتبهم وكثرة أتباعهم ممن يميلون ، فى كل أمة ، إلى غرائب النوادر وعجيب الأساطير ، وممن يريدون أن يحيوا فى عالم كله معجزات مستمرة ؛ لأنهم لا يرتضون العقل حكما فى أمور دينهم ودنياهم ، أو لأنهم يعجزون عن استخدام عقولهم لتمييز الخبيث من الطيب . وأمثال هؤلاء كثيرون ، وهم فى كل طبقة من طبقات الأمة . ولم يعجز المدلسون عن أن يشبعوا نزعتهم إلى الغريب والطريف ، فطفقوا يقتبسون لهم كثيرا من أساطير الإسرائليين ونوادر المسيحيين وقصص قديسيهم وعجائبهم . ثم قسموا أتباعهم ومريديهم إلى منازل أو طبقات ، ووضعوا لهم نظما تشبه نظم الرهبانيات والأديرة ، ورسموا لهم طقوسا شتى ، وحددوا لهم مراسم الانتقال من طبقة أو منزلة إلى أخرى ، وخصصوا لهم الشارات والعلامات . ثم أقاموا الأضرحة على أجداث رؤسائهم وشيوخهم ، وجعلوها كالكنائس التى تضم رفات بعض الشهداء والقديسين . وشرعوا لهم التقرب بالشموع والنقود للتوسل لساكنى القبور ، والتبرك بآثارهم، وقراءة آيات أو سور من القرآن على قبورهم طلباً للشفاعة ، مع أن قراءة القرآن على القبور لم تؤثر عن السلف ؛ بل هى بدعة .

http://www.al-maktabeh.com

وقد قارن الكواكبي قبلنا بين طقوس المتصوفة ومراسم المسيحيين، فأحسن الاهتداء إلى ما بين تصوف المسلمين فى العصور الأخيرة وبين طقوس المسيحية من أوجه شبه سافرة فقال: «وأخذوا التبرك بالآثار والقدح والحربة من احترام الذخيرة وقدسية العكاز، وكذلك إمرار اليد على الصدر عند ذكر بعض الصالحين من إمرارها على الصدر لإشارة الصليب، وانتزعوا الحقيقة من السر، ووحدة الوجود من الحلول، والخلافة من الرسم [تنصيب الكاهن] والسقيا من تناول القربان، والمولد من الميلاد.. ورفع الأعلام من حمل الصلبان، وتعليق ألواح الأسماء المصدرة بالنداء على الجدران من تعليق الصور والتماثيل، والاستفاضة فى المراقبة من التوجه بالقلوب انحناءً أمام الأصنام، ومنعَ الاستهداء من نصوص الكتاب والسنة من حظر الكهنة الكاثوليك قراءة الأنجيل على غيرهم، وسدِّ اليهود الأخذ من التوراة وتمسكهم بالتلمود...»(١)

كذلك ذكر شكيب أرسلان أنه ذهب مرة إلى المدينة المنورة، فشاهد أن شيخ الحرم النبوى، وكان تركيا، قد دلف هو وجماعة من خدم الحرم فى ساعة معينة بعد العصر، فدخلوا الحجرة الشريفة لإيقاد الشموع والقيام ببعض الخدمات المرسومة. فرأى أنهم لبسوا جميعا، قبل دخولهم إليها، أوشحة بيضاء شفافة، كأنما كانوا يريدون بذلك التعظيم والتوقير، وهذا شبيه بما يفعله رجال الكهنوت فى الديانة المسيحية. وقد حكى الإمام محمد عبده أنه دخل يوماً كنيسة فى بيت لحم، فسمع أناشيد تشبه أناشيد الطرق الصوفية، ولكنه سرعان ما فطن إلى أن هؤلاء كانوا قسسا مسيحيين.

---

(١) ارجع إلى طبائع الاستبداد ص ٢٠، وإلى أم القرى ص ٣٥.

مكتبة المهتدين الإسلامية

(ى) مظاهر الشرك :

ولما فتح باب الشعوذة والإيحاء على مصراعيه اندفع من لا حياء له يدعى أنه أدرك سر الولاية : إنها نظرة واحدة من المرشد يصير بها الشقى ولياً، وإنها نفحة فى وجه المريد أو تفلة فى فمه فإذا بالأفعى تطيعه وبالعقرب تحترمه ، مع أنها لدغت صاحب الغار عليه السلام. وليس هذا كل ما يستطيعه العارف ؛ لأن من وصل عرف : « أن الولاية لا ينافيها ارتكاب الكبائر كلها ، وأن الاعتقاد أولى من الانتقاد ، وأن الاعتراض يوجب الحرمان ، أى أن تحسين الظن بالفساق والفجار أولى من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى غير ذلك من الأقوال المهوّنة للدين والأعمال التى تجعله نوعا من اللهو الذى تستأنس به نفوس الجاهلين . » (١)

ولما رأى أدعياء التصوف كيف أقبـــل الجهلة عليهم لم يزدادوا إلا غلواً فى تقرير أصول الشرك ، فدعوا إلى التبرك بالأولياء ، ونصحوا بالالتجاء إليهم لقضاء الحاجات ، ولو كانت من المنكرات . وصادف ذلك هوى فى نفوس النساء والمرضى وضعاف العقول ولو كانوا ممن قد يُظن بهم العلم . ذلك أن الإنسان متى قعد به تفكيره عن السمو إلى ما تتطلبه عقيدة التوحيد من أن الإله وحده هو الذى يدبر العالم ويصرفه ويرتب مسبباته على أسبابه ، دون أن يكون فى حاجة إلى وسيط أو وكيل ، فإنه يميل إلى عبادة ما يدركه حسه من ضريح ، أو تلمسه يده من شجرة أو صخر ؛ فإذا جمعت العبادة إلى جانب ذلك نصيباً من اللهو أو الرقص كانت أقرب

(١) عبد الرحمن الكواكبى .

http://www.al-maktabeh.com

إلى النفس ، وأكثر يسراً عليها من عبادة كلها جد وخشوع ؛ لأنها تتجه إلى من لا يرضيه أن يترنح المترنحون ، وأن يصفق المصفقون على وقع المزامير والطبول .

ولم يجد مثل هذا التصوف الذى لا يكلف جهداً ما يعترض سبيله، فانتشر فى مختلف البلاد الإسلامية ؛ بل وجد من تشجيع بعض الجهلة من الأمراء ما ثبت أقدامه فى مصر والشام وبلاد المغرب ، ثم بلغ غايته فى بلاد الأتراك، وسيطر على عقول أهلها منذ عدة قرون ، فكان سبباً فى انحلالها وذهاب ملكها . فقد عظم فيها أمر هؤلاء الدراويش الذين خلطوا العقائد الإسلامية بكثير من الخرافات والأوهام ، حتى ذوت عقيدة التوحيد ، وقامت مقامها عبادة الأولياء أو الموتى ؛ ووجدوا من الأمراء الجاهلين عضداً ، فتبعهم فى تشجيعهم نفر من العلماء الأغبياء فعم البلاء ، وأيقنت العامة ، أو كادت توقن ، أن هذا التصوف هو الدين .

وقد وصف الكواكبي الذى عاصر هذا الفساد مابلغه المشعوذون فى تركيا من القوة والنفوذ فقال : « فهؤلاء المدلسون قد نالوا بسحرهم نفوذاً عظيما ، وأفسدوا كثيراً فى الدين ، وبه جعلوا كثيراً من المدارس تكايا للطالبين الذين يشهدون لهم زوراً بالكرامات . . وبه حوّلوا كثيراً من الجوامع مجامع للطالبين الذين ترتج من دوّى طبولهم قلوب المتوهمين ، وتكفهر أعصابهم ، فيلبسهم نوع من الخبل ، فيظنونه حالة من الخشوع ، وبه جعلوا زكاة الأمة ووصاياها رزقاً لهم ، وبه جعلوا مداخيل أوقاف الملوك والأمراء عطايا لأتباعهم . . وبذلك ضاق على العلماء الخناق ، لا رزق ولا حرمة . وكفى بذلك مضيعا للعلم والدين ، لأنه قد التبس على العامة علماء

مكتبة المهتدين الإسلامية

الدين الفقراء الأذلاء من هؤلاء المدلسين الأغنياء الأعزاء ، فتشوهت عقائدهم وضعف يقينهم . »

وكم رأينا نحن فى بلادنا قطعانا من هؤلاء الجهلاء الأدعياء الذين يجوبون القرى فى مواسم محددة ، يحملون التمائم والمسابح ، ويتظاهرون بالورع . ولكنهم ينزلون ضيوفا على القرية الجاهلة بيتاً بعد بيت ، يقيمون الأذكار ويوهمون الناس بالباطل أنهم أهل بركة وخير ، فيصيبون أفضل طعامهم ، وقد يذهبون بالقليل الذى يدخرونه وما أشد حاجتهم إليه ، إذ يحرضونهم على البذل لهم ، ونحر الضحايا على قبور أوليائهم . حقاً إن انتشار التعليم فى البلاد الإسلامية كفيل بالقضاء على هذه الخرافات . لكننا ما زلنا نرى فى عاصمة مصر نفسها نفراً غير قليل يهرعون من أقاصى البلاد لمولد من الموالد ، فيزورون الأضرحة فيلمسون جدرانها ، فإذا انتهوا من ذلك أقاموا حفلات الذكر فى الأزقة أو الميادين ، على نحو تعافه النفس إذ لاخشوع فيه ، وإنما هو ضجيج وصفيق لايذكر فيه اسم الله إلا باللسان . غير أن هذه الطقوس أو الحفلات أصبحت أقل رونقا وأقل جاذبية مما يبشر بأن ساعة الخلاص من هذا التصوف الخادع قد أوشكت أن تحين

(هـ) الدفاع عن عقيدة التوحيد :

وقد فزع كثير من مفكرى المسلمين فى مختلف العصور لموجة الشرك التى كانت تقضى على معالم العقيدة الإسلامية . وأشهر هؤلاء ابن تيمية ومن تبع أثره ، كالإمام الشوكانى اليمنى ، ومحمد بن عبد الوهاب ، وجمال الدين الأفغانى وتلاميذه من أمثال محمد عبده ورشيد رضا . فإن هؤلاء رأوا أن

http://www.al-maktabeh.com

التصوف كما يفهمه المسلمون بدعة فى الدين؛ بل نوع من الشرك؛ لأن المسلمين استبدلوا بالأصنام التى كان يعبدها عرب الجاهلية قبور الأولياء التى أقاموا عليها الأضرحة، وأسرجوا لها الشموع، كما يفعل المسيحيون فى كنائسهم. وجعلوا يطوفون بها، والسعيد منهم من استلم أركانها، أو نثر ترابها على رأسه. كذلك هرعوا إليها يستنجدون بالموتى عندما تحل بهم النوائب، ويطلبون إليهم الرحمة والعون، ويتخذونهم زلفى إلى الله فى قبول دعواتهم. ثم ابتدعوا عبادات لم يأت بها الإسلام، كالتقرب إلى الأولياء ببعض الركعات كما لو كان الله قد ترك الإسلام ناقصاً، فجاءوا هم يكملونه.

وكاد يستوى المسلمون جميعا فى الإيمان بمثل هذه الخرافات. حقاً قد يكون انتشار هذا الشرك وعبادة الأصنام أو القبور بين العامة أمرا لا يثير كثيراً من العجب، ولكن ما أعجب أن يميل إلى هذا الشرك كثير من الخواص، أو ممن يُتَوَهم أنهم كذلك. » وكم سرى عن تشييد القبور وتحسينها من مفاسد يبكى لها الإسلام، اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام. وعظم ذلك، فظنوا أنها قادرة على جلب النفع، ودفع الضرر، فجعلوها مقصداً لطلب الحوائج وملجأ لنجح المطالب، وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم، أوشدوا إليها الرحال، وتمسحوا بها واستغاثوا. وبالجملة فإنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه ... ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لا نجد من يغضب لله، ويغار حمية للدين الحنيف، لا عالماً ولا متعلماً، ولا أميراً ولا وزيراً ولا ملكا. وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يُشك معه أن كثيراً من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من قِبل خصم حلف بالله فاجراً، فإذا قيل له بعد ذلك احلف بشيخك

مكتبة المهتدين الإسلامية

ومعتقدك الولى الفلانى تلعثم وتلكأ ، وأبى واعترف بالحق . »[1] وقد كثر عدد هؤلاء الأولياء أو أنصاف الآلهة بتقدم الزمن ، وأصبحوا لا يدخلون تحت حصر ، فلكل قرية معبودها أو صنمها ، أى أن المسلمين الذين يلجأون إلى غير الله فى دعواتهم وتوسلاتهم يشركون معه آلهة أكثر عدداً مما ذهب إليه هؤلاء الذين قال الله فيهم : لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة .

ومن هؤلاء الذين فزعوا من طغيان مظاهر الشرك محمد بن عبد الوهاب الذى قام ، فى أثناء القرن الثامن عشر ، ينادى بضروره تطهير العقائد ، والعودة إلى العقيدة الأولى ، عقيدة التوحيد الصحيح التى لا تشرك مع الله أحداً غيره فى ذاته أو صفاته أو أفعاله ؛ وجعل يحض المسلمين على وجوب الرجوع مباشرة إلى الكتاب والسنة وعدم الثقة بطائفة رجال الكهنوت الذين فرضوا أنفسهم على الدين وأهله وأغلقوا باب الاجتهاد وآثروا التقليد وجعلوا الجمود شعاراً لهم . كذلك هاجم المتصوفة وما ابتدعوه من إقامة الأضرحة وما سنوه من زيارة القبور ونذر النذور وذبح القرابين وتلاوة الأوراد التى يبكون عند سماعها ولا يبكون عند سماع القرآن : ذلك أنه كان يعتقد أنه لا نجاة للمسلمين مما حل بهم من تدهور إلا إذا تركوا هذه الأوهام والخرافات وعادوا إلى دينهم فى طهارته الأولى .

لكن ثورة ابن تيمية وتلاميذه فى مختلف العصور لم تكن إلا ثورة أفراد قلائل ، غلبت على أصواتهم صيحات المتوسلين بالشاذلى والجيلانى وابن عربى . فلقد كان الاتجاه نحو التصوف غالباً ؛ ولأن الجهل كان شاملا . فاتهم دعاة الإصلاح بالمروق والكفر ، كما اتهم بذلك ابن تيمية ،

---

(١) من كلام الإمام الشوكانى : نيل الأوطار ج ٣ ص ١٣٤ .

http://www.al-maktabeh.com

وكما شوه رجال الكهنوت والسياسة فكرة المسلمين عن الحركة الوهابية . فلما جاء جمال الدين الأفغانى ، عجب لأمر هؤلاء الذين يعيشون عالة على الناس، ويدّعون التصوف والاتصال بالله ، أو يزعمون أنهم يفنون فى ذات الله سبحانه ، مع أن الفناء الحقيقى إنما يجب ان يكون فى العمل من أجل الآخرين، لا فى التغرير بهم وتضليلهم وصرفهم عن دينهم ودنياهم. وقد نجحت دعوة جمال الدين إلى حد ليس باليسير ، فحملها من بعده تلاميذه وكثير من الكتاب . فأصبح هؤلاء الذين لا ينظرون بعين الرضا إلى التصوف ؛ بل يهاجمونه ، من أمثال رشيد رضا[١] وغيره ، نفراً عديدا لا يوصفون بالكفر أو المروق ، وغدا أنصار التصوف فى موقف الدفاع ، بعد أن لزموا موقف الهجوم عصورا طويلة .

على أننا قد لا نعطى التصوف حقه فى معركته الأخيرة إذا نحن أنكرنا أنه ما زال له أنصار يدافعون عنه ، قدر طاقتهم ، محاولين الإبقاء عليه بين المسلمين ، بعد أن أدرك هؤلاء خطره عليهم ، ونعنى بهؤلاء الأنصار بعض المستشرقين ممن يدرسون التفكير الإسلامى ولا سيما التصوف . فمنهم من يقول : ليس فى التفكير الإسلامى شيء جدير بالإعجاب سوى التصوف ، أما الفلسفة فحظ المسلمين فيها ليس مما يؤبه له . وقد ردد بعض من يشتغلون بالفلسفة من المسلمين هذا الرأى غافلين عما يحمل بين ثناياه . فإن تمجيد التصوف الإسلامى لا يراد منه فى الحقيقة سوى تمجيد التصوف المسيحى الذى كان أحد منابعه ، وهو تصوف قائم على فكرة الحلول التى تتنافى مع عقيدة

---

(١) المنار : مجلد ٨ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ ؛ مجلد ٢ ص ٩٨ ؛ مجلد ١٠ ص ٣٧٠ ؛ مجلد ٨ ص ١٦٩ ، مجلد ١١ ص ٢٩٧ الخ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

المسلمين . قد يقول بعضهم إن الناس يميلون فى جميع العصور إلى اعتقاد أن الترانيم والمواكب الدينية وتقديس آثار الأولياء لها قيمة ذاتية ، وإنها تصل الإنسان بالإله ، وإنها تعبر عن حاجة الإنسان إلى تجسيد عواطفه الداخلية بحركات خارجية ، وتلك حاجة إنسانية لايمكن أن تختفى من أى دين ، ولو كان الإسلام . ونقول نحن إن المسلمين ليسوا فى حاجة إلى هذه الترانيم والمواكب ولا إلى تقديس الآثار ، لأنهم يستطيعون الاتجاه إلى خالقهم خاشعين آمنين ، دون أن يشركوا معه فى ملكه غيره . وقد فعلوا ذلك أزماناً ، وهم الآن فى طريق العودة إليه ، فيما نعتقد ، بعد أن أخذوا بأسباب العلم والحضارة .

٣ — يأس وجبن

(١) يأس :

لم يستطع التفكير العقلى أن يصمد أمام عدوين رهيبين تحالفا عليه وأقسما على هلاكه ، رغم ما بينهما من صراع قديم ، ونعنى بهذين العدوين المتحالفين تعنت أهل الجدل والفقه ، ومذهب التصوف الذى جعل الدين لهواً ولعباً ، والتوحيد شركا أو حلولا . وقدر للشر أن ينتصر ، فأنطفأت جذوة التفكير ، واندثر العلم ، ودخلت الأمم الإسلامية فى سباتها العميق ، فتخلفت عن الركب ، وسبقتها أمم أوروبا التى تتلمذت عليها طيلة العصور الوسطى . فلما أيقظها الاستعمار من محنتها ، وأطلعت على آثار الحضارة الأوروبية وما وصلت إليه من تقدم فى القوة والعمران والعلم ، ورأت أن الشقة بينها وبين السابقين أضحت أكثر اتساعا من أن تقطعها بالخيال ، فضلا عن أن تأتى عليها بالجد والعمل تملكها اليأس ، وآثرت أن تعود إلى نومها ، وأن تتعلل

http://www.al-maktabeh.com

بالأماني والدعاء ، ورغبت فى أن تستسلم للقضاء والقدر ، وهى تظن أن معجزة من المعجزات ستأتى يوماً لتدفعها إلى الإمام ، فتحتل مكان الصدارة فى سباق الأمم ، دون أن يتطلب منها هذا السبق جهداً ، ودون أن تكون فى حاجة إلى ركوب الصعب من الأمور . فحق للأوروبيين أن يسخروا من المسلمين المعاصرين ، وأن يرجعوا تأخرهم إلى إيمانهم بالقضاء والقدر ، وأن يقولوا عنهم إنهم قوم مضى زمنهم ، ولن تقوم لهم قائمة ما داموا يحيلون كل أمر يعجزون عنه ، أو يظنون أنهم عاجزون عنه ، على القدرة الإلهية ؛ وإن عقيدتهم هذه سوف تقودهم إلى الفناء ، وليس فى فنائهم خسران كبير ؛ إذ سيخلفهم فى أرضهم قوم آخرون هم خير منهم ؛ لأنهم سيكونون أكثر منهم اعتدادا بأنفسهم ، وأقدر على مقاومة عوامل الزمن ، وحوادث الدهر التى لا تبقى إلا على من هو أهل للبقاء . فالحياة صراع ، ولا مجال فيها للضعيف خائر العزم .

حقاً حاول جمال الدين الأفغانى أن يرد هذه التهمة ، وأن يدافع عن عقيدة المسلمين فى القضاء والقدر ، فرمى أهل أوروبا بأنهم لا يفهمون حقيقة هذه العقيدة ، وأنهم لا يفرقون بين الإيمان بالقضاء والقدر وبين مذهب الجبر الذى نادت به طائفة من المسلمين منذ القرن الثانى الهجرى . فإن هؤلاء كانوا ينكرون على الإنسان كل قدرة ، وينسبون ذلك إلى الله وحده . فهبطوا بالإنسان إلى مرتبة الجماد أو النبات ، وجعلوه كريشة فى مهب الريح تقلبها كيفما تميل ، لا قدرة لها ولا إرادة . ويزعم الأفغانى أن هذه التهمة التى ألصقها الأجانب بالمسلمين تهمة باطلة لا تقوم على أساس من الحق ، وأن ضعاف العقول من الشرقيين وحدهم هم

مكتبة المهتدين الإسلامية

الذين يرددونها ؛ لأنه « لا يوجد مسلم فى هذا الوقت من سنى وشيعى وزيدى وإسماعيلى ووهابى وخارجى يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة ؛ بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءاً اختيارياً فى أعمالهم ، ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم . » ذلك أن المسلمين يرون الآن أن مذهب الجبر المطلق ليس إلا نوعاً من السفسطة الكاذبة . هذا إلى أنه مذهب تاريخى قد غبر زمنه منذ أواخر القرن الرابع الهجرى . وكأن الأفغانى يومئ هنا إلى انتصار مذهب الأشعرى الذى حاول التوفيق بين طائفة الجبرية وطائفة المعتزلة فى مسألة قدرة العبد ، وصلتها بعقيدة المسلمين القائلة بأن الله خالق كل شىء . ويظن جمال الدين بعد ذلك أن مذهب الجبر المحض قد اندثر تماماً ، وأن الإيمان بالقضاء والقدر ، كما يفهمه المسلمون ، ليس شبيهاً فى شىء بهذا الاعتقاد الغريب عن روح الإسلام . ثم يلخص رده على موجهى هذه التهمة فيقول : « أما ما زعموه فى المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشؤه هذه العقيدة ولا غيرها من العقائد الإسلامية ، ونسبته إليها نسبة النقيض إلى النقيض . » وهو يعلل رأيه هذا بأن المسلمين الأوائل لم يفتحوا الأمصار ، ولم يبسطوا ملكهم عليها إلا لأنهم كانوا مؤمنين بالقضاء والقدر ، وبأن نابليون لم ينتصر فى معاركه إلا لأنه كان مؤمناً بهذه العقيدة

وهنا يؤكد الأفغانى أن انحطاط المسلمين إنما يرجع إلى بعض الأسباب السياسية ، كهجوم التتار على بغداد ، وكمجىء الصليبيين إلى بلاد الشام فى الوقت الذى ضعف فيه ساسة المسلمين وأمراؤهم ؛ فى حين أنه يقول غير ذلك فى موطن آخر . ومهما يكن من تأرجح رأيه فى أسباب التدهور فإنا نراه

http://www.al-maktabeh.com

يؤكد مرة أخرى أن الأمة الإسلامية لن تموت ما دامت تؤمن بالقضاء والقدر ، ويعلل النفس بأن ما عرض للمسلمين من الأمراض النفسية والتدهور العقلي لا بد أن يزول بسبب التمسك بمثل هذه العقيدة الحقة ، ليعود الأمر كما بدأ ، ويذهب اليأس ، ويأتي مكانه العزم ، فينقذ المسلمون بلادهم ، ويرهبوا الأمم الطامعة فيهم ، فيوقفوها عند حدها . وليس ذلك في ظنه بالأمر الذي ينكره العقل ، كما تدل عليه الحوادث التاريخية ؛ فإن العثمانيين هبوا من نومهم بعد حروب التتر وأهل الصليب ، فأرسلوا جيوشهم إلى بلاد أوروبا ، وامتدت فتوحاتهم ، ودوخوا الملوك والسلاطين ، حتى غدا سلطان آل عثمان يسمى بالسلطان الأكبر في أوروبا .

لكننا نعتقد أن جمال الدين كان يخدع النفس بالأماني ، ويغفل عن حقيقة هامة ، ينبغي لنا أن نعترف بها ، لا مجاراة أو تقليداً لأهل أوروبا الذين يعيروننا بإيماننا بالجبر ، ولكن إحقاقاً للحق ، وكشفاً عن موطن الداء ، وقضاء على تلك الفكرة الخاطئة التي كونها المسلمون لأنفسهم عن القضاء والقدر . حقاً كانت هناك جماعة الجبر المحض الذين أنكروا على الإنسان أفعاله وقدرته واختياره . وجعلوه لا يملك من أمر نفسه شيئاً . كذلك من الحق أن جماعة من المسلمين قاموا يسفهون آراء هذه الطائفة ، لكن لم يكن أهل السنة الذين يمثلهم الأشعري وغيره هم الذين قضوا على آراء الجبرية ، تلك الآراء التي بعثت اليأس في القلوب وشلت الأيدي عن العمل ، وإنما كان المعتزلة هم الذين حاولوا إنقاذ الأمة من وباء التواكل والتخاذل ؛ فأخذوا يقررون حرية الإنسان واختياره ، حتى يكون للثواب والعقاب معنى.(١)

(١) إن كان من فعل الكبائر مجبرا فعقابه ظلم على ما يفعل
والله إذ خلق المعادن عالم أن الحداد البيض منها تجعل

مكتبة المهتدين الإسلامية

فجاء أبو الحسن الأشعرى يحاول التوفيق بين أهل الجبر وبين المعتزلة فلم يفلح في توفيقه ، إذ قال إن للإنسان كسباً ، واختياراً ولكنه لا يخلق أفعاله . لأن الله هو الذى يخلقها له ، سواء أكانت إرادية أم غير إرادية . وظن من لا علم له بحقيقة رأى الأشعرى أن هذا المفكر كان وسطاً بين أهل الجبر والقائلين باختيار الإنسان وحريته . والحق أنه كان أقرب إلى أهل الجبر ؛ بل هو في رأينا لا يختلف عنهم في قليل أو كثير .(١)

فلما كتب النصر لآرائه ، وظن الناس أنها تعبر عن حقيقة آراء السلف سرت في الأمة الإسلامية روح التخاذل والتواكل . ولن يغنى عن الأشعرى أن يجىء جمال الدين يحاول تبرئته ، أو يتحايل في دفاعه بالتفرقة اللفظية بين عقيدة الجبر وبين فهم المسلمين للقضاء والقدر . وكان أولى به أن يسلك مسلك غيره من أئمة التفكير الإسلامى الذين فسروا القضاء والقدر بأنه الأسباب التى وضعها الله في الكون ، والتى يستطيع الإنسان أن يعمل في حدودها ، وأن يعمل الشىء الكثير ؛ بل الشىء الذى لا يكاد يقف عند حد . لكن هذا الرأى الحق لم يجد من يصغى له أو يحاول فهمه . وهكذا انتصرت فكرة الأشعرى ، وهى فكرة الجبر المحض ، بسبب الجمود والتقليد ، وانتهى الأمر بالأمم الإسلامية إلى ما نراه من ضعف في وقتنا الحاضر .

فما لا شك فيه أن عقيدة الجبر ، كما فهمها المسلمون في عصور انحطاطهم ، وكما يفهمها كثير منهم في عصرنا الراهن كانت وليدة الخور والتخاذل .

---

(١) عرضنا هذه الفكرة في موضع آخر : انظر مقدمتنا لكتاب مناهج الأدلة في عقائد الملة ص ١١٠ — ١١٣ .

http://www.al-maktabeh.com

وقد استخدمها بعض الناس تبريراً لما هم فيه من ضنك وعجز عن التمتع بالطيبات التى أباح الله لهم أن ينعموا بها ؛ ثم أرادوا ألا يكون القادرون أفضل حالا منهم ، فأخذوا يحثونهم على الزهد فى الدنيا والاكتفاء بالقليل الذى لا يغنى ، والقضاء على الميول الإنسانية المشروعة كالسعى وراء المجد ، وطلب المال والنفوذ والقيام بخطير العمل مما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع ، ويجعلهم فى منعة لا ينال منها عدو أو طامع . ثم طفقوا يرغبونهم فى أن يعيشوا كأموات قبل أن يدركهم الموت حقيقة . وكأن الإسلام لم يأت لينادى بالجمع بين الدين والدنيا ، وينعى على هؤلاء الذين يحرّمون على أنفسهم ما أحل الله لهم لأنهم آثروا أن يحيوا حياة الرهبان . حقاً إن الإسلام لا يدعو أهله إلى التكالب على الحياة الدنيا على نحو ينسون معه آخرتهم ، لكنه ينصحهم بالتوسط فى الأمر . فإذا غلا بعض المسلمين فى الحث على الزهد والتقشف فربما كان ذلك لعجز فى نفسه أو الترويح عن العاجزين من أمثاله .

ومع هذا فمن العادة أن يفسر المرء كل شىء بالقضاء والقدر أو الصدفة — وكلا التعبيرين هنا سواء — عندما يجهل أسباب الأشياء ، أو عندما يحاول الإبقاء على جهله . وهل هناك من خطر على عقيدة المسلم إذا أدرك أن ما يحدث فى العالم إنما يقع طبقاً لقواعد وقوانين ثابتة سخرها الله لتؤدى إلى نتائج محددة ؟ وأيهما أسلم عقلا وأصح إيماناً : رجل يعتقد أن ما يحدث فى الكون إنما يجرى على أسس ثابتة تدل على دقة الصانع وعلمه وحكمته، أم رجل يظن أن الصدفة أو الاتفاق، أو القضاء أو القدر ، أو ما شئت من الأسماء ، هو قانون هذا العالم ؟ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

هذا إلى أن الزهد فى الحياة لا يمنع العمل ، ولا يبرر اليأس ، ولا يدعو إلى التواكل الذى يوصى به أهل الجبر المطلق . ألم يكن الصحابة وكثير من أمراء المسلمين زاهدين ، ومع ذلك كانوا أكثر الناس عملا وأقواهم أملا فى رفعة شأن دينهم وأهله ؟ لقد كان زهدهم هذا زهداً صحيحاً ، لأنه كان يهدف إلى تغليب المصلحة العامة والنهوض بإخوانهم ، لا إلى تثبيط هممهم ليقعدوا بهم مع القاعدين .

على أن الآراء إنما تقدر بعواقبها ونتائجها . فهل هناك من ينكر أن فكرة المسلمين عن القضاء والقدر كانت وبالا عليهم ؟ وإلا فما السبب فى هذا اليأس القاتل وفى كراهيتهم للعمل ؟ لو كنا نعتقد أن أعمالنا من صنع أيدينا ، وأن لنا قدرة على تغيير حالنا بخير منها لما تركنا العمل ، ولآثرنا الجد ، ولضقنا بالكسل ، ولعافت نفوسنا روح الهزل التى يزهو بها كثير منا ، مع أنها لا تعبر عن نفوس سليمة معتدلة ؛ بل تنم فى الحقيقة عن رغبة المرء فى أن يستر همه وعجزه وأساه . لقد ملك اليأس علينا قلوبنا فأصبحنا نضيق بكل شيء ونسخر من كل شيء . فلا نبحث عن معرفة ، ولا نحاول الاستماع إلى نصح ؛ بل قد نسخر من الناصحين ، ونتخذهم أضحوكة وملهاة لنا . وذلك لضعف الإحساس والقنوط من كل إصلاح . فكلنا يضحك ويسخر ، ولكنه ضحك أشبه بالبكاء . فإذا أغلظ الناصح فى نصحه أثار غضب اليائسين لا ضحكهم ؛ لأنهم يدركون عندئذ أنه يطلب إليهم أن يؤدوا واجبات لا قِبَل لهم بها لأنهم أعجز الناس عن أدائها . هذا إلى أنه لا يخطر بخيال أحد من اليائسين أن يعمل من تلقاء نفسه . ولئن تنبه خاطر للحق فى خيال أحدهم ، واستفزه داع من قلبه إلى ما يكسب ملته شرفاً ، أو يعيد إليها مجداً ، عدّه

http://www.al-maktabeh.com

هوساً وهذياناً أصيب به من ضعف المزاج أو خلل فى البنية ، او حسب أنه لو أجاب داعى الذمة لعاد عليه بالوبال ، وأورده موارد الهلكة ، ويُحكم لنفسه سلاسل من الجبن ، وأغلالا من اليأس ، فتغل يداه عن العمل ، وتقف قدماه عن السعى، ويحس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه . »[1]

وفى غمرة هذا اليأس الشامل افتقد المسلمون الزعماء والهداة فلم يجدوهم ؛ لأن المصلحين والمرشدين لا ينبتون عادة فى الحجر الصلد ، ولا تثمر آراؤهم فى الأمم المتأخرة التى تفقد ثقتها بنفسها وربها . وكيف يعقل أن يوجد هؤلاء إذا لم يكن هناك صدى لنصحهم فى قلوب العامة ، وإذا لم يعترف لهم قومهم بأنهم ممتازون وقادرون على إنقاذهم ، ويقرون لهم بالرغبة المخلصة فى النهوض بهم ؟ نقول إن ظهور المصلحين فى مثل هذه البيئات اليائسة القانطة يكاد يكون أمراً مستحيلا ؛ لأن فكرة الإصلاح لا يمكن أن تسنح لخيال امرئ مادام يرى قومه مصرين على يأسهم وتخاذلهم ؛ لا يجمعهم رأى ، ولا يحفزهم أمل ، ولا يشعرون بدافع إلى العمل على قهر عوامل التدهور التى تكتنفهم من كل جانب .

ب — جبن وذل :

وإذا فقد المرء كل أمل فى صلاح أمره ويئس من ظهور من يأخذ بيده ، وأرجع كل ما يلحقه من أذى وضر إلى ضربات القضاء والقدر ، أو إلى محض الصدفة التى تتقلب مع الهوى ، أضحى فريسة للهواجس والوهم ،

(١) العروة الوثقى ص ٥٦ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

وتطرق الخوف إليه ، ترتعد فرائصه عند كل بارقة ، وتذهب نفسه شعاعا عند كل نازلة ، لأن الجهل بأسباب الأشياء أو نتائجها يضخّم الوهم ، ويثير الرعب ، فلا يقدم الإنسان على أيسر الأعمال وأكثرها أمناً ، فضلا عن أن يخاطر بحياته من أجل الحياة الكريمة ؛ بل يؤثر أن يخنع وأن يرضى بما لا يرضى به الحر الكريم ، ويستحب معيشة الضنك فى كنف الذل على حياة المشقة التى تتسع لها آفاق من العزة والرغد . فالرابطة وثيقة بين اليأس والجبن ؛ فإذا كان اليأس هو الذى يقعد بالأمم ويثبط الهمم فإن الجبن هو الذى ينخر فى أسس الدول ويقضى على كرامة أبنائها ، فيجعل احتمال الذل فى أعينهم هيناً ، ومذاق العبودية مستطاباً .

ذلك أن الجبان يتقبل الإهانة متذرعاً بالصبر ، ويرتضى العسف مدعياً الجلد ، ثم لا يسوؤه ، فى كثير أو قليل ، أن يقبل الجور أو يسلك أوعر المسالك إبقاء على حياته . يسخره الأجنبى أو المستبد كما تسخر الأنعام فلا يخطر بباله أن يحتج ، وقد يحرم ثمرة عمله فلا يجرؤ على المطالبة بأجر ما عمل ؛ ولو طلب إليه أن يعمل أكثر مما يطيق لما استطاع رفضاً « لا بل يتجرع مرارات الموت فى كل لحظة — كما يقول جمال الدين — ولكنه راض بكل حال . . . هذه حياته : أضاع كل شىء فى القناعة بلا شىء » . . إنه الجبان الذى يتجشم أشق الأعمال ويعانى المكاره ، ولو بذل جزءاً يسيراً من جهده الذى يتطلبه منه سادته ، لاستطاع أن يحطم قيوده ، وأن ينال نصيباً من الحياة التى تليق بالآدميين . لكن المستعمرين والمستبدين يعلمون أن هؤلاء الجبناء « أسقطوا أنفسهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضى الفطرة الإنسانية ، ورضوا لها بما دون حقها . . وكفروا بنعمة الله فى تكوينهم على الشكل الإنسانى . . . فيعاملهم أولئك

السادات بما لا يعاملون به ما يقتنون من الحيوانات .»[١] وهذا أمر شهدناه ، وربما ستشهده عدة أجيال مقبلة فى بعض البلاد الإسلامية التى ترزح إما تحت حكم ملوك طغاة ، وإما تحت نير الاستعمار الأوروبى .

وقد أصيب المسلمون بالجبن ، لأنهم يخافون الموت ، ويحرصون على حياة ما كان لهم أن يحرصوا عليها لو أرادوا الحق ؛ فإن الحياة الطيبة هى التى يعمل المرء للاحتفاظ بها ، ويضحى بنفسه للدفاع عنها . أما الحياة التافهة فمن العسير أن يتصور المرء كيف يشتد الحرص عليها إلى درجة ينسى معها آدميته . والجبن وليد الخوف من الموت ، فإن الجبان متى نزلت به نازلة تقبلها بالرضا والصبر ، ولم يحاول دفعها ؛ لأنه يظن أنه لو فعل لنزلت به أخرى أشد وأدهى ، وربما لقى فيها حتفه . لذا تراه يستحب هذه الحياة التافهة على أية حياة كريمة تتطلب قدراً من الشجاعة « مع أن نظرة واحدة بين يديه . . . تكشف له أن تلك المخاوف إنما هى أوهام وأصوات غيلان ووساوس شياطين غشيته فأدهشته ، وعن سبيل الله صدته ، ومن كل خير حرمته الجبن فخ تنصبه صروف الدهر وغوائل الأيام لتغتال به نفوس الإنسان ، وتلتهم به الأمم والشعوب ، وهو حبالة الشيطان يصيد به عباد الله ويصدهم عن سبيله ، هو علة لكل رذيلة ... ولا فساد إلا وهو جرثومته ، ولا كفر إلا وهو باعثه وموجبه ... هازم الجيوش ومنكس الأعلام . . . ماذا يحمل الخائنين على الخيانة فى الحروب الوطنية ؟ أليس هو الجبن ؟ ماذا يبسط أيدى الأدنياء لدنيئة الارتشاء أليس هو الجبن ؟ »[٢]

---

(١) المصدر السابق ص ١٨٠ . (٢) العروة الوثقى ص ٢٠٤ — ٢٦٠ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

ومن الأكيد أنه لابد للمطلع على أحوال الدول الإسلامية من الاعتراف أنها لم تعد تلك الدول التي يحسب لها العدو حساباً ؛ بل إنها فقدت مميزاتها الأولى ، وأهمها الشجاعة والثقة بالنفس والأمل في النصر . فألف أهلها استبداد ملوكهم واستعباد أولى الأمر لهم . فصار الذل والهوان طبيعة فيهم ، لا يسمو بهم أمل ، ولا تحفزهم شجاعة أدبية إلى الوقوف في وجه الطغاة والمستبدين ؛ بل إنهم ألفوا الانحدار والانحطاط بحيث لو طلب إليهم أن ينعموا بحريتهم التي تعطى لهم عفواً لما استطاعوا أن يتحرروا من ذلهم . فهم يحكمون على أنفسهم بالحطة ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة ، ولا ينفرون من الإهانة والتحقير ؛ بل يوطنون أنفسهم على قبول ما يوجه إليهم من ذلك أياً كان . ولو حاول أحد منهم أن يرفع الذل عنهم بالخروج على الحاكم المستبد لوجد من أمره عجباً ، ولرأى قوماً من إخوانه البؤساء يدافعون عن جلاّديهم ، ويفضلون أن يبقوا على ما هم فيه من ضيم لأنهم يخافون ما يأتي به الغد ، وقد يكون أسوأ من حاضرهم. فالجبن يقعدهم والذل يثنيهم عن أن يدركوا الخير بأيديهم أو بأيدى غيرهم . «وقد يبلغ فعل الاستبداد بالأمة أن يحول ميلها الطبيعي من طلب الترقي إلى طلب التسفل ، بحيث لو دفعت إلى الرفعة والعزة لأبت وتألمت كما يتألم الأجهر من النور ، وإذا ألزمت الحرية تشقى وربما تفنى ، كالبهائم الآهلة إذا أطلق سراحها ...» (١)

ونحن لا نغلو في تصوير حالهم فإن الحوادث التاريخية تكشف لنا كل

(١) طبائع الاستبداد . ص ٩١ .

http://www.al-maktabeh.com

يوم من أمثال ذلك شيئاً كثيراً يحار له العقل ، ويعجز المنطق عن تفسيره ، ولا يبرره إلا طول ما لقى القوم من ذل واستبداد ، حتى اعتقدوا أن تلك هى الحياة الطبيعية التى يجب أن يحياها الإنسان فى دار الغرور . ولو أن هؤلاء الجبناء أمنوا على أموالهم وأنفسهم وحريتهم فى القول والعمل ، ثم نزلت مصيبة بإخوانهم فى قطر آخر لما رثوا لهم ، ولا توجعوا لمصابهم ؛ بل لو ثارت طائفة من الأحرار على ملك مستبد من ملوكهم فقهرته ، واستردت لشعبها ما كان يرنو إليه من الحرية والعدل ، لوجدت كثيرا من الناقمين فى بلدها وفى البلاد الإسلامية الأخرى : ينظرون إليها شذراً ، ولا يقفون فى عدائهم لها موقف الحياد ، أو يكتفون بالتقول عليها واتهامها بالباطل ، وبتشويه أغراضها والحط من أعمالها ؛ بل قد يتجاوزون ذلك — وكثيراً ما يفعلون — إلى الكيد لها وطعنها من الخلف نذالة وخيانة أو حسداً ، فيحاولون الاتفاق مع العدو الخارجى الذى يتربص بهم الدوائر جميعاً .

وإنما يخونون إخوانهم وأنفسهم لأنهم ربما يرون فى خلاص قطر من الأقطار الإسلامية بشيراً أو نذيراً بخلاص المستعبدين فى الأرض من أبناء جلدتهم . وذلك أمر لا يرجونه ولا يأنسون إليه ، ولا يطيبون به نفساً ، لأنهم يعتقدون أن طلب الإصلاح خطر على النظام القائم عندهم ، ونذير بانقضاء عهد الذل الذى ألفوا مذاقه فأفسد طباعهم ، فآثروا الاستكانة لملوكهم المستبدين ، الذين يرون طاعتهم أمراً واجباً ، ولو كانوا يعملون ، قاصدين أو جاهلين ، على خراب بلادهم وتسليم المسلمين قطيعاً إلى الدول الأجنبية : يسخرونهم فى فلح الأرض أو يجندونهم لحروبهم . وإن مسلكا هذا شأنه ليس من نسج الخيال وإنما هو حقيقة تاريخية حتى فى عصرنا هذا ؛ فإن بعض الحكومات الإسلامية ما زالت

مكتبة المهتدين الإسلامية

تؤثر الفرقة ، وترحب بالاتحاد مع المستعمرين ، مما يجعل المحايد من الأجانب يقلب كفّيه لا يفقه شيئاً من أمر الدوافع الخفية التى تحفز هؤلاء القوم إلى كراهية الخير لأنفسهم ، ثم ينتهى بأن يصفهم بأنهم غير جديرين بالحرية ، وقد لا يكون مخطئاً فى حكمه عليهم .

وهكذا أصبحت الرابطة الإسلامية مجرد كلمة تقال ، لكنها لا تعبر عن أخوة حقيقية . فالمسلمون أكثر الناس خشية أن ينسلخ أحدهم من دينه . وإذا حدث ما يخشونه عمهم الحزن ، سواء أكانوا من العامة أم من الخاصة . ومع أن هذا الحزن الشامل قد يوحى بقوة الرابطة بينهم فإنه لا يعدو أن يكون عاطفة فردية أو سطحية ، لا عاطفة اجتماعية تسوق الجمهور إلى القيام بعمل ما . وقد استدل جمال الدين الأفغانى لذلك بانقطاع الصلة الإسلامية فى عصره ، فإن أهل بلوخستان كانوا يشهدون بأعينهم كيف تسلل الإنجليز إلى بلاد الأفغان يحاولون احتلالها ، فلا يجيش لهم جأش ، ولا تدفعهم حمية إلى نجدة إخوانهم ومساعدتهم على عدوهم المشترك . كذلك كان الأفغانيون يرون رأى العين كيف تدخل الإنجليز فى بلاد فارس ، ثم لا يأسفون ولا تأخذهم غيرة ، كأن الأمر لا يعنيهم . هذا إلى أن الإنجليز استطاعوا أن يفتكوا بقطر إسلامى له مكانته وهو مصر ، وأن يعملوا فى أهله النار والحديد ، فلا تدب الغيرة إلى قلب أحد من أبناء الأقطار الإسلامية المحيطة بهم . وقد عجب الأفغانى لهذه الظاهرة ، أو لهذا التناقض بين العاطفة والسلوك ، وهو أن المسلمين أشد ما يكون تمسكا بعقائدهم ، وخشية على إخوانهم أن يرتدوا عنها ، ثم هم لا يبدون حراكا عندما يفتك بهم السيف والنار . إن السبب فى ذلك أنهم فصلوا بين العقيدة والعمل ، وظنوا أنه من الممكن أن يظل

http://www.al-maktabeh.com

المسلم مخلصاً لدينه ، وأن يكون ذليلا جباناً فى الوقت نفسه ، فلا يشعر بالأسى لما يحل به أو بأخيه ، ويحسب أنه يكفيه أن يقر بالشهادة فلا يعمل عمل المسلم الحقيقى الذى تدفعه قوة عقيدته إلى أن يدفع عن نفسه ، وان يجير المستجير .

إن هناك تأثيراً متبادلا بين العقيدة والعمل ؛ لأن العقيدة القوية تدفع إلى العمل . بينما يثبّت العملُ العقيدة ، ويطبع النفس عليها حتى تترتب عليها الآثار التى تلائمها . وشبيه بذلك صلة القرابة التى تقوى وتتأكد بالتعاطف والتراحم والتزاور ، وتذوى وتضمحل بالإهمال والتقاطع . أما وقد رضى المسلمون بالذل ، ويئسوا من أنفسهم فإنهم يطمئنون إلى ما هم فيه ، ويتباطئون عن نصرة إخوانهم جبناً وخوراً ، مع أنهم أثبت الناس فى عقائدهم وأشدهم حرصاً عليها ، بدليل فشل المبشرين منذ قرون فى صرفهم عنها . ومن العسير أن توجد بينهم رابطة سياسية واجتماعية قوية ، ما داموا متخاذلين متدابرين لا وحدة بينهم سوى عقيدة دينية أصبحت بمعزل عن حياتهم العملية . حقاً « إن لأبناء الملة الإسلامية يقيناً بما جاء فى شرعهم . لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله عليه فى ذلك الدين ؟ أيحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين . . . » كل ذلك لأن الجبن قد ضرب سياجاً حول النفوس ، فرضى المسلمون أن يروا أعلامهم منكسة ، وأملاكهم ممزقة ، والأجانب يتداولون أو يقترعون فيما بينهم على اقتسام ما بقى فى أيديهم ، دون أن يبدوا ما يشعر أنهم غاضبون ، أو عازمون على

مكتبة المهتدين الإسلامية

الدفاع عن حوزتهم ، أو يوهم فى الأقل أنهم سيجمعون كلمتهم المفرقة ، ليقفوا أمام عدوهم صفاً واحداً .

٤ — ضعف الأخلاق وتمجيد الرذيلة

١ — الخلاف والتقاطع بين المسلمين :

ومن مظاهر انحلال الرابطة الإسلامية ، ذلك التقاطع والتدابر بين عامة المسلمين وخاصتهم ، حتى العلماء أنفسهم لم يسلموا من ذلك ، مع أنهم هم المكلفون بحفظ العقائد وإرشاد الناس فى أمر دينهم وشئون دنياهم ، وبحثهم على التعارف والتشاور سعياً وراء الاتحاد والاتفاق والعمل المشترك فيما يدفع عنهم بعض ما هم فيه من ضر . فليس ثمة صلة بين أفراد هذه النخبة الممتازة ، أو التى ينبغى أن تكون كذلك . وليست هناك مجامع تضم مختلف العلماء المسلمين على اختلاف أجناسهم وأقطارهم ، كما هو شأن المجامع والمؤتمرات العلمية فى أوروبا المسيحية . فالعالم التركى لا يعرف شيئاً عن زميله المصرى أو العراقى أو الحجازى أو الفارسى أو اليمنى أو المراكشى ، وكل من هؤلاء ليس أسعد حالا من الآخرين فى هذا الصدد . وليت الأمر وقف بهؤلاء العلماء عند هذا الحد ، فقد يتقاطعون ويتدابرون ويتخاصمون على غير معرفة ، بل إن أمرهم فى القطر الواحد أشد عجباً : لا تجمعهم صلة مودة أو محبة ؛ وكثيراً ما نراهم متحاسدين متباغضين يغتاب بعضهم بعضاً ، ويكيد بعضهم لبعض ، لا تنافساً فى العلم ، فإن مجال الدراسة والبحث أكثر اتساعا من أن يستوفوه جميعا ، فضلا عن أن يستأثر به واحد منهم .

http://www.al-maktabeh.com

ولكن ماذا تريد من نفوس درجت على ما درج عليه عامة المسلمين منذ قرون ، من التخاذل والتباغض والخلاف حباً فى الشر ، ورغبة عن الخير . فكل إنسان ، عالماً كان أم جاهلا ، يأبى إلا أن يهدم الآخرين ، أو يحاول الحط من أقدارهم بكل ما تواتيه به نزعة الشر التى كأنما غرست فى قلبه ، وبكل ما يدفعه إليه المثل السئ ، الذى لقيه فى بيئته الأولى ، ثم فى مجتمعه . فلقد درّب منذ أن كان غض الإهاب سليم الفطرة على اغتياب الناس ، والنهش فى أعراضهم ، وقذفهم بكل فرية ، حتى يبدو هو فى ظنه ملاكا طاهراً ، مع أننا نعلم أن هؤلاء الذين يلجأون إلى الغيبة ، ويجدون متعة دونها أية متعة فى الإيقاع بالآخرين والدس عليهم هم أدنى الناس مولداً ، وأردأهم منبتاً . ولكن ماذا تتوقع من قوم ينظر كل واحد منهم إلى نفسه ، كما لو كان مركزاً للعالم ، فلا ذكاء ولا مهارة ، ولا شرف ولا جاه ، ولا أجداد ولا أنساب ، ولا شيء إلا له وحده . (١) ولو أنت كشفت عن أمره لعلمت أنه أقل الناس حظاً فيما يدعى . وهذا هو شأن الأفراد عادة فى المجتمعات الراكدة التى تحاول سد ما تشعر به من نقص ، فتتظاهر بما ليس عندها ، وتخلع على أفرادها الألقاب التى لا يعدم السوقة بل المجرمون نصيبهم منها ، وتجهد نفسها فى ستر جهلها بادعاء المعرفة ، وفى إخفاء فقرها وسوء حالها بالفخر بثراء الآباء والأجداد .

وليس هذا الخلاف والتنافر وقفاً على العلماء والعامة ، بل للملوك فيه جانب ليس باليسير . فكل منهم يعلم ، أو يوشك أن يعلم ، أنه دمية تحركها دولة أو عدة دول أجنبية ، وهو يوقن أنه يستبد بأمر بلد جاهل متأخر ، لا يستطيع أن يفاخر به الملوك الآخرين ، ومع هذا يكاد يقتله الكبر

---

(١) قال أبو العلاء : يظن بنفسه شرفا وقدرا كأن الله لم يخلق سواه

مكتبة المهتدين الإسلامية

فى الوقت الذى يفتك فيه الجوع والعرْى برعايا جلالته !! وقد عجب جمال الدين الأفغانى كيف تفككت الروابط بين ملوك المسلمين على ضعفهم وحاجتهم إلى أن يشد بعضهم إزر بعض، بدلا من أن يزهو كل منهم بنفسه فيما غير ما يوجب الزهو، فتساءل : أليس بعجيب ألا تكون هناك سفارة للعثمانيين فى مراكش ولا لمراكش عند العثمانيين ؟ أليس بغريب ألا تكون للدولة العثمانية صلات صحيحة مع الأفغانيين وغيرهم من طوائف المسلمين فى الشرق ؟

ولو عاش الأفغانى فى زماننا لكان أكثر عجباً لموقف بعض الدول الإسلامية تجاه البلاد العربية فى محنتها الحاضرة التى بدأت باغتصاب اليهود لفلسطين . فالخلاف قد « عم المسلمين حتى صح أن يقال لاعلاقة بين قوم منهم وقوم، ولا بلد وبلد، إلا طفيف من الإحساس بأن بعض الشعوب على دينهم، ويعتقدون مثل اعتقادهم ... وهذا النوع من الإحساس هو الداعى إلى الأسف وانقباض الصدر، إذا شعر مسلم بضياع حق مسلم على يد أجنبى عن ملته، لكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعاونته . »(١)

لقد ضاق جمال الدين صدراً بهذه القطيعة التى فرقت بين المسلمين وتساءل عن الوسيلة التى توقظ النائم من نومه، والغافل من غفلته، والسادر من غيه، وما المصائب التى يجب أن تحل بهؤلاء النائمين الغافلين حتى يستيقظوا من نومهم وأحلامهم، وحتى يذهب عنهم الوقر الذى أثقل آذانهم ؟ فأى كارثة يريدون أن تحيق بهم، حتى تتآلف قلوب الأفراد فى هذه الأمة التى تنافرت آحادها، وتباينت عاداتها وطباعها ؛ وحتى تتجمع الرغبات المتنافرة، وتتقارب الآراء المتضاربة ؛ وحتى تنقشع سحائب الجهل التى حجبت آفاق الأمل

---

(١) العروة الوثقى ص ٩١ .

http://www.al-maktabeh.com

وسدت مسالك العمل ، فظن الناس أن كل قريب بعيد ، وكل سهل وعر ؟

فلا بد إذن من معرفة أسباب الخلاف حتى يسهل القضاء عليها . وإذا كان من العسير أن نقف على مقدمات مرض عضال لدى فرد من الأفراد محدود العمر ، فما بالك بتحديد أسباب آفة الشقاق بين الأقطار الإسلامية التى استفحل أمرها ، خلال هذه العصور المتطاولة ؟ لقد كان المسلمون أمة واحدة ، قوية البنية . ثم انتابتها الأمراض وتفرق شمل أبنائها ، فانقسمت إلى طوائف تعيش كل منها لنفسها وبمعزل عن غيرها . ويعتقد الأفغانى أن منشأ هذا الداء يرجع إلى أن خلفاء العباسيين تقاعسوا عن واجبهم ولم يجمعوا بين الزعامة الدينية والسيادة الزمنية فى آن واحد ، كما كان يفعل الخلفاء الرشدون ، كما يرجع من جانب آخر إلى كثرة المذاهب والفرق ، ابتداء من القرن الثالث الهجرى ، مما أدى إلى انقسام الأمة إلى عدة دول فى الشرق والغرب ، فانحطت منزلة الخلافة إلى وظيفة الملك ، وسقطت مكانتها فى النفوس ، وتناحر طلاب الملك والرياسة ، كل يغير على صاحبه . ثم استمروا فى شقاقهم وصراعهم حتى جاء جنكيز خان وخلفه فصرعوهم ، وتفرق الشمل كله ، وانقطعت روابط الأخوة بين ملوك المسلمين من جانب ، وبين رعاياهم من جانب آخر ، «وافترق الناس فرقا ، كل فرقة تتبع داعياً إما إلى ملك أو مذهب ، فضعفت آثار العقائد التى كانت تدعو إلى الوحدة . . . ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب ، عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين ، بعد أن ينفذ القضاء ، ويبلغ الخبر إلى المسامع على طول الزمان ، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت ، كما يكون على الأموات من الأقارب ، لا يدعو إلى حركة لتدارك النازلة ، ولا دفع الغائلة . »

مكتبة المهتدين الإسلامية

وكم ضاعت بعد جمال الدين من دويلات إسلامية ، فلم يؤد ضياعها إلا إلى حسرة عابرة ، جاءت بعد أوانها. أما حين كاد يجد الجد ، ويتحتم العمل ، فقد اتجه زعماء البلاد الإسلامية وملوكها إلى الصياح ، وتهييج عواطف الجماهير ، يغررون بهم ، ويدفعونهم إلى الموت دون سلاح وعتاد . هذا إذا بلغت النخوة بهؤلاء الزعماء أو الملوك مبلغاً قد يدهشون له هم أنفسهم . ثم تنتهى الكارثة بهزيمتهم ؛ لأنهم يتحمسون على دخل ، ويتعاونون على خيانة وخديعة . وعندئذ يصمت أساطين السياسة ودهاقين الحرب ، ينتظرون كعادتهم من سيكون منهم الفريسة التالية ، ليبدأوا صياحهم وحماسهم فى غير ما يجدى . كل ذلك وهم لا يفكرون مطلقاً فى البحث عن سبب خذلانهم ، وهو تفرق كلمتهم واختلافهم ، إلى جانب فتور هممهم ودبيب الفساد إلى أخلاقهم .

ب — اختلال المعايير الأخلاقية :

وسدر الملوك المتقاطعون فى غيهم ، واستبدوا بأمور رعاياهم ، فزاد البلاء حدّة ، وكاد الإصلاح يصبح أمراً مستحيلا . على أنه ليس للرعايا أن يسبوا الدهر وصروفه ، أو يندبوا حظهم العاثر الذى رماهم بملوك يفرقون بينهم ، وليس لهم أن يبرئوا أنفسهم من الإثم . فإن انحطاطهم لم يأت عفواً ، وإنما جاءهم بسبب خضوعهم وقبولهم للذل . ذلك أن الملوك لا تستبد برعية إلا إذا آنست فيها غفلة وخورا ، وإلا إذا لمست أن فيها جماعة من المنافقين المرائين الذين يبيعون إخوانهم بثمن بخس ، فيتقربون إلى ذوى الأمر والسلطان يمجدون ظلمهم فيسمونه حزماً ، ويبررون طغيانهم فيصفونه بأنه حكمة ومعرفة بما يجب أن تساس به الرعية .

http://www.al-maktabeh.com

لقد قضى الإسلام على مظاهر الوثنية وحرر النفوس من الخوف، وأمر ألا يخشى المؤمن إلا ربه، ولا يتذلل إلا له وحده، ولا يطيع إلا من أطاعه؛ كما أوجب عليه أن يعصى من عصاه، وأن يكون عزيزاً لا يعرف فى الحق لومة لائم، وأوجب عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. كذلك أمر المؤمنين بالتعاون على البر والتقوى، لا على الإثم والعصيان. لكنهم آثروا أن يعكسوا هذه القيم الأخلاقية الكبرى التى قل أن حددها دين آخر بمثل الوضوح الذى حددها به دين الإسلام. فعبد المسلمون ملوكهم أو كادوا، وعادوا إلى ما كان عليه أسلافهم فى الشرق من الإقرار والتسليم بحكم الملوك المستبدين، فتقربوا أذلاء منافقين إلى أمرائهم، يمجدونهم ويؤلهونهم، ويخلعون عليهم أسماء الخالق، وينعتونهم بما ليس فيهم من صفات الخير، فيصفونهم بالصلاح وهم الفساق، وبالعدل وهم الطغاة، وبالعلم وهم الجهلة، وبالحجا وهم الحمقى.

وكيف لا تنفق سوق الرياء فى قوم انعكست فى نفوسهم معايير الخُلق، فأصبحت المخازى عندهم موضعا للفخر؟ » فصاروا يسمون التصاغر أدباً، والتذلل لطفاً، والتملق فصاحة واللكنة رزانة، وترك الحقوق سماحة، وقبول الإهانة تواضعاً، والرضا بالظلم طاعة، كما يسمون دعوى الاستحقاق غروراً، والخروج عن الشأن الذاتى فضولا، ومد النظر إلى الغد أملا طويلا، والإقدام تهوراً، والحمية حماقة، والشهامة شراسة، وحرية القول وقحة، وحب الوطن جنوناً. »(١) وما زلنا نرى آثار هذه العقلية حتى فى زماننا، على الرغم من تقدم المسلمين وإقبالهم على العلم والأخذ بأسباب الحضارة. فإن الناس ما برحوا يبدون إعجابهم بالرجل الشرير المخاتل، ويجدون له من الأوصاف

---

(١) عبد الرحمن الكواكبى: أم القرى ص ١٣٤

مكتبة المهتدين الإسلامية

التي تدل على تقديرهم له ورغبتهم فى السمو إلى مرتبته ـ نقول يجدون له من هذه الأوصاف شيئاً كثيراً يدعو إلى خجل أقل الناس حياء وتواضعاً . أما الرجل الذى لا يعرف الشر ، أو إذا عرفه صدفت نفسه عنه، فليس بالرجل الجدير بالإعجاب ، وهو الرجل الذى لا يجدون له من وصف آخر سوى الطيبة ؛ لكنهم لا يريدون بهذه الكلمة معناها ، وما أجله من معنى ، وإنما يريدون بها الغفلة أو البله .

لذا كان من الطبيعى أن تصبح لهذه البيئة الإجتماعية الشاذة قوانينها الخاصة ، التى تختلف عن قوانين المجتمعات السليمة . فالأمانة والشرف والنزاهة والإخلاص والعدالة والطيبة وغير ذلك من الصفات الضرورية لنجاح أى إمرىء فى المجتمع العادى تنقلب وبالا على صاحبها فى المجتمع الذى تنعكس فيه المعايير الأخلاقية ؛ لأنه مضطر إلى التكيف بقواعد شاذة تتناسب مع طبيعة البيئة التى يحيا فيها . فالأمين الشريف لا بد من أن يكتب له الفناء فى مثل هذه البيئة غير الطبيعية ؛ لأنه يعجز عن التكيف بها ، وعن تحديد سلوكه وتفكيره وشعوره طبقاً لما تقضى به قوانينها . وإذن فليس أقرانه مخطئين كل الخطأ عند ما يصفونه بالغباء أو الغفلة أو السذاجة ؛ لأن تعريف الذكاء هو أن يكون المرء قادراً على التكيف بالوسط الذى يعيش فيه . وبمقدار مهارته فى التكيف به ترتفع مرتبته فى الذكاء . فالماهر إذن هو الذى يستطيع تطبيق هذه المعايير الأخلاقية المعكوسة تطبيقاً حرفياً ، وبدقة تشعر أنه يطبقها بصفة تلقائية لا تكلف فيها ؛ إذ التكلف فى ذلك قد يثير الريبة فى أمره ، فيجر عليه ذلك من النوائب مالا قِبَل له به .

وهذا هو السبب فى أن من يجيد النفاق والمخاتلة والخداع والنميمة

http://www.al-maktabeh.com

وسائر الرذائل يصبح موضع إعجاب وتقدير لدى الآخرين من أمثاله . فهم يقدرون لديه هذه المقدرة الفائقة فى ارتكاب تلك الأفعال بمثل هذا اليسر ، كما لو كانت تصدر عن طبعه وجبلته ، دون حاجة إلى مرانة أو تدريب .

أما الذى لا يجيد الملق، أو لا يرغب فيه ، أو نُكب بعزة النفس ورقة الإحساس ، أو أصيب بالميل إلى الخير ، أو ابتلى بالجرأة فى الحق أو النفور من قبول الضيم فهو الخاسر الخليق باللوم ؛ بل بالعقاب . وهو الذى ينبغى له أن يخرج عن طبعه وخليقته أو يهلك ؛ لأنه عاجز عن التكيف بالبيئة ، وهذه لاترحم الضعيف ، ولا تسمح إلا ببقاء الأصلح . ولذلك حق لمثل هذا العاجز أن يكون موضعاً للسخرية والإشفاق ؛ لأنه يلقى بنفسه إلى التهلكة برفضه الخضوع لقوانين مجتمعه الصارمة . لقد كان خليقاً به أن يظهر الذل والضعة ، بدلا من أن يكون عزيزاً كريماً ؛ وأن يقابل القهر والضعف باللين والخضوع ، بدلا من أن يكون شديداً عنيداً فى الصراع من أجل الحق ؛ وأن يمدح طغيان المستبدين وعنفهم وينسب إليهم كل فضل ، بدلا من أن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويكشف لهم عن أخطائهم بالنصح والإرشاد . لقد كان ينبغى له أيضاً أن يكون منافقا ، وأن يكون ذليلا لا يطالب بحق ، ولا يظهر علماً أو شرفا . لكنه أبى أن يفعل . وكفى بذلك دليلا على غفلته وعدم صلاحيته للحياة فى مجتمعه . ومن هنا كان التسابق بين الأفراد : كل يريد أن يظهر مهارته ؛ ومن هنا تنبع تلك اللذة التى يشعر بها كل فرد منهم إذا انتهى إلى ما يريد بالخديعة والمكر والاحتيال وإلحاق الضرر بالآخرين . وهذا ما يفسر لنا أحيانا ؛ بل فى كثير من الأحيان ، أن هناك قوماً من الأشرار يزهون بشرورهم ، وهم آمنون من النقد والفضيحة ؛

مكتبة المهتدين الإسلامية

لأنهم واثقون بأن الحق — وهم كثيرون — سيعجبون بهم إعجابهم بالأبطال المغاوير .

وعندئذ ليس لك أن تتوقع خيراً من نصح الناصحين أو إرشاد المرشدين في مثل هذه البيئة التي تمجد الرذيلة بالفعل ؛ بل كثيراً ما يكون هؤلاء الناصحون والمرشدون مرائين ، يقولون بأفواههم ما تكذبه أعمالهم ، أي أنهم لا يختلفون في شيء عن الجمهور الذي يتجهون إليه . ولذا يذهب النصح والوعظ مع الريح ؛ لأنه يجري على اللسان ولا ينبع من القلب . على أن المستمعين إليهم لا يحملون كلامهم محمل الجد . حقاً إنهم يستمعون إليهم كل يوم يحدثونهم عن الأمانة والشرف والصدق، وكل مايتصوره المرء من الفضائل وجميل الخصال؛ لكنهم يرونهم أيضاً في المناسبات الدنيوية الكبرى يسطرون المقالات التي تنضح نفاقا وكذباً وضعة يتقربون بها إلى الحكام المستبدين الطغاة، وهم أحق الناس بنصحهم وإرشادهم لو كان حقا ما يفعلون . كذلك يراهم الجمهور حلفاء وأولياء كل حاكم . فإذا اتفق لأمر ما أن دالت دولته لزموا جحورهم إشفاقا على أنفسهم ، وحتى يتبينوا إذا ما كان الحاكم المولى قد ولى لغير رجعة ، أم أن هناك أملا في أن يسترد سلطته . فإذا جرى القدر بغير مايشتهون ، ورأوا أن الأمر قد استقر لمن جاء بعده انسابوا من مخابئهم يسعون إلى الحاكم الجديد ، ويتقربون إليه بطريقة ممجوجة مرذولة ،وهي أن يشيعوا الراحل بكل ما وعته ذاكرتهم من عبارات اللعن والسباب ، ويستقبلوا القادم بكل ما كانوا يدبجونه من قصائد المدح والإطراء لسلفه .

هذا هو المجتمع الإسلامي الذي عاش فيه أمثال جمال الدين والكواكبي وغيرهما ، والذي أدرك فيه المصلحون أن لا أمل في نهضته طالما اختلت فيه

http://www.al-maktabeh.com

معايير الأخلاق، ففرقت بين آحاده، ومهدت بذلك لانحلال الأمة وغلبة الأجنبي عليها. وقد وصف الأفغاني هذا المجتمع أدق وصف مبينا سبب سقوطه تحت ضربات العدو، فقال على لسان تلميذه: «وإن شئت فتخيل وقحين بذيئين سفيهين جبانين بخيلين، «كل يمنع الآخر حقه»، شرهين حاقدين حاسدين متكبرين، «كل لا يستحسن إلا فعل نفسه»، لجوجين خائنين غادرين كاذبين منافقين، هل يمكن أن يجمعهما مقصد، أو توحد بينهما غاية؟ أليس كل وصف على حدته قاضيا بانتباذ كل من صاحبه، وإن لم تكن داعية؟ ... هذه الرذائل إذا فشت في أمة نقضت بناءها ونثرت أعضاءها... واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه الأمة قوة أجنبية عنها، لتأخذها بالقهر وتصرفها في أعمال الحياة بالقسر. فإن حاجاتهم في المعيشة طالبة للاجتماع، وهو لا يمكن مع هذه الأوصاف. فلا بد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع إلى حد الضرورة.» (١)

فإذا غلبهم الأجانب على أمرهم جميعا لم ينقطعوا عما هم فيه من فرقة وتخاذل وصراع؛ بل يتسع لديهم مجال الاحتيال والإيقاع بالآخرين؛ فيتقرب جماعة منهم إلى المستعمر، يشون بأخوانهم ويخونون وطنهم بل دينهم أيضا. أما الآخرون فتستحفل رذائلهم، ويزيد ضعفهم، ويشتد خذلان الله لهم؛ فيحطون من قدر أنفسهم في كل شيء، ويرمونها بالعجز عن القيام بأي عمل من الأعمال، وينظرون إلى غاصبي أرزاقهم من الأجانب نظرة الإعجاب، ويقلدونهم، فلا يحسنون ذلك أيضا؛ لأنهم لا يعنون إلا بالمظهر لتفاهة تفكيرهم، ولا يقع اختيارهم إلا على أحط مظاهر

---

(١) العروة الوثقى ص ١٣٨

مكتبة المهتدين الإسلامية

الحضارة الأوروبية ، لأنها تتفق مع اختلال معايير الخير فى نفوسهم .
ثم يظنون أنهم سوف يصلون إلى ما وصل إليه الأجانب إذا حاكوهم فى زيهم
وأساليب حياتهم العادية من مأكل ومشرب ولهو . فهم يأخذون عنهم
ما يتوهمون أنه دليل على التقدم . وقد لا يعدم الأجانب أن يموهوا عليهم ،
فيتظاهرون أمامهم بكراهية التمسك بالدين والغلو فى الاعتزاز به . فيغلو
هؤلاء من جانبهم فى تطبيق هذا المبدأ ، ويتحاشون كل ما قد يشعر أنهم
يعتزون بدينهم ، ولو كانوا على حق . ولو فطنوا لعلموا أن المستعمرين أكثر
تعصبا منهم لدينهم ، وأنهم أشد حرصا على نشره بينهم بكل وسيلة ، وأهمها
أن يقوضوا عقائد المغلوبين على أمرهم ، حتى يأمنوا تمردهم .

كذلك رسم الأفغانى صورة صادقة تكشف عن طباع هولاء المغرورين
بالأجانب ، والمعترفين لأنفسهم بالضعة والعجز ، فهم فى رأيه قوم أشداء فيما بينهم ،
تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، وهم ذوو بأس شديد بعضهم على بعض ؛ بينما
يرتمون على أقدام الأجانب ذلا وصغارا : « يفتخرون بالانتماء إليهم ،
ويمهدون السبيل للغالبين إلى النكاية بهم ، ويمكنون مخالب المغتالين من أحشائهم ،
ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحا ، وكل جليل منهم حقيرا .
وإذا نطق الأجنبى بما يدور على ألسنة صبيانهم عدوه من جوامع الكلم ،
ونفائس الحكم . وإذا غاص أحدهم بحر الوجود ، واستخرج لهم درر
الحقائق ، وكشف لهم دقائق الأسرار ، عدّوه من سقط المتاع ، وقالوا بلسان
حالهم ومقالهم : ليس فى الإمكان أن يكون منا عارف ، ومن المحال أن يوجد
بيننا خبير . ويغلب عليهم حب الفخفخة والفخر الكاذب ... يرتابون فى نصح
الناصحين ، وإن قامت على صدقهم أقطع البراهين . يسخرون بالواعظين ،

http://www.al-maktabeh.com

وإن كانوا فى طلب خيرهم من أخلص المخلصين ؛ يبذلون جهدهم لخيبة من يسعى لإعلاء شأنهم وجمع كلمتهم ، ويقعدون له بكل سبيل ... تراهم بتضارب أخلاقهم وتعاكس أطوارهم كالبدن المصاب بالفالج لا تنتظم لأعضائه حركة . . . فساد طباعهم بهذه الأخلاق يجعلهم منبعا ومبعثا للضر ، يصير الواحد منهم كالكلب الكَلِب أول ما يبدأ يعض صاحبه قبل الأجنبى . . »

حقا قد اختلفت حال المسلمين قليلا عن هذه الحال التى شهدها جيل[٥] مضى ، وأصبح الأجانب يحترمون المسلمين بعد أن احترم هؤلاء أنفسهم ، فأفسحوا للنابهين منهم المراتب والمناصب التى كانت وقفا على الأجانب من قبل . ولكن هذا لا يحول دون أن يكون الشوط أمامنا بعيدا . فإن الشرقى مازال يشعر بنوع من الزراية بنفسه والإعجاب بالأجنبى فى كل أموره . ويرجع هذا الشعور إلى ظاهرة واقعية، وهى أننا مازلنا نحاكى الأجانب فى توافه الأمور ، ولا ننافسهم فى جدهم وأخلاقهم التى كانت سببا فى تقدمهم .وربما أسرع المسلمون فى خطاهم نحو العزة عندما يتقدم التعليم فى بلادهم ، وعندما يتجهون إلى الناحية العملية التى تُكتسب القوة والكرامة عن طريقها .

٥ — هل الإسلام سبب فى انحطاط المسلمين ؟

ا — الحركة العقلية فى بدء الإسلام :

يزعم كثير من الأوروبيين أن تأخر المسلمين إنما يرجع إلى دينهم ، فى الوقت الذى يرى فيه علماء المسلمين أن النصرانية ، وإن امتزجت بأفكار

(١) العروة الوثقى ص ١٣٩ — ١٤٠

مكتبة المهتدين الإسلامية

وثنية قديمة أهمها عقيدة التثليث، فهى خير من الوثنية المحضة ، ولكنها ليست أصلح للحضارة الإنسانية لأنها تقوم على أساس الزهد والخضوع لذوى السلطان ؛ فى حين يتم العمران بالسيادة والثروة ، والعمل من أجل الحياة الدنيا. من هذا يتبين لنا موقف التسامح الذى يقفه المسلمون من المسيحية ، ومقدار مايحيك فى صدور بعض الغلاة من المسيحيين من كراهية للإسلام إلى حد أنهم يفضلون أن يبقى اوثنيون على وثنيتهم ، بدلا من أن يعتنقوا دينا يقول بالتوحيد المحض . على أنه ليس من هدفنا أن نثير دفائن الصدور ، وكوامن الضغينة . لذلك اكتفينا بأن قلنا إن هذا الرأى هو رأى بعض الغلاة من أهل الصليب ؛ فإن المتدين منهم حقيقة أكثر تسامحا ، وأميل إلى الوفاق من هؤلاء الذين يخلطون الدين بسياسة الاستعمار ، ويريدون القضاء على كل مقاومة لدى الشعوب المغلوبة على أمرها بالطعن فى عقائدها .

وقد رأينا كيف بنى هؤلاء الزاعمون رأيهم على ما لمسوه من فكرة المسلمين عن القضاء والقدر ، وكيف أن هذه الفكرة ليست من الإسلام الحقيقى فى شىء ؛ لأن هذا الدين قد شوهه أهله على مر العصور ، بانتقالهم من عهد الحماس الدينى والتفانى فى إعلاء شأن العقيدة إلى الدعة والترف والشقاق فيما بينهم ؛ كل يتخذ النصوص الدينية ذريعة لتبرير آرائه ، سواء كان ذلك فى السياسة أم فى أمور الحياة العادية . لكن الإسلام فى عهده الأول — وهو الإسلام الصحيح — كان عقيدة واضحة صريحة لا تعقيد فيها ، ولا تميل إلى اتخاذ الأساطير والطقوس الغريبة سبيلا إلى السيطرة على

http://www.al-maktabeh.com

العقول ؛ بل كانت تهدف إلى تحرير الإنسان من عبوديته ، وتدعوه إلى النظر في هذا الكون واستخدام ما سخر الله له من كائناته ، والتمتع بالحياة الطيبة في الحدود الواسعة التي رسمها الدين ، والتقرب إلى الله بالإيمان به وحده وبرسوله الذي جاء مصداقا للرسالات السابقة ، وأداء بعض الفرائض غير المعقدة من صلاة وصوم وزكاة وحج .

وكان الطابع العقلي للإسلام أكبر حافز إلى إيمان الناس به وحرصهم عليه ، والرغبة في تحرير الشعوب الأخرى من أوهامها وأساطيرها وعبوديتها . ويفسر لنا هذا الأمر كيف انتشر هذا الدين في حقبة قصيرة من الزمن ، فاعتنقه أكثر من مائة مليون نفس في أقل من مائة سنة . ذلك أنه حليف العقل والطبع ، لايحارب الفكر الحر ولا يحقر من شأنه ؛ بل يحث على استخدامه في قبول العقيدة ، وفي تحصيل العلم .

فلما امتدت فتوح العرب شرقا وغربا كان من الطبيعي أن يشهد العالم بعث الفلسفات القديمة ، وبخاصة الفلسفة اليونانية التي كادت تنطمس معالمها بعد أن زالت دولة الأغريق . فأقبل العرب ورعاياهم من الشعوب الأخرى يعملون بجد للنهوض بالعلوم والفنون . واستعانوا في هذا الأمر ببعض العلماء من النصارى واليهود لتحقيق تلك النهضة العقلية الكبرى . ولم يكن اختلاف العقيدة حائلا دون المشاركة والتعاون ؛ بل حظى كثير من أطباء النصارى وغيرهم بمراكز كبرى في حاشية الخلفاء والملوك .

أما في الناحية الدينية فكانت طائفة المعتزلة أقرب الفرق إلى روح

مكتبة المهتدين الإسلامية

الدين ، لأنها أدركت حقيقة الإسلام ، فتمسكت بفرائضه وعقائده ، ووفقت بقدر ما استطاعت بين هذه العقائد وبين العقل الذى جعلته مقياساً لكل شىء .
قد يقال : لكن هذا المسلك يوشك أن يوهن الدين ، وأن يجتث أصول العقيدة فى النفوس ، فإن للشرع حقيقته ، وللعقل حقيقته ، وقد تختلف الحقيقتان ، فإذا جعلنا العقل مقياساً لكل شىء كان معنى ذلك أننا نضحى بالدين من أجل العقل أو العلم. وليست هذه الحجة حديثة العهد فقد وجدناها لدى أصحاب الديانات الأخرى ، ممن يقولون بوجود حقيقتين، أو ممن يسلمون صراحة بأن الدين يحتوى على عقائد تناقض العقل ؛ ومع ذلك فمن الواجب فى رأيهم أن يضحى الإنسان بعقله من أجل عقيدته. غير أن الإسلام لا يخشى العقل؛ فإن من شروط تكليف الناس بالإيمان به أن يكونوا عقلاء . وليس من حسن السياسة فى شىء أن ينصب دين من الأديان نفسه لنصرة العقل ، ثم يحاول الحجر عليه وتقييده بالأغلال، أو التضحية به .

لكن جمهرة المسلمين أبت أن تستمع إلى دعاة العقل ، ورأت أن تنساق وراء بعض الفقهاء الذين قالوا بضرورة الاكتفاء بالسنة والروايات التى تناقلها الخلف عن السلف ، وبعدم الخوض فى تأويل النصوص التى تبدو فى مظهرها على غير وفاق مع العقل ، مع أننا نعلم مدى الدس فى الأحاديث ، ومقدار التشويه الذى لحق العقائد بدخول كثير من أساطير الأمم الأخرى . إذ ليس لنا أن ننسى أن كثيراً من عامة المسلمين ، فى عصر الخلاف الدينى والسياسى ، لم يكونوا عرباً خلّصاً ؛ بل كانوا من أبناء أمم أخرى نصرانية أو مجوسية أو يهودية ، دخلت فى الدين الجديد ، لكنها ما زالت مشربة

http://www.al-maktabeh.com

بروح دياناتها القديمة، وحريصة على تقليد الآباء والأجداد، وعلى جعل الرواية والنقل المنبع الأول لكل شيء فى أمور الدين. وهذا هو السبب فى أن كتب التفسير تفيض بالإسرائيليات، وبقصص وأساطير الديانات الأخرى.

فكان من الطبيعى، بعد هذا الخلط والتلفيق بين الإسلام والعقائد الأخرى، أن يتشكل هذا الدين بصورة جديدة لو اطلع عليها المسلمون الأُول لما عرفوا فيها دينهم، وهى تلك الصورة التى يظن الأوروبيون أنها السبب فى تأخر المسلمين وانحطاطهم. وبهذا المعنى وحده يقوم زعمهم على أساس من الواقع. أما إذا أرادوا بذلك الإسلامَ الحقيقى المجرد عن أوهام وخرافات الشعوب التى اعتنقته فإن الواقع يكذبهم. فإن التاريخ لم يشهد، كما قلنا، ديناً آخر جذب القلوب بمثل ما فعل الإسلام، وما شهد أمبراطورية كبرى تنبعث من جوف الصحراء، دون أن تكون لها مقدمات تؤذن بظهورها واتساع رقعتها فى هذا الزمن القليل مثل الأمبراطورية الإسلامية.

ولو أن المسلمين حرصوا من أول أمرهم على حماية دينهم من آراء الأمم التى دخلت فى حوزتهم لما نشأ هذا الخلاف الشديد بينهم فى أمور العقائد، ولما اشتد الصراع الدينى بين مفكريهم، ولما تعددت الفرق التى جاوزت السبعين عدا. لكن حدث ما كان ينبغى ألا يحدث، فغلب أهل التقليد، وبدأت الآراء السياسية تتخذ مسلكا آخر؛ فبدلا من حكم الشورى الذى سار عليه الخلفاء الراشدون شهدنا ظهور النظام الملكى الاستبدادى الذى رسخت أقدامه فى الشرق وفى الغرب، وفى الشرق على وجه الخصوص حيث ألف الناس تأليه ملوكهم فى قديم الزمن؛ بل فى حديثه أيضاً. ومتى غلب الاستبداد على أمة قضى على أهم مميزاتها، وعلى حرية التفكير قبل كل شيء.

مكتبة المهتدين الإسلامية

ومن ثم نفهم لماذا حورب المعتزلة ، ولماذا تنكر لهم خلفاء العباسيين، بعد أن اخذوا بيدهم في عصر المأمون والمعتصم . ذلك أن المستبد لا يخشى شيئاً أكثر من العقل الحر، الذي يأبى إلا أن يوقظ الشعوب التي غلبها الاستبداد على أمرها . ثم مابرح ملوك المسلمين وعامتهم يحاربون التفكير العقلي في كل مكان، حتى صرعوه عند ما قضوا على فلسفة ابن رشد في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي. فكان مصرعها إيذانا بالانتصار النهائي لأهل الجمود والتقليد . وهكذا بدأ النوم العميق الذي استغرقت فيه البلاد الإسلامية طيلة سبعة قرون ، والذي ما زال باسطا ذراعيه على كثير من هذه البلاد حتى يومنا هذا ، على الرغم من أن أفكار المعتزلة وآراءهم أخذت تُبعث من جديد ، وعلى الرغم من أن العقل قد أطلق من إساره بفضل كثير من المصلحين .

فهذا الإسلام الذي يزعم فريق من الأوروبيين أنه كان سبباً في تدهور المسلمين ليس بالإسلام الصحيح ، وإنما كان مزيجاً من عقيدة التوحيد وأساطير الأمم الأخرى وأوهامها . وهذا المزيج الغريب الذي يظنه بعض الناس إسلاماً هو الذي انحدر بالمسلمين إلى نوع من الشرك الصريح أو الخفي الذي كان التصوف الخادع أكبر دعاته وحلفائه . ولو استطاع المصلحون أن يقنعوا الناس بضرورة تطهير عقائدهم مما شابها ، ولو أفلح هؤلاء في الرجوع إلى المنابع الأولى التي تحجبها عنهم سحب من الأوهام والخرافات والبدع ، لعلموا أن دينهم لا يدعو إلى التواكل أو التقشف الكاذب ، وإنما هو دين وسط بين الأديان جميعها ، لأنه يدعو إلى ما فيه صلاح الروح والبدن ، وينادي بالجمع بين العمل للدنيا والآخرة .

http://www.al-maktabeh.com

ب — انتشار الإسلام على الرغم من تدهور المسلمين :

على أن ما دخل على هذا الدين من مسخ وتشويه ، لم يكن ليقاس بما طرأ على الأديان الأخرى ، لذلك لم يستطع القضاء عليه تماماً . فإن الإسلام الصحيح استمر حيا فى قليل من النفوس . وهؤلاء القلة هم الذين يكشفون عن حقيقته بين حين وحين ، فيشق طريقه حتى فى أشد عصوره ظلاما وضعفاً . ذلك أنه دين يتجه إلى العقل .ويوافق الميول الطبيعية فى الإنسان. وهذا أمر لا ينكره المبشرون أنفسهم ؛ فكثيراً ما وجدوه فى طريقهم ، وكثيراً مايلحقهم ثم يسبقهم فى حملاتهم التبشيرية . فهم إذن أكثر الناس علماً بقوته ، وربما كانوا أكثر يقيناً بهذه القوة من بعض المسلمين ؛ فهم يعترفون منذ أكثر من مائتى سنة أن الإسلام ما تطرق إلى بلد من بلاد الوثنية إلا أسرع أهله إلى اعتناقه ، لأنه عقيدة بسيطة واضحة لا تقهرهم ولا تتطلب إليهم أن يتقبلوا أسراراً أو طقوساً يحار لها العقل أو يعجز عن فهمها ، ولأنه يحدثهم عن إله واحد ، يؤمن به هؤلاء الوثنيون فى أعماق نفوسهم ، ويطلقون عليه اسم الإله الأكبر ، ويتقربون إليه عن طريق أصنامهم أو آلهتهم المحلية ؛ وهم يقبلون عليه فى يسر لأنه يخاطبهم كبشر ، ولأنهم يرون فى مبادئه الأخلاقية أسمى المبادىء التى يمكن أن يدعو إليها دين من الأديان .

ومن المسلم به أيضا لديهم أن الاسلام يخطو خطوات هائلة فى قلب القارة السوداء على الرغم من خضوعها لدول مسيحية ، تعمل ما فى وسعها لمساعدة المبشرين على نشر العقيدة المسيحية بكل الوسائل ، ولا تضن من أجل ذلك ببذل الأموال الطائلة التى لا يفكر المسلمون عادة فى جمع عشر معشارها للدعوة إلى دينهم . غير أن الإسلام الذى لا ينصره أحد من أهله ؛ بل يحاربه

مكتبة المهتدين الإسلامية

المستعمرون ، قدر طاقتهم ، بمختلف الوسائل ، يتخطى الحواجز وينسف الحدود ولا تقف فى طريقه سلطة دنيوية أو كهنوتية . وقد اعترف أحد المبشرين أن الإسلام لا ينظر إلى النصرانية التى تنازعه السيطرة فى أفريقيا نظرة الكراهية أو الحقد أو العداء ، لذلك فهو جدير بالسبق والفوز ، وبأن ينسال قوياً عارماً فى جميع أرجاء أفريقية .

هذا هو مايعترف به أحد المبشرين فى أوائل هذا القرن ، وهاك ما تعترف به صحيفة للمبشرين فى صيف هذا العام (١) : «إن التقدم الكاثوليكى فى أفريقية يجد نفسه متخلفاً وراء خطوات العملاق التى يتقدم بها الإسلام ، الذى يحقق أيضاً تقدماً مثيراً فى أندونيسيا والهند والباكستان ، » ثم تعزى هذه الصحيفة نفسها عن هذا التقدم المذهل ، الذى يتحقق دون حاجة إلى طلب التبرعات من المؤمنين أو الإلحاح فى طلبها ، فتقول : «ومن يدرى فلربما وقفت الشيوعية فى طريق انتشار الإسلام . فإن هذا المذهب الإلحادى يعمل عمله فى بلاد الشرق الأقصى ، وهو يسيطر على ثمانمائة مليون نفس ، أى ضعف العالم الكاثوليكى على وجه التقريب . » ثم تمنى الصحيفة نفسها فتقول : « إن العالم الإسلامى نفسه ، الذى ننظر إليه كحصن منيع لا تستطيع الكاثوليكية أن تتطرق إليه ، يخضع للدعاية الشيوعية التى لم تعتقد أبداً فى مناعة الإسلام . » وتكشف لنا هذه الجملة الأخيرة عن عقلية المبشرين الذين يفضلون أن تكتسح الشيوعية البلاد الإسلامية على أن يعتنق الوثنيون الإسلام الذى يدعو إلى التوحيد ، كما تنم لنا عن الأمل الذى يداعبهم فى أن تقف الشيوعية فى طريق انتشار الإسلام فى الشرق الأقصى ، بعد أن عجزوا هم عن وقف زحفه فى أفريقية .

(١) La Pressê Missionnaire: يونيو سنة ١٩٥٥ ، العدد الثالث والعشرين

http://www.al-maktabeh.com

غير أننا نقرأ فى الصحيفة نفسها أن بعض المسيحيين بدأ يسأم الصراع من أجل نشر المسيحية خارج أوروبا ،فى الوقت الذى يغزو فيه الإسلام قلب أفريقية وغيرها من البلاد ، على الرغم من آثار الضعف التى ما برحت ماثلة فى أهله ، وعلى الرغم من أنه يقال إنه كان سبباً فى انحطاطهم ! ! فمن هؤلاء الذين أخذوا يضيقون بدعاية المبشرين وحرصهم على جمع التبرعات نذكر قسيساً فرنسياً فى إحدى ضواحى باريس . لقد كتب هذا القسيس إلى صحيفة المبشرين يحتج على الطريقة التى تتبع فى جمع الأموال من المؤمنين منهم للدعاية المسيحية فى الخارج . ذلك لأن هؤلاء الدعاة وجّهوا عنايتهم إلى البلاد الأخرى فى مختلف أنحاء العالم ، لكنهم ينسون أن بلادهم فى حاجة إلى التبشير لكثرة الخارجين على المسيحية من المسيحيين أنفسهم. لقد كتب هذا المحتج: « إن نشرتكم للدعاية تثير قلقى أكثر من أن تغمرنى بالحبور . . . اتركوا لعدة لحظات شواغلكم المالية التى أوحت إليكم بكتابة هذا التهديد المطمئن لضمائر الكاثوليكيين الأخيار عندنا . . . حقاً إنكم تتقبلون أموال المسيحيين الذين يريدون إنقاذ العالم كله ما عدا وطنهم ، الذى يفقدونه الآن بسبب « بورجوازيتهم » . إن هذا المال له رائحة غريبة بل رائحة كريهة . »

فكيف يقولون من جانب إن هذا الإسلام كان سبباً فى انحطاط المسلمين ، ثم يعترفون من جانب آخر أنه ما زال ينتشر رغم كل هذه العقبات ؟ وما الذى يدعو كثيرا من الأمم الوثنية إلى اعتناق هذا الدين الذى يقال لها عنه إنه سبب فى تدهور من يؤمن به ؟ وهل بلغت بهم فدامة العقل وفساد الفطرة إلى حد الإعراض عن دين الأقوياء لقبول دين الضعفاء المتأخرين ؟ أليس أولى بنا إن نقول إن هؤلاء الراغبين فى الإسلام ، لا يعرفون الحق

مكتبة المهتدين الإسلامية

بالرجال ؛ بل يعرفون الرجال بالحق ، أى أنهم يؤمنون بدين من الأديان لأنه يوافق العقل والطبيعة البشرية ، ولا يقبلون على دين آخر لمجرد أن أهله أكثر مالا وأعز نفراً ؟ فهم يؤمنون بالإسلام دون أن يكونوا فى حاجة إلى رؤية أحوال أهله ؛ ولو أنهم رأوا نخبة ممتازة منهم لكانوا أكثر إقبالا على الإيمان به .

لقد أخبرنى صديقى الدكتور محمد الفحام أنه لما ذهب إلى نيجيريا منذ عدة سنوات استقبله المسلمون والوثنيون فيها ؛ بل المسيحيون من أهل البلاد ،بخير ما يستقبل به زائر . وكان فرح المسلمين به عظيما ؛ إذ طالما سمعوا من إخوانهم المسيحيين أنهم يؤمنون بدين لايعلمون شيئاً عن أهله ولا زارهم أحد من علمائه ، ولم تعن الهيئات الإسلامية قط بأمرهم .وقال بعضهم لو أن الأقطار الإسلامية عنيت بالدعاية لدينها لما دخل إلى المسيحية — أو لما بقى على الوثنية — إلا عدد ضئيل . فهل يقال بعد ذلك إن الإسلام سبب فى تأخر المسلمين ؟ أو ليس الحق أن يقال إن تأخرهم لا يرجع إلى دينهم بل إلى أسباب أخرى ، وإنهم لو كانوا أكثر قوة ، وأشد رغبة فى نشر عقيدتهم ، لكان دينهم أسرع خطا من خطواته الحالية التى يصفها المبشرون مع ذلك بأنها خطوات العملاق ؟

حـ — الإسلام والنصرانية :

على أن هؤلاء الذين يزعمون أن الإسلام كان سبباً فى تأخر المسلمين ينسون التاريخ وعظاته ، ويبنون حكمهم على بعض المظاهر العارضة التى لا تمس جوهر الإسلام ، والتى ترجع إلى أسباب أخرى سنفصلها فيما بعد تفصيلا .

http://www.al-maktabeh.com

ولو نحن جاريناهم فى استدلالهم الخاطىء، ونهجنا نهجهم فى محاولة النيل من أحد الأديان السماوية ، لانتهينا مثلهم إلى القول بأن النصرانية كانت وبالا على الحضارتين اليونانية والرومانية . فقد اندثرت معالم الحضارة الأولى منذ بدء التاريخ المسيحى ، وساهم آباء الكنيسة الأول فى القضاء عليها ، فانطمست معالمها منذ ذلك الحين . ولولا أن العرب حملوا أمانة العقل والعلم كاملة ، وزادوا عليها، لما أخذها عنهم الغرب ، ابتداء من القرن التاسع الميلادى ، ولما تحركت الهمم فى أوروبا للاطلاع على فلسفة أرسطو ومنطقه ، ولما قام نفر من أبنائها للبحث عن الأصول الأولى للحضارة اليونانية ، ولما زها أهل أوروبا الآن بأنهم خلف اليونان وحملة حضارتهم وفنهم وفلسفتهم أكثر من زهوهم بمسيحيتهم .

ونستطيع أيضاً أن نترك مجال الفروض إلى مجال الحقائق فنقرر فى غير خيلاء ولا تجن أن الثقافة اليونانية لم تنتقل إلى أوروبا بمثل اليسر بل الحماس الذى لقيته عند المسلمين فى عصر المأمون ،وإنما وجدت فى دخولها إلى بلاد المسيحية عناء ما بعده عناء ، إذ حاربتها الكنيسة دون هوادة طيلة قرنين من الزمان ، أى فى أثناء القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، وقضت بحرمان كثير من المشتغلين بالفلسفة ، ووصمتهم بأنهم المارقون الملحدون . فلما رأت أن الفلسفة اليونانية الملونة بلون عربى إسلامى أعز من أن تقهر لم تجد بداً من اقتباس ما يلائمها منها ، أى لتأكيد العقيدة وتثبيتها . وكان ذلك فى القرن الثالث عشر الذى نقل فيه مفكرو المسيحية ، وعلى رأسهم ألبرت الأكبر وتوماس الأكوينى ، شيئاً كثيراً من آراء المسلمين والإغريق.(١)

---

(١) أنظر كتابنا « الفيلسوف المفترى عليه ابن رشد » .

مكتبة المهتدين الإسلامية

وليس لأحد أن يسارع إلى القول بأن الدين المسيحى أصبح منذ ذلك الحين حليفا العلم ؛ بل ظلا عدوين لدودين ، وظل العلم مرادفا للكفر والإلحاد حتى القرن السابع عشر . فلقد ارتضى آباء الكنيسة فلسفة أرسطو وأخذوا منها ما يحلو لهم ، ثم تحجر الفكر مرة أخرى ، وحورب العلم الحديث باسم الدين وباسم أرسطو. وكم عذب العلماء وقتلوا وشرّدوا فى العصور الأخيرة ، قبل أن تعترف الكنيسة بالهزيمة ، وتتجه إلى التبشير والدعاية فى الخارج بعد أن فقدت السيطرة على العقول فى الداخل !

هذا ما كان من شأن فلسفة اليونان. أما ما حل بالأمبراطورية الرومانية بعد انتشار المسيحية فيها فأمر لا يجهله المسيحيون والمسلمون على حد سواء . ذلك أن سلطان روما أخذ يتقلص ، مع مرور الحقب ، حتى وصلت روما إلى أشد درجات الانحطاط ، مع أنها كانت مركز البابوية . ثم اجتمعت لها أسباب أخرى فى القرن الماضى فاستردت بعض عزتها ومجدها ، فلعب الزهو والكبر برؤوس أبنائها ، وأرادوا إعادة مجد روما الوثنية . لكنهم فقدوا ما كانوا قد استولوا عليه من بعض بلاد أفريقيا .

فهل لنا أن نعتمد نحن أيضاً على هذه المظاهر الخادعة لنقول إن المسيحية كانت سبباً فى انحطاط الرومان والقضاء على حضارة اليونان ، وإن الوثنية كانت خيراً منها ؟ إن مثل هذا الحكم لا يصدر إلا من متعصب أو جاهل . فإنا نعلم أن العقيدة الدينية ،سواء أكانت سماوية أم غير سماوية ،ضرورية فى بناء المجتمعات والحضارات ، وأن المجتمعات البدائية التى يتقدم فيها السحر والشعوذة ، على حساب العاطفة الدينية ، تجمد وتتحجر ، ثم تتدهور وتختفى دون رجعة ؛ فى حين أن المجتمعات المتدينة التى ترتبط فيها الأخلاق بالدين

http://www.al-maktabeh.com

تسلك سبيل التطور ، فتتقدم أو تتأخر لأسباب شتى ، ولكنها لا تموت أبداً .(١) ذلك لأن الدين حاجز تتحطم عليه موجات الإلحاد التي تطغى بين آونة وأخرى ، وبخاصة عند انتقال المجتمع من مرحلة إلى أخرى ، ثم تعود فتنحسر ، متى انتهت فترة الانتقال . فالدين ، إسلامياً كان أم مسيحياً أم يهودياً أم بوذياً أم مجوسياً ، أساس واقعي لكل حضارة ، ولكل حياة اجتماعية ، لأنه عماد الأخلاق التي لا حياة للأمم دونها . فإذا تدهورت العقائد الدينية في مجتمع ما ولسبب ما ، ظهرت طوائف الدهريين الذين يرون أن انهيار العقائد والأخلاق نذير أو بشير بفتح الباب على مصراعيه أمام الإباحية التي ينشدونها ويغرون الناس بقبولها ، زاعمين أنها نداء الطبيعة ، وقانونها الأسمى .

فهناك إذن أسباب أخرى لضعف اليونان ، وأهمها انتشار المذاهب الإلحادية فيها ، كمذهب الأبيقوريين والكلبيين . أما سقوط روما فيرجع إلى أن المسيحية جاءتها متأخرة ، بعد أن هرمت الامبراطورية ، وأتى عليها الترف والمجون والإباحية ، وبدأت تغير عليها قبائل أوروبا المتبربرة . وكما أننا لا نرجع تدهور أوروبا بعد ظهور المسيح إلى أسباب دينية ، كذلك سنظل منطقيين مع أنفسنا ، فلا نقول إن تقدم هذه القارة في القرون الأخيرة يرجع إلى أن الدين المسيحي أفضل الأديان في النهوض بالأمم ؛ فإن الأوروبيين أنفسهم يعترفون معنا أن الكنيسة لم تفقد مطلقاً من سلطانها وسيطرتها على النفوس مثل ما فقدت في هذه العصور الأخيرة . فللتقدم والانحطاط أسباب عديدة متشابكة . فكما يكون التقدم مثلا نتيجة للتمسك

(١) راجع هذه الفكرة مفصلة في كتاب مبادىء علم الاجتماعي الديني الذي نقلناه إلى العربية .

مكتبة المهتدين الإسلامية

بالعقيدة الصحيحة ، يكون الانحطاط نتيجة لتشويه العقائد ومسخها. وكما يكون الاستبداد سبباً فى موت الأمم أو انهيارها تكون العوامل الاقتصادية والسياسية سبباً فى التخلص من عسف رجال الكهنوت الذى يقفون دائماً فى سبيل التطور ، ويدافعون دائماً عن حكم المستبدين ؛ لأن فى هذا الدفاع إبقاء على حياتهم . وربما يفسر لنا هذا كيف يضيق علماء الدين الرسميون برجال الإصلاح ، وكيف يحاربونهم باسم الدين ، حتى يطمئنوا إلى سيطرتهم على نفوس العامة .

وربما عجب المرء كيف تبدلت حال المسلمين والمسيحيين ، وربما تساءل عن الأسباب التى أدت إلى تدهور الأولين ورقى الآخرين . لقد كان المسلمون فى أول عهدهم أقوياء غزوا العالم ، وكان دينهم يحثهم على أن يكونوا أقوياء أعزاء، فلبوا دعوته ، وأقاموا حضارة زاهرة ؛ فى حين أن الدين المسيحى بدأ بدء الضعيف الذى يدعو إلى المسالمة والزهد من إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فهل معنى ذلك أن كلاً من الفريقين ترك عقائده منذ أجيال ، وهل تخللت بعض آيات الإنجيل من حيث يدرى ولا يدرى إلى الخطب والمواعظ التى تتلى على منابر المسلمين أو ألقى شىء منها فى أمانىّ معلميهم وناشرى شريعتهم عند ما يتربعون فى محافل دروسهم ؟ وربما أمكن تفسير تقدم الأوروبيين فى العصور الأخيرة بأن الدين المسيحى انتشر فى الغرب لدى أمم لها عاداتها وتقاليدها القديمة ، فلم يغير كثيراً من طباعها ، وعقائدها المتوارثة . فتسلل إليهم الدين خفية . ومعنى هذا أن دعوة الزهد والتقشف التى جاء بها الدين المسيحى ظلت تؤثر فى الأسماع والقلوب طالما تحكم رجال

http://www.al-maktabeh.com

الكهنوت فى عقول أهل أوروبا طيلة العصور الوسطى، فلما تقلصت سلطتهم عادت الطباع إلى حقيقتها .

والحق عندنا أن طباع الأوروبيين بقيت على حالها تحت الطلاء المسيحى الذى سترها، والذى كانت كثافته تختلف رقة أو سُمكا تبعاً للأحوال والأعصار، حتى إذا حزب الأمر تشقق هذا الطلاء ، وتكشف عن الخصال الحقيقية التى ظلت راكدة فى النفوس دون أن تندثر ، وعندئذ تتجلى القسوة والعنف والرغبة الجامحة فى الانتقام . وإن فى عنف الحروب والثورات الأوروبية ، وفى حنقهم الرهيب على الخارجين عليهم من الأمم المستعمَرة دليلا واضحاً على أن الطباع القديمة لدى قبائل الجرمان والرومان لم تتبدل كثيراً ، وأنها إن اختفت زمناً فإنها لا تخبو جذوتها ولا تخف حدتها ؛ بل تندلع جامحة عاصفة .

وقد جرى لى حديث مع فرنسى عاش فى مصر أيام ثورتها الأخيرة ، فأظهر لى عجبه من أن هذه الثورة قد نجحت فيما أرادت ، دون أن تراق الدماء أنهاراً ، كما جرت فى فرنسا فى أيّام ثورتها الكبرى . ثم عاد يقول إن هذا التضاد لا يذهله ولا يفجأه ؛ فقد أتيحت له المقارنة بين طباع الشرقيين والأوروبيين ؛ فلمس ما يتصف به الأولون من السماحة والكرم والميل إلى العفو ، وما يتجلى لدى الآخرين من شدة الطباع والميل إلى الانتقام والغلو فيه . وضرب لذلك مثلا بما حدث فى فرنسا عندما حررها الحلفاء من قبضة ألمانيا ، فقال : لقد انتهز كثير من الفرنسيين هذه الفرصة لكى يسوّوا أمورهم فيما بينهم، فسفكت دماء عشرات الألوف تحت ستار الانتقام منهم للتعاون مع العدو ، ولكن كثيراً من هؤلاء كانوا أبرياء قتلوا لأسباب

مكتبة المهتدين الإسلامية

أخرى . وظننت أن محدثى يغلو بعض الشىء. غير أن أحد القسس فى الريف هناك أكّد لى هذه الرواية ، وحدّد عدد الضحايا بما يربو على مائة ألف نسمة ، أى أكثر مما قتل فى ميادين القتال بيد الأعداء . ومما رواه لى أن القتلة كانوا يأمرون ضحاياهم أن يحفروا قبورهم بأيديهم ، فإذا انتهوا من إعدادها رموهم بالرصاص . وبديهى أن مثل هذا العدوان لا يتفق مع دينهم المسيحى الذى يوصيهم ، إذا ضُرب أحدهم على خده الأيسر بأن يدير خده الأيمن ، والذى يحثهم على محبة أعدائهم . ولن نطنب فى بيان القسوة الأصيلة فى الطباع الغربية ، فإن حديث القنابل الذرية التى فتكت فى لحظات قليلة بمئات الألوف فى اليابان منذ أكثر من عشر سنوات ما زال يدور على الألسنة .

هذا هو شأن الأوروبيين الذين لم تتشبع قلوبهم بمبادىء التسامح والسلام والمحبة التى نادت وما زالت تنادى بها المسيحية . حقا استطاع هذا الدين فى أول عهده أن يصقل النفوس ، وأن يذهب بعيداً فى صقلها ، فغلب على أهله الزهد والتصوف وكراهية الحياة وزخرفها ، وساهم رجال الكهنوت فى ترغيب الناس فى هذا المسلك إلى حد كبير . فهجعت دول أوروبا عدة عصور ، ثم اجتمعت أسباب أخرى ، فغلب الطبع على التطبع ، « وعاد ما أودعه أجدادهم فى جراثيم وجودهم ضراما » ، واتجهوا إلى الفنون الحربية فبلغوا فيها مبلغاً لا يجاريهم فيه أحد . »

أما المسلمون فظلوا أقوياء ، حتى دب بينهم الصراع السياسى والدينى . وعندئذ ظهر فيهم أدعياء يتظاهرون بالورع ، فشوهوا الدين وحرفوه ، وأضافوا إليه كثيرا من العناصر الغريبة ، وظنوا أنها من جوهر الدين ، ففسدت طبائعهم الأولى ، وكفت

أيديهم عن العمل . ثم قام الزنادقة يجتثون أصول العقيدة من النفوس ، ويدعون إلى الشيوعية فى المال والنساء ، ولم يكن أدعياء رجال الدين أقل خطراً، فقد وضعوا الأحاديث ونسبوها إلى الرسول، واتخذوا التظاهر بالتقوى سبيلا إلى تهوين الدين وجعله لعباً ولهواً ؛ ففترت الهمم وخارت العزائم ، وانحسرت موجة العلم ، وقصر العلماء فى إرشاد العامة ، وأصبحت دراسة الدين محصورة فى طائفة خاصة . فتشويه دينهم وجهلهم إياه هو السبب فى تدهورهم ، بعد أن كانت عقائدهم السليمة هى التى خلقتهم خلقاً ، وأخرجتهم مما يشبه العدم ، وخلعت عليه القوة التى لم تخرجهم قط عن إنسانيتهم وتسامحهم وميلهم إلى العفو ، حتى قيل إن العالم لم يشهد حروبا أكثر إنسانية من حروب المسلمين .

٤ — مسئولية المسلمين :

فالمسلمون أولى الناس بأن ينسبوا انحطاطهم إلى أنفسهم ، وليس الذنب ذنب دينهم ؛ بل هم منبع هذا الشر العميم الذى حل بهم ، فأذهب نخوتهم وحميتهم ، وطبعهم بطابع الذل والصغار ، حتى أصبحوا هملا لا راعى لهم، تتخطفهم الدول الأجنبية .

حقا إن بعض كتابهم يحاول أن يعزو تدهورهم إلى ضربات القدر ، فيقول إن الأيام دول ، وإن من سره زمن ساءته أزمان ، وإن الأمة الواحدة تتدهور وتنحدر ، وتتشتت عزائمها ، وتفسد أخلاقها ، ثم تسترد أنفاسها ، وتبدأ فى التقدم مرة أخرى، ويكتب لها من النصر ما أراد الله لها ، ثم يدب إليها الهرم والضعف فترتد خاسئة ،حتى يقيض لها من يأخذ بيدها .

مكتبة المهتدين الإسلامية

وفى رأينا أن هذا الرأى لا يفسر شيئاً ، وإنما يحيل مشكلة انحطاط أمة من الأمم على القدرة الإلهية ، كأن الناس ليسوا مسئولين عن أعمالهم ، وكأن الأسباب لا تؤدى إلى نتائجها ، وكأن القوم قد خلقوا ليساقوا رغماً عنهم إما إلى النصر والعزة ، وإما إلى الهزيمة والهوان ! !

كذلك يرجع بعضهم انحطاط الأمة الإسلامية إلى أسباب سياسية وتاريخية كحروب الصليبيين ، وهجوم التتار ، مع أننا نرى فى عصرنا الراهن ، كيف تندحر الأمم القوية فى الحروب ،فيظن أنها ماتت إلى الأبد ، فلا تنقضى سنوات قليلة حتى نراها قد استعادت قوتها ، وبدأت الأمم التى ألحقت بها الهزيمة تخطب ودها . أما المسلمون فلم ينهضوا بعد هزيمة التتار لهم وإنما زادوا تدهوراً .

فالحق أن منبع الداء أقرب من هذا كله ، أى أنه يكمن فى النفوس . وليست العوامل السياسية والتاريخية إلا شروطاً مساعدة . أما العامل الأساسى فهو ضعف الأخلاق وانحلالها وفصلها عن العقيدة والفرائض الدينية ، حتى ليحسب الواحد من هؤلاء أنه يكفى أن يتقرب إلى الله بصيغ لا روح لها ، ثم هو فى حل من أن يرتكب ما يشاء من الموبقات ، وأن يوقع الضرر بمن يشاء .

وقد اهتدى جمال الدين ، فى رسالته فى الرد على الدهريين ، إلى مكمن الداء ؛ وهو أن المسلمين مسئولون عما هم فيه من ضعف وهوان ، وما نزل بالمسلمين من هذه المذلات والإهانات ولا رزئوا بالتخريب فى بلادهم والفناء فى أرواحهم إلا بعد أن كلت بصائرهم ونغلت نياتهم ، ومازج الدغل قلوبهم ، وخربت أماناتهم ، وفشا الغش والأدهان بينهم ، ودار كل منهم حول نفسه ، لا يعرف أمة ، ولا ينظر إلى ملة ، فأصبحوا بقناة خوارة بعد أن كانت قناتهم لا تلين لغامز . . . . ولهذا ذهب المؤرخون إلى أن بداية

http://www.al-maktabeh.com

الانحطاط فى سلطة المسلمين كانت من حرب الصليب، والأليق أن يقال إن ابتداء ضعف المسلمين كان من يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد النيشرية (الدهرية) فى صورة الدين، وسريان هذه السموم القاتلة فى نفوس أهل الدين الإسلامى.»[1]

وكانت هذه الآراء والعقائد مقدمة لفساد الأخلاق ، فراجت سوق النفاق والملق ، واستحب المسلمون الخيانة والحقد والضغينة ، وعافوا الأمانة والمحبة والتآخى . ذلك أنهم ألفوا الخلاف ، ثم انصرفوا عن التفكير فى حاضرهم ومستقبلهم ، لا يبحثون عما عساه أن يحقق لهم خيراً ، ولا يفكرون فيما قد يدفع عنهم ضراً ؛ بل قنعوا ، لعجزهم وتخاذلهم ، بحياة خامدة راكدة ، تنحصر فى طلب المأكل والمشرب ، ولو كان المأكل لا يقيم أوداً ، ولا المشرب يحلو طعماً . ولا يدور بخلدهم أن المرء لا يحيا ليأكل ويشرب وينام . وإنما ليعمل ويجد وينافس الآخرين فى الفضيلة والعلم والقوة. هذا إلى أنه قد يأخذهم الشوق إلى العمل ، وعندئذ بئس ما يعملون ؛ لأنهم يجدون فى الكيد بعضهم لبعض أقصى لذة يشعر بها المرء . إنهم يريدون أن يشعروا الناس بوجودهم . لكنهم لا يدرون كيف يفرضون أنفسهم على الآخرين بخلقهم وعملهم . فلا بأس إذن أن يشعروهم بوجودهم عن طريق إلحاق الضرر بهم ؛ لأن سبيل الشر أسهل مورداً وأقرب منالا ؛ وفيه يمتاز الآثمون ، ويسبق فيه من لا ضمير له . وقديماً قال أبو العلاء فى معاصريه :

اما إذا دعا الداعى لمكرُمة فهم قليل ولكن فى الأذى حشُد

فإذا هم عجزوا عن الخير والشر معاً، لم يجدوا مفراً من أن يقروا فى دورهم أو يلزموا مجالسهم للمشاكسة والمهاترة أو الغيبة والنميمة . تلك هى الأخلاق التى كانت منبع الضعف والتدهور ، ومن الأكيد أنها ليست بأخلاق إسلامية .

---

(١) رسالة الرد على الدهريين ص ٦٤ — ٦٥

مكتبة المهتدين الإسلامية

الفصل الثانى

أسباب التدهور

١ — فساد الملوك واستبدادهم

ا — تنافس طلاب الملك وترفهم :

لم تقم الدولة الإسلامية على العصبية ، كما هى الحال فى دول العصور الغابرة ؛ بل إن صاحب الدعوة حورب من أهله وقبيلته ، ولم يؤمن بدعوته فى مكة إلا عدد قليل من الضعفاء الذين أخفوا إيمانهم حتى أعزهم الله بإيمان عمر بن الخطاب . ثم لاحت بشائر النصر بدخول كثير من أهل المدينة فى الإسلام ، طوعا لا كرهاً . كذلك لم تكن دولة المسلمين دولة استبداد وعسف ؛ فإن محمداً لم يكن إلا رسولا يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة، ويجادل القوم بالتى هى أحسن . ومع مقام النبوة ومكانتها فى القلوب لم يكن أصحاب الرسول نفراً من العبيد المستضعفين المرائين ؛ بل كانوا أحراراً أقوياء أشداء فى الحق لا يكتمون رئيسهم رأيهم وشوراهم، وكان الرسول يستمع إليهم ، ويأخذ برأيهم فى أمور دنياهم متى وجدها حقاً . وهكذا شهد العالم كيف حقق الإسلام أسمى نظم الحكم ، ونعنى به حكم الشورى ،ذلك الحكم الذى لم يتحقق فى أمم العالم إلا فى عصور متأخرة ، وبعد ثورات رهيبة مدمرة ،أريقت فيها دماء الأبرياء وغير الأبرياء .

ولم يكن قيام هذا النظام الجديد ممكناً إلا بعد القضاء على روح العصبية

http://www.al-maktabeh.com

التى طالما فرّقت بين القبائل ، وحالت دون قيام حكم سياسى مستقر .

وبالفعل حطم الإسلام هذه العصبية ، فأصبح الطريق ممهداً أمام نشأة أمبراطورية كبرى لم يشهد أحد قط أنها تنشأ فى أقاليم جرداء ، وبين ملك عريض للفرس فى الشرق ، وأمبراطورية عظمى للرومان فى الغرب ؛ ثم شهد بعد ذلك أنها تستطيع القضاء على هذين العملاقين فى حروب خاطفة . وإنما نجح الإسلام هذا النجاح الذى يشبه ما تدبجه أقلام أصحاب الأساطير لأنه محا النعرة الجاهلية ، وسخر من هؤلاء الذين يتفاخرون بالأنساب والألقاب ، وجعل الناس سواسية لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، فأصبحت الإخوة الإسلامية تغنى عن رابطة العصب والجنس .

لقد جاء المسيح يبشر وينادى بالإخاء والمساواة ، ولكن محمداً هو الذى حقق ذلك بالفعل . ثم درج خلفاؤه الراشدون على سنته ، فاختير الخليفة الأول بالشورى ورفض الخليفة الثانى أن يعين خلفه على غرار ما فعله معه سلفه ؛ بل أحب أن يختار المسلمون أفضل أهل الحل والعقد من بينهم . ثم أطلت الفتنة برأسها ، فى ثوب العصبية التى تريد استرداد مكانتها . فمال الخليفة الثالث إلى بنى أمية ؛ فثار المسلمون لهذا الميل ، فقتل عثمان . لكن لم تجتمع الكلمة بعد حدوث هذا الصدع ، ونشبت الحروب الأهلية بين المسلمين ؛ فريق منهم يريد نصر الخليفة الرابع ، وفريق يطالب بدم ابن عفان ، ويتخذه ذريعة للاستئثار بالملك . وكتب النصر لهذا الفريق الأخير . فاسترد المسلمون هدوءهم إلى حين واستأنفوا الفتوح ، فسارت الجيوش ، حتى بلغت حدود البرانس وبحر الظلمات .

غير أن هذه القوة العارمة كانت تخفى وراءها جرثومة الانحلال . فقد

مكتبة المهتدين الإسلامية

تقبّل المسلمون نظام الملكية الفردية، طوعا أو كرها، فأتجهوا قُدُماً نحو حكم المستبدين . ولم ينظروا بعين البغض إلى العصبية التى محاها دينهم ، وأحياها شقاقهم . فاحتد الصراع بين طوائفهم ، من يمنيين وقيسيين . ثم تطرق الوهن إلى أصحاب الملك نفسه ، فهب نفر من طلاب السلطان يدعون لآل البيت ؛ وحتى هؤلاء لم يكونوا على وفاق فيما بينهم . ثم انتهى الأمر بأن قفز بنو العباس إلى عرش الخلافة . حقا كان أمراء هذه الأسرة يسمون خلفاء المسلمين ، لكنهم كانوا فى الحقيقة ملوكا ، وملوكا مستبدين ، أكثر منهم خلفاء راشدين . وعجز هؤلاء الملوك بدورهم عن جمع الكلمة ، فخرجت من أيديهم بلاد الأندلس ، واستوى الملك فيها لبنى أمية ، ولم يكن هذا الانقسام خيراً لهؤلاء ولا هؤلاء ؛ بل مهّد لضعف المسلمين جميعاً ، ملوكا ورعايا . فانقسمت الأمة الكبرى إلى دويلات أكثر عدداً ، وأشد وهناً ، يسيطر على كل دويلة منها ملك مستبد يملك حق الحياة والموت فى رعيته ، ولم يعد لدى المسلمين عن حكم الشورى والإخاء والمساواة سوى صدى بعيد خافت ، لا يثير لديهم نخوة ، ولا يحفزهم إلى الرغبة فى العودة إلى ما كانوا عليه من عزة وبأس شديد .

وليت هؤلاء الملوك اتفقوا فيما بينهم على تقسيم الأمة الإسلامية ، على أن يكونوا يداً واحدة ، مع استبداد كل واحد منهم بإقليمه ! وليتهم أبقوا على الفكرة الإسلامية الكبرى ، وهى أن لا جنسية للمسلمين إلا فى دينهم ! لكن جرى الأمر على غير ما كان ينبغى ؛ فملك الزهو عليهم أنفسهم . وظن كل واحد منهم أنه أحق بالملك من سواه . فبدأت الغارات من جانب وآخر . فإذا عجز أحدهم عن أن ينال من صاحبه ، أو أن يدفع عن نفسه

http://www.al-maktabeh.com

استعدى عليه الأجنبي . ذلك أن هؤلاء الأمراء كانوا يرون في الملك والاستبداد مطمحاً دونه أي مطمح ، ويلمسون في أنفسهم وفي ضمائرهم أن لقب الملك أو الأمير أعز عليهم من وحدة المسلمين وقوتهم . وتاريخ المسلمين حافل بأمثال هؤلاء الملوك الذين احتفظوا بلقب الإمارة على أسنة رماح الأجانب. ويستطيع كل مسلم أن يعثر في تاريخ بلده على مثال أو أكثر من هذا القبيل . وهذا هو الذي قضى على ملك المسلمين في الأندلس ، وقوّض سلطانهم في الهند ، وألحق بهم الوهن في جميع بقاع الأرض . فقد لها الملوك بشهواتهم عن أمر رعاياهم ، فخربت الديار ، وبطلت الصناعات واندثر العلم وساء الخلق . ومن قبل شكا أبو العلاء من ظلم الملوك وترفهم ، وضاق باستخذاء الأمة لهم :

مُلّ المقامُ فكم أعاشر أمة ° أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

فهمّ كل ملك أو أمير منهم أن يحيا حياة الدعة والترف ، وأن ينعم باللهو واللعب ، وأن يحيط نفسه بمظاهر العظمة التي يظنها في كثرة الخدم والحشم ، والقصور التي تتطامن أمامها قصور ملوك الأمم الظافرة المستعمرة . ويحسب الأمير أو الملك منهم أن عمله ينحصر في استنزاف قوى شعبه وفي تسخيره واسترقاقه ، مع أن مجال العمل الذي يعود على أمته بالخير أوسع من أن تكفي حياته وحياة سلسلة من أحفاده في القيام به . وكم سمعنا ورأينا من بذخ ملوك الشرق ، وخاصة ملوك المسلمين ، حينما تأخذهم لوثة التشبه بملوك الغرب ، فإذا دعوا أحداً من هؤلاء إلى زيارة بلادهم لم يدخروا

مكتبة المهتدين الإسلامية

قليلا ولا كثيراً فى التظاهر بالأبهة والعظمة ، ولم يدعوا منفذا إلى الإنفاق والإسراف إلا هرعوا إليه . مع أن نظرة واحدة إلى بؤس رعيتهم وعريها تكفى فى اطلاع الأجنبى على حقيقة أمر هؤلاء الملوك وتفاهة شعوبهم الذين تصرف مقاديرهم وتستلب أرزاقهم ، وهم قانعون راضون بالذل والهوان . فالبذخ والإسراف غاية هؤلاء الملوك ، لكنهم أكثر الناس شحاً عند ما ينبغى لهم أن ينفقوا شيئاً يعود على أمتهم بالخير ، أو يكسبها شيئاً من احترام الآخرين . وهكذا حرص هؤلاء الملوك على الدنيا ، واختلفوا فيما بينهم ، وكان عليهم أن يتحدوا حتى ينهضوا بأممهم .

ومن قبل شهد الأفغانى بذخ إسماعيل،وإسراف ناصر الدين شاه، ولمس القطيعة بين الأتراك والأفغان ، فأخذه الغضب لموقف ملوك المسلمين الذين نسوا أوطانهم ، ولم ينسوا أنفسهم : « أما وعزة الحق وسر العدل ، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم لتعارفت أرواحهم ، وائتلفت آحادهم . ولكن وآسفاه تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة فى لقب أمير أو ملك ولو على قرية ،لا أمر فيها ولا نهى . . وما رد الأفكار عن الحركة ،وما أقعد الهمم عن النهوض إلا أولئك المترفون؛ يحرصون على طيب فى المطعم ولين فى المضجع ، وتطاول فى البنيان ، وتفاخر بالخدم والخول ، ولا يراعون فى حرصهم على ما بعد يومهم ، ويحافظون على لقب موضوع ورسم متبوع، يقنعون منه بالاحتفال لهم بالمواسم والأعياد ،وهز الرؤوس وثنى الأعطاف تعظيما وتبجيلا ، ثم تذيل الأوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات . . . أولئك صاروا

http://www.al-maktabeh.com

فى أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا ، يحبسون هذه الأسود عن فريستها بل يجعلونها طعمة للثعالب . »(١)

ب — جهل الملوك وغرورهم :

ومما ضاعف بلاء المسلمين أن ملوكهم ليسوا فى الأعم الأغلب على شىء من العلم الذى ربما هذّب الطبع ، وأوحى بفكرة الإصلاح ، ونأى بصاحبه عن الكبر والزهو ، وصرفه عن المباهاة بالعظمة وسط قوم من البؤساء الجياع. وإذا اجتمع الميل إلى الترف مع تأصل الجهل لم يكن لأحد أن يتوقع خيرا من ملوك يضلّون أنفسهم قبل كل شىء ، ثم يضلّون الناس من بعدهم . ولو أن ملكا من هؤلاء عنى بتربية خلفه ، ورغب فى تنشئته على الخير والعلم فلربما أحسن إليه أجمل الإحسان . لكن هذا مالا يتفق مع ما جرت عليه عادة ملوك المسلمين الذين لا يقرّبون عالما ، ولا يحفلون بنبوغ ، ولا تتسع صدورهم لسماع نصيحة من مفكر رشيد ، ولا يرتضون لأبنائهم أن يكونوا خيرا منهم ؛ إذ يحسبون أنهم أقدر الناس على تصريف أمور الملك ، وأن الدم الذى يجرى فى عروقهم ، وهو فى ظنهم دم من نوع آخر ، يغنيهم ويغنى ذريتهم عن العلم الذى قد يسمو ببعض أبناء الشعب مع كثرة الجهد والصبر ، ولكنه لا يعدل ما يمتاز به الملوك عن الدهماء من إصالة المجد ، ولطف العناية الإلهية التى أرادت لهم أن يكونوا ملوكا . لقد بنى لهم آباؤهم مجداً — عريضاً أو غير عريض — وليس بعزيز عليهم أن يحتفظوا به ، ولا سيما إذا كان محكوموهم جماعة من الأرقاء المتخاذلين الذين ورثوهم فيما ورثوا أيضاً .

(١) العروة الوثقى ١٥٢ — ١٥٥

مكتبة المهتدين الإسلامية

ويؤدى الجهل والغرور كل إلى غايته ، وقد تتحد هذه الغاية فى أكثر الأحيان ؛ إذ تتراكم الأخطاء ، وتشح موارد المال ، وتضجر الرعية ، ويترقب العدو فرصة سانحة ، ويدب الطمع فى قلوب طلاب الملك . غير أن ما يقلقهم من بين هذا كله إنما هو المال الذى يريدونه لإشباع نزواتهم التى لا تعرف حداً . وليس تحصيل المال بالأمر العسير ، إذ يكفى أن تفرض الضرائب الجديدة ، أو تمنح الامتيازات لدولة أجنبية طامعة ، أو تباع أسهم شركة من الشركات ، أو تغتصب ضياع كبير من الكبراء . وماذا عليهم أن يفعلوا هذا أو أكثر منه ، طالما لا يجدون من يقف أمامهم ليقول لهم رفقا بالعباد .

وأكثر خطراً من هؤلاء الملوك الجهلاء ، الذين ينزلون الضر بأنفسهم كما ينزلونه بأوطانهم ، جماعة من الملوك الذين يضلون عن علم ، ولا يشغلهم أن يستقر الملك من بعدهم لأبنائهم ، وإنما يعنيهم أن ينعموا ما استطاعوا فى أثناء حياتهم ، وأن يلهوا بمقادير أمتهم والسخرية منها . وكثيراً ما يغرر هؤلاء برعاياهم ، ويحاولون القضاء على روح المقاومة عندهم ، فيتظاهرون ، أول الأمر ، بأنهم ملوك مصلحون ، لا يريدون شيئاً سوى العمل على رفعة الوطن والنهوض به ، والإسراع بإدخال النظم السياسية الحديثة التى تخفف من أعبائهم ، وتشرك الشعب معهم لكى يحكم نفسه بنفسه ، عن طريق اختيار من يمثلونه لتصريف شئون الدولة . وتنخدع الرعية بما يلقى فى روعها ، فتسلم قيادها ، وتختار ممثليها ثم تركن إلى الدعة ؛ بينما ينصرف صاحب الملك إلى حبك المؤامرات لتمزيق وحدتها ، وبث الضغينة بين أحزابها . وكثيراً ما ينجح فى خديعة رؤساء هذه الأحزاب ، ولو كانت معارضة لطغيانه ،

http://www.al-maktabeh.com

فيقربهم حيناً، ويبعدهم حيناً، ويلوّح لهم بالحكم، ثم يُبدل به عليهم، فيتطامن الأبيّ، وينساق مع غيره، لكي يترامى على أقدام المستبد يؤكد له ولاءه وطاعته، حتى ينال شيئاً من الغنائم بعد طول الحرمان.

فإذا استطاع الأمير أو الملك أن يحطم كبرياء المتكبرين من المستوزرين أخذ يضرب بعضهم ببعض، يوليهم ويعزلهم متى شاء، وتحزن الأمة وتفرح، وتشقى وتسعد، لذهاب مستوزر أو مجيء آخر، وهى لا تدرى أن وزراءها جميعاً قد نسوها، وأنهم ليسوا إلا قطعاً من الدمى التى تحركها يد يتظاهر صاحبها بالإصلاح، وبالتلهف على النهوض بالأمة والسير بها إلى مدارج العلا! ويقهقه هذا المستبد بين حاشيته طرباً لنجاح حيلته، مع أنه يسوق نفسه إلى الهاوية، فهو يظن أنه أكثر الناس ذكاء، وأطولهم باعاً، وأقدرهم على اللعب بمصير أمته، لكنه لا يفعل فى الحقيقة سوى أن يعجل بهدم ملكه ودنياه، ولا يدفعه إلى ذلك المصير الرهيب سوى الغرور، وهو داء عز أن يرجى له شفاء.

ومن مظاهر الجهل والغرور أن الأمير الشرقى يعبد الألقاب ويحرص عليها أكثر من حرصه على ملكه. وقد عرف المنافقون تقدير الملوك لهؤلاء الذين يخلعون عليهم صفات العظمة والشرف فافتنوا فى اختراع الألقاب لهم. وإذا أنت قرأت صحيفة من صحف البلاد الإسلامية واطلعت على الجمل الطويلة التى تفيض ملقاً، والتى تسبق صغائر الأمور التى يقوم بها الملوك، لملئت عجباً. ولو ترجمت هذه العبارات إلى لغة أجنبية لحار الناس فى فهمها؛ إذ ليس من عادتهم أن يروا مثل هذا البذخ فى جمع ألقاب الشرف والجلالة والعصمة

مكتبة المهتدين الإسلامية

والمجد والنبل لو صف ملك ، أو شبه ملك ، يعلم الناس جميعاً خيانته وسفه رأيه وحمقه وخسته ، وبعده عن الشرف والنبل .

كذلك عرف المستعمرون غرور أمراء المسلمين ، فسلبوهم ملكهم ، وأبقوا لهم مظاهر الملك وألقابه فقرّبها هؤلاء عينا . ومن قبل عجب الأفغانى لسذاجة هؤلاء الملوك وجهلهم فقال : إنه « إذا سلب الأمير الشرقى ملكه وماله وجرّد من جميع حقوقه ، وبقى له لقبه ولواحق لقبه فهو فى سكرة من لذة ما بقى له ؛ وفى ذهول عما سلب منه . هذه خلة عرفها الانكليز فى كل أمير شرقى . فلمَ لا يقرون أعينهم بحفظ هذه الأسماء ، بعد ما جردت من حقائقها ، وأى داع يدعو رجال الإنكليز لإزعاج قلوب الأمراء بنزع هذه الألقاب ؟ إن اللقب الضخم حصن حصين يسجن فيه الأمير الشرقى ، وجبّ عميق يلقى فيه ، وهو يظنه جنة عرضها السموات والأرض . »

وقد سرت عدوى الغرور إلى الخاصة والعامة ؛ بل إلى نفر من العلماء الذين لا يحترمون علمهم ، أو يتجاهلون أن الحياء أهم صفات العالم . فأصبح القوم جميعاً يتنافسون فى الحصول على الألقاب ؛ وإن لم تمنح لهم منحوها هم لأنفسهم ؛ إذ يظنون أنهم يزدادون بها شرفاً ومكانة فى أعين الناس ، مع أنهم لا يخدعون أحداً ، ولا سيما إذا حمل اللقب العريض ذو الجهد أو الشرف الهزيل . لكن ما دام الشرف يمنح دون استحقاق ، وما دام المجد ينال عفواً ودون جهد ، فلا ضير إذن من أن تباع الألقاب وتشترى . فإن أعوز المال فلا أقل من أن يراق ماء الوجه ، وأن تدبّج مدائح الملق والنفاق . فالطامح إلى اللقب إما غنى يستطيع أن يشتريه ، وإما رجل لا حياء له ، يقبل على الملوك يطريهم بما ليس فيهم أو بضد ما هم عليهم ،

http://www.al-maktabeh.com

فيصفهم بأنهم المصلحون العادلون المشفقون على رعاياهم ، مع أنه يعلم في قرارة نفسه ،كما يعلم الناس جميعاً ، أنه أول المنافقين .

حـ — خيانة الملوك :

لقد عاش الأفغانى فى عصر تألبت فيه الدول الأوروبية على الأقطار الإسلامية ، وبدأت تعد العدة فيه لاقتسام الدولة العثمانية . ولم يكن جمال الدين بعيداً عن مجال الحوادث التى اهتز لها الشرق فى ذلك الحين ؛ فإنه شهد فى بلاده كيف اختلف الأمراء فيما بينهم ، وكيف نجح شير على خان فى اغتصاب الملك بعون الإنجليز . ثم اضطر إلى مغادرة البلاد الأفغانية إلى قطر إسلامى آخر كان الإنجليز يعدون العدة للاستيلاء عليه ، وهو مصر . وهناك رأى رأى العين إسراف اسماعيل وبذخه وغروره . ثم اشترك فى إثارة الرأى العام ، ضد هذا الملك الذى كان يقود بلاده إلى الهاوية . وكان له نصيب فى خلعه وتولية توفيق باشا الذى تعاهد معه من قبل على الإصلاح السياسى والاجتماعى والوقوف فى سبيل أطماع انجلترا وفرنسا . لكن توفيق خان العهد ، وغدر بصاحبه ونفاه من مصر . كذلك وجد الأفغانى فى إيران نموذجا آخر من السفه والخيانة جمع بين صفات إسماعيل وتوفيق ، ونعنى به ناصر الدين شاه ، الذى أغرق بلاده فى الدين ، ثم أخذ يمنح الإمتيازات لكل من انجلترا ولروسيا ، لولا أن أوقفه الأفغانى عند حده بإثارة رجال الدين عليه أولا ، ثم بالحض على قتله فيما بعد .[1]

فإذا تحدث الأفغانى عن سفه ملوك المسلمين وخيانتهم فإنه لايعالج الأمر

(١) إرجع إلى كتابنا جمال الدين الأفغانى ، حياته وفلسفته .

مكتبة المهتدين الإسلامية

al-maktabeh
مكتبة المهتدين

من الوجهة النظرية ، وإنما يتحدث حديث الخبير المطلع الذى يرجع النتائج إلى أسبابها ، والذى يستنبط من التاريخ عظاته ودروسه . لقد وصف بعضهم جمال الدين بأنه ثائر لا يرضى سوى أن يهيج النفوس ويبعث الفتنة فى كل مكان حل به ؛ وهذا هو ما وصفه به الأجانب الذى لقوا من عدائه أكثر مما لقوه من أى رجل آخر . لكنه لم يكن إلا رجلا صادق الحدس بعيد النظر ، فطن إلى ما تبيته الدول الأوروبية للأقطار الإسلامية ، فقام يناهضها وحده فى عصر استسلم فيه المسلمون ؛ بل سارع فيه ملوكهم إلى تصفية ملكهم ، إما خوراً وإما سفها وخيانة ، كأنما قد ورثوا الأرض ومن عليها ، وكأنما كان لهم حق هبة رعاياهم وثروات بلادهم لأول طارق أو أول طامع .

إن هؤلاء الذين ينتحبون للمجد الزائل ، ويصبون لعناتهم على الدول الاستعمارية ويسبون الدهر الذى جعلهم أذلة ، ورماهم بهذه الدول الجشعة التى تنكل بهم هم أولى الناس أن يبدأوا بالخجل من أنفسهم ، وبصب لعناتهم عليها . وهم أجدرهم بألا يتوقعوا من عدوهم أن يعاملهم معاملة الكرام الذين كبا الدهر بهم ؛ ذلك أنهم كانوا جبناء رضخوا لملوك من الخونة ، وتركوا أمرهم لجماعة من الوزراء الذين لا خلاق لهم ، فحق لهم إذن أن يصبحوا سلعة تباع أو توهب أو تمنح دون عوض . وليس على الدول الاستعمارية بعد ذلك من حرج ، ولها أن تغتصب ما تشاء ، وتذل وتعز من تشاء . فإن من سنة الحياة والعمران أن من يقبل الذل والظلم جدير بأن يكون ذليلا مدحوراً .

ولم يخف على الدول الأجنبية ما انحدرت إليه حال المسلمين من ذل رعاياهم ، وخيانة ملوكهم وجبنهم ، فلم تجد مشقة فى استعمار بلادهم بعد

http://www.al-maktabeh.com

أن كانت هذه البلاد حصناً منيعاً تخرج منه الجيوش تلقى الرعب فى قلب العدو . وهكذا تبدل الأمر ، وأصبح من اليسير على أى دولة أجنبية، ولو من دول الدرجة الثالثة أو الرابعة فى القوة أن تغير على أى قطر إسلامى، وتدفع بجيوشها إليه، وهى آمنة ألا تضطر إلى القيام بحرب حقيقية تخشى نتائجها . ذلك أنها كانت على يقين من أن أمراء هذه الأقطار أو ملوكها ليسوا ممن يُخشى خطره ، أو يُحفل بأمره .

فالأمير المسلم أحد رجلين : إما حاكم تدين له الرعية بالولاء والطاعة وتحف به القلوب محبة ، وإما حاكم مستبد خائن . فإذا كان الأمير على وفاق مع رعيته — وقلّ أن يوجد مثل هذا الأمير — لم تعدم الدولة الطامعة فى ملكه سبيلا إلى بعث الرعب فى قلبه ، أو فى أن تحيك له الشباك ، فتخدعه بالأمانى وتعلله بالآمال ، وترغبه فى الاستسلام ، فيرضخ لما تقضى به . فإذا وقع فى حبائلها كان من الهين أن تتبعه الأمة بأسرها . وهذا هو الطريق الذى اختاره الإنجليز مع السلطان التيمورى فى الهند . فقد أوهموه أنهم لا يريدون به شراً ، وأنهم لا يبغون سوى تنمية علاقات الصداقة والتجارة مع بلاده ، وأنه يستطيع أن يطمئن إليهم فى استغلال هذه الموارد الهائلة التى عجز الهنود عن استغلالها . وما زال الإنجليز يتقدمون بخطاً بطيئة وأكيدة حتى وضعوا أيديهم على مختلف مرافق الدولة ، وتبع ذلك أن سقطت بلاد الهند فى حوزتهم. «ولولا ما كان للهنديين من عقدة الارتباط بسلطانهم التيمورى وقبض الإنجليز أول الأمر على تلك العقدة لما تيسر للبريطانيين أن يخضعوا الأمم الهندية أحقاباً طويلة.»(١)

---

(١) العروة الوثقى ١٦٩ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

وقد أراد الإنجليز أن يكرروا الحيلة نفسها فى البلاد الأفغانية مع تعديل بعض تفاصيلها فأوقعوا بين الأمراء ، وتحالفوا مع أحدهم على أن يمنحهم بعض الإمتيازات الاقتصادية ، ونجحوا أول الأمر فى أن ينصبوا صاحبهم على العرش . لكن رجال الأفغان كانوا أصلب عوداً من جيرانهم ، وأكثر منهم حمية ، وقدرة على القتال، ففتكوا بالإنجليز فتكا ، واضطر هؤلاء أن يتركوا البلاد لأهلها .

أما إذا كان الأمير سفيهاً خائناً لا تربطه بشعبه رابطة مودة ومحبة فإن الاستيلاء على بلده لأكثر يسراً ، إذ ليس للغاصب أن يجند الجيوش الضخمة وأن يحشد الأساطيل . وفيم هذا العناء كله إذا كانت نتيجة الغزو محققة قبل البدء فيه ؟

لقد كانت فكرة فتح بلاد المسلمين منذ عدة قرون لا تراود الدول الأوروبية . لكنها بدأت تتحقق فى القرن الثانى عشر أيام الحروب الصليبية ، غير أن بقية من الأخلاق الإسلامية ألهبت حماس الملوك والأمراء فاستطاعوا أن يطردوا العدو من الأراضى المقدسة ، ثم بدأ الفتح الإسلامى يتجه نحو الغرب من جديد . أما ملوك المسلمين وأمراؤهم فى العصر الأخير فلم يكونوا على شىء من خصال أسلافهم الذين دوخوا الغرب ، وأخضعوه لسلطانهم، واستولوا على كثير من ممالكه حتى بلغت جيوشهم أسوار فينّا . ولا ريب فى أن التضاد بين هذين النوعين من الأمراء والملوك هو السبب فى هذا الفارق الكبير الذى نراه بين الدول الإسلامية فى عصرنا الراهن وبينها فى الزمن الماضى . فإن « الأمراء كما يكونون فى دور من أدوار الأمة قوى فعالة لنموها وعلوها . . . كذلك يكونون فى بعض أدوارها علة فاعلة

http://www.al-maktabeh.com

فى سقوطها وهبوطها وانحلالها ، وإنا نخاف ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ أن يكون أمراؤنا والأعلون فينا آلة فى اضمحلالنا وفنائنا ، لما غلب عليهم من الترف والانهماك فى اللذائذ والانكباب على الشهوات ، مع سقوط الهمة ، وتغلب الجبن والحرص والطمع فى طباعهم . . . »(١)

ومما دفع الأمراء إلى الخيانة والتفريط فى أمانة الملك التى فى أعناقهم أنهم وثقوا بالأجانب ، وعهدوا إليهم بكثير من أعمال الدولة ومناصبها من وزارة أو سفارة ؛ بل اتخذوا منهم حاشية وبطانة ، وفضلوهم على النابهين من رعاياهم . ثم غالوا فى الثقة بهم ، حتى أفسحوا لهم مكانا فى قصورهم ، وندبوهم لخدمتهم الخاصة ، ظنا منهم أن ذلك يتيح لهم أن ينافسوا الملوك الآخرين فى الجرى على أساليب الحياة الأوروبية ، وفى أتباع تقاليد الملوك من الأجانب ؛ وذلك أمر يعلو فى تقديرهم على كل أمر ، وهو مما لا خبرة لبنى ملتهم به . وغاب عن هؤلاء الأمراء والملوك المفتونين بقشور الحضارة الغربية وزخرفها أن العظمة والمجد لا يكونان بكثرة الخدم والحشم ، وإنما بالجد والسعى للنهوض بأممهم المتأخرة ؛ وغفلوا عن أن الأجانب الذين يصطفونهم لا ينسون أوطانهم ولا يعنيهم ، فى كثير أو قليل ، أن يخلصوا لمن اصطنعهم ، ولا يشغلهم همّ سوى أن يقفزوا إلى أرفع المراتب سعياً وراء المال والجاه والنفوذ ، ولا يكترثون إن أحسنوا أو أساؤا فى النصيحة ؛ إذ ما الذى يربطهم بمصير هذا البلد وأهله ، وهم على غير ملته وعقيدته ؟ إنهم لو استطاعوا إلحاق الضرر بولى نعمتهم ، وهو آمنون على أنفسهم ، لرأوا من الحمق والسفه ألا يفعلوا

(١) العروة الوثقى ص ١٧١ — ١٧٢ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

كل ذلك والملوك فى غفلة عن هذا السوس الذى ينخر فى عروشهم ويهدم فى ملكهم ، ولا ينى يوسع الثغرة التى تترقبها دولة طامعة للتدخل فى شئون بلادهم أو لوضع يدها عليها . ويعلم المرء ممّ تتألف حاشية كثير من ملوك المسلمين ، وكيف أن هؤلاء الأجانب يصرفون أمور الدولة ، يقيمون الوزارات ويسقطونها ، ويعملون لحساب بعض الدولة الأجنبية لقاء أجر معلوم . فهم قوم إذا ائتمنوا خانوا ، وإذ كرّموا طغوا ، وإذا قوبلوا بالإحسان أجابوا بالإساءة . ثم إذا انهار العرش الذى كانوا يزعمون أنهم من المخلصين له أسرعوا بالفرار كالجرذان يحاولون تبرئة أنفسهم من طيش الملوك ونزقهم ، ويتطوعون إلى التشهير بسلوكهم ، ويبدون حسرتهم على عناد الملوك الذين يركبون رؤسهم ، ولا يستمعون إلى ما بذلوا لهم من نصح صادق ! !

د — أعوان المستبد :

وليس وزراء المستبد أقل خطراً من حاشيته الأجنبية ؛ فإن التاريخ يشهد بأن الأمير المستبد لا يصطنع من الوزراء سوى الأذلاء اللئام ممن يكونون أطوع له من بنانه ، وممن يحسنون الملق والنفاق، ويجيدون استنزاف أموال الرعية ، ويلهونها عن المطالبة بحقوقها ، ويفتون فى عضدها، حتى تظل خامدة راكدة . غير أن هؤلاء الأعوان يأبون إلا أن يتشبهوا بسيدهم ، فيتخذون رجالهم ممن هم على شاكلتهم لؤماً وذلة . ذلك أن الوزير الأكبر الذى يعرف كيف يحنى هامته ، وكيف يقبّل يد الأمير التى قد تصفعه، يهمه أن يجد من ينحنى له ، ويقدم فروض الطاعة بين يديه ، ويتقبل سخطه بالرضا ، وعسفه

http://www.al-maktabeh.com

بالخنوع ، كذلك يحلو له أن يبدو فى نظر العامة فى مظهر المستبد الذى يقبض على مقاديرها بيد لا تعرف شفقة ولا رحمة . فهو اللئيم الأعظم من بين قومه، ثم يأتى من بعده الوزراء ممن هم دونه لؤما .

ويتدرج اللؤم والاستبداد فى المناصب، وتستبد كل طبقة بالتى هى أدنى منها ، حتى ينتهى الأمر إلى أدنى الطبقات ، دون أن ينمحى اللؤم أبداً . وكل طبقة من هذه تدين بالطاعة لأكثر أفرادها لؤماً ؛ إذ من عادة الأسافل ألا يشغلوا أنفسهم بالسعى وراء محبة الناس ، إنما الذى يهمهم هو أن يكتسبوا ثقة من يستبد منهم ، ممن هو أسمى منهم مرتبة فى الخسة والدناءة . وكيف نتصور أن ينمحى اللؤم جملة إذا كان أصغر موظف فى الدولة يحرص على الاحتفاظ بشىء من الميل إلى الاستبداد بحاجات الناس ، لكى يبرهن لهم ، فى كل لحظة ، أنهم أمام ممثل المستبد الأكبر ؟ فدولة الاستبداد هى دولة الأوغاد ،على حد تعبير الكواكبى . وتكفى المقارنة بين مسلك رجل الشرطة فى هذه الدولة ومسلك قرينه فى دولة حرة لمعرفة إلى أى مدى يشوه الاستبداد النفوس، وإلى أى حد ينعكس لؤم الوزراء واستبدادهم فى طباع أدنى مرؤسيهم. فكلٌ فى هذه الأمة مستبدٌ ومستبَدٌ به ، وكل ذليلٌ وطاغية : ذليل لمن يرأسه، وطاغية على من هو دونه . وقد يعجب الإنسان لماذا لا يترك الناس أنفسهم على طبيعتها فى هذا المجتمع ، ولماذا لا يتجهون إلى الحق والخير بفطرتهم الأولى ، دون أن يضطربوا بين الذل والقهر ، والضعة والكبر ، والتظاهر بالرغبة فى الإصلاح مع الأصرار على الاحتفاظ بالأوضاع القديمة ، مع ما فيها من جور وعسف . لكن ليس هناك فى الحق ما يدعو إلى هذا العجب ؛ فإن النفاق هو القانون الأكبر فى دولة الاستبداد .

مكتبة المهتدين الإسلامية

وكثيرا ما يزعم وزراء المستبد أنهم من أبناء الشعب ، وأنهم لا يهدفون إلا إلى الإصلاح والنهوض بالأمة العاثرة ، وأنهم يبذلون قدر طاقتهم لحمايتها من الطغيان . غير أنه ينبغي للمرء ألا يُخدع بهؤلاء الوزراء الذين ينافقون ، ويقولون مالا يفعلون ؛ فقد بيتوا أمرهم سرا مع سيدهم على أن يعللوا الناس بالآمال والأماني ، وأن يخدعوهم بالحديث المستمر عن الحرية وحقوق الشعب، حتى يصرفوهم عما يدور في الخفاء من اتفاق على تقسيم الغنائم والأسلاب ، وتوزيع الثورة بين نفر معدود من حاشية المستبد وأهله وأعوانه وزبانيته . والحق أن هؤلاء الوزراء أكثر فطنة من أن يصدقوا الوعد، أو يؤدوا الأمانة؛ فإنهم يعلمون أن الخير كل الخير لهم في البقاء إلى جانب المستبد . وقلّ أن يسقط الستار ليكشف عما يدور في الخفاء بين الملك المستبد ووزرائه ! وإذن فكيف للشعب الجاهل أن يفيق من غفلته ؟ وكيف له أن ينقطع عن الهتاف بحياة فريق من المستوزرين الذين يجيدون النفاق ، ويستغلونه باسم الوطنية والحرية والتظاهر بالوقوف أمام الطغاة أو العدو ؟

وقد لا نعدم أن نجد ، في بعض الأقطار الإسلامية التي تتبع في حكمها ما يظن أنه الحكم النيابي الغربي ، حزبا قويا من الأغنياء الذين يمثلون الشعب الفقير ، وينادون بأنهم لسان الأمة المعبر عن إرادتها ، مع ما في هذا من التناقض الذي يفجأ النظر ، والذي لا نجد له مثيلا في أمة متحضرة ؛ إذ لم نر في بلد من البلاد جماعة الأغنياء ينادون بإنصاف الفقراء . إن ذلك أمر ليس في طبيعة الإنسان ! ولكن هذا ما قد يحدث في الشرق ، وهو موطن السحر والمتناقضات ! فإذا اتفق أن طالب فريق ممن لم يفسد الاستبداد طبعه بنشر التعليم ثارت ثائرة هؤلاء الأوصياء على الشعب ، وفزعوا أن يفقدوا أعز حليف من حلفائهم وهو جهل الأمة ، فلا يفتأون

http://www.al-maktabeh.com

يضعون العراقيل، لأنهم لا يخشون عدواً أشد خطراً من العلم الذى يزيح الغشاوة عن العيون ، ويهتك ستار المنافقين الذين يحرصون على أن يظل الشعب فى جهله حرصهم على أن تبقى الثروة فى أيديهم . وإذا ثارت نفس امرىء للظلم الاجتماعى فى مثل هذه الأمة ، فأخذ ينادى بضرورة توزيع الثروة توزيعاً عادلا ، وسن القوانين التى تضع حداً لما يمتلكه الأغنياء من الأراضى الزراعية التى لا حياة لأغلبية الشعوب دون ملكيتها ، رأيت هؤلاء الأغنياء الذين يمثلون الطبقة العاملة الفقيرة أشد إصراراً على إبقاء القديم على قدمه ؛ إذ أن كل تعديل أو تغيير فى طريقة توزيع الأراضى سوف يقود البلاد حتما إلى الخراب والدمار ، وهم أحرص الناس على رخائها !

وربما وجد هؤلاء الوزراء فى مثل هذه الأزمات عوناً من بعض رجال الدين ؛ بل كثيراً ما يجدون هذا العون دون أن يلتمسوه . وعندئذ ينبرى نفر من رجال الكهنوت يرغبون الناس فى الفقر ، ويذمون لهم الطموح والرغبة فى النهوض مما انحدروا إليه ، فيقولون لهم إنما الدنيا متاع الغرور ، وإن المؤمن مصاب ، وإن ما يجدونه من سوء حالهم ليس إلا بقضاء من الله ، ولا مرد لهذا القضاء إلا بالصبر والرضا . فإذا لمسوا أن تحسين الفقر وذم الغنى لا يخدع أحداً ، وأن الميل إلى الثروة والتمرد يضطرم فى نفوسهم جعلوا يحذرونهم مما هم مقبلون عليه ، وينصحونهم بألا يخالفوا أوامر هؤلاء الذين تجب طاعتهم، ولو كانوا طغاة مستبدين (١) ثم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويستشهدون لما يقولون ، ساء فعلهم ، بآيات من القرآن كقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » كأن

(١) ألم يكن رجال الدين فى تركيا يقولون فى أيام السلطان عبد الحميد : سلطان غشوم خير من فتنة تدوم ؟

مكتبة المهتدين الإسلامية

طاعة الله فى معصية أمر يوجبه الدين . ويلقى رؤساء الكهنوت جزاء ما صنعوا ، فيقربهم الوزراء ، ويفسحون لهم فى الرزق ، ويطلبون لهم الكسوة ، ويزيدون فى رواتبهم ويكثرون لهم من مجاملاتهم ولفتاتهم . فإذا تعددت الأحزاب فى قطرهم تفتحت لهم آفاق الرجاء ؛ إذ يسرع كبارهم كل يلوذ بفريق أو حزب يعقد أمله عليه ، ولا يدخر جهداً فى عونه بنفوذه وسلطانه على نفوس الدهماء . وقد يفطن بعض هؤلاء المقامرين أنه قد أساء اختيار فريقه ، وعندئذ لا يتردد فى البحث عن الفريق الرابح الذى يعتقد أن الفوز معقود بنواصيه ، وأنه أقرب إلى منصب الحكم من غيره .

فهناك إذن نوع من التحالف بين الوزراء ورؤساء الكهنوت ، ولهذا التحالف ثمنه ، والشعب المخدوع هو الخاسر فى كل حال . أما الثمن فهو تلك القوانين التى توضع وتسن لمصلحة الأغنياء ولانزع ما قد يبقى من قوت فى أيدى العامة . ولذا فليس بغريب أن اتجهت البلاد الإسلامية ، وبخاصة فى العصور الأخيرة ، نحو نظام عتيق شهدته أوروبا فى عصور تدهورها ، ونعنى به نظام الإقطاع . فإن المستبد يبدأ عادة بجمع ما فى أيدى رعيته من أراض زراعية ، بحجة أنهم لا يحسنون القيام عليها ، ويستخدمهم عمالا بأجر لا يقيم لهم أوداً . فإذا أخلص له أحد من خدمه أو من وزرائه أقطعه الأراضى الواسعة . ومنحه عبيدها فى الوقت نفسه . فطريق الإثراء فى الشرق ليس هو العمل أو الجد أو الذكاء ؛ وإنما هو التملق والحظوة لدى الملوك . وهذه هى أهم وسائل الإثراء . ثم يأتى بعدها الاتجار بالدين . ومن الطبيعى أن تنحصر الثورة القومية كلها فى عدد قليل من العائلات التى تدور فى فلك الأمير المستبد . وربما كانت أكثر العائلات ثروة

http://www.al-maktabeh.com

أطولها باعاً فى الخيانة ، أو فى البطش بالشعب . وعندئذ لا تجد هذه القلة من العائلات أو البيوتات حرجا فى أن تصف نفسها بأنها صاحبة المصالح الحقيقية فى البلاد . غير أنها لاتستحى بعد ذلك من أن تتقدم إلى الفقراء الذين لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً تطلب إليهم أن يختاروها ممثلة لمصالحهم فى المجالس النيابية ، وهى لاتطلب إليهم ذلك بالرفق والحسنى ، وإنما بالسياط ، أو بالرشوة ، إن لم يكن هناك مجال لاستخدام السياط .

وإذا ثبتت قدم الخيانة والاستبداد بهذه الطريقة أو بغيرها زادت ثروة الأغنياء ، وعظمت مصالحهم التى يدافعون عنها ، وهبط مستوى الحياة لبقية الشعب ، واستشرى الفساد . وكلما زادت الهوة بين الفقراء والأغنياء عظم خوف الناس من أولياء الأمر فيهم . وهم يخافونهم خوف دناءة ونذالة . وربما فسدت طباعهم إلى حد أنهم يتفانون فى خدمة ونصرة فريق من الحكام الذين يستبدون بأمرهم . وقد يسخر هؤلاء فى أعماق أنفسهم من مثل هؤلاء الأنصار المستعبدين الذين تبح أصواتهم بالهتاف بهم .

٣ — تحالف الملوك مع رجال الدين

١ — اتحاد الهدف :

وربما فاق الملوك وزراءهم فى التماس العون من رجال الدين . ومن النادر أن يرفض هؤلاء عونهم ، اللهم إلا فى بعض حالات شاذة ، ونعنى بها تلك التى يبقى فيها لدى علماء المسلمين نصيب من الأخلاق التى غرسها الدين فى ضمائرهم ، ومن الغلو أن ننكر وجود هذا النوع من العلماء الذين يقفون فى وجه

مكتبة المهتدين الإسلامية

الاستبداد والظلم، ويشترون آخرتهم بدنياهم. لكن هؤلاء قلة، وهم قد لا يوجدون في كل عصر أو عند الحاجة إليهم؛ وإنما يشهد التاريخ ، في أكثر حوادثه ونوازله ، أن الملكية الاستبدادية كانت على وفاق دائما مع رجال الدين أو أكثرهم في أغلب العصور . ذلك أن رجال الدين محافظون بطبيعتهم . وقد يغلون في هذه المحافظة إلى حد الجمود والإصرار على الدفاع عما لا يمكن الدفاع عنه ، من الأساطير والبدع التي لا يقبلها العقل ولا الدين . ولهذا يرون في كل فكرة جديدة بدعة توشك أن تفسد العقائد ، أو تهدم صرح الدين ، أو تأتي على سلطانهم ونفوذهم . مع أن الأفكار الجديدة تهدف أكثر ما تهدف إلى تحرير العقول من الأوهام والخرافات التي تراكمت على العقائد حتى حجبتها ، واحتلت مكانها في النفوس .

ذلك أن الحياة الاجتماعية في تطور مستمر . ومن الطبيعي أن يتردد صدى هذا التطور في الأمور الدينية لميل الناس إلى الانحدار من التوحيد إلى الشرك ، ومن البساطة إلى التعقيد . فتبتكر الطقوس والتقاليد لإشباع هذا الميل الاجتماعي ، وتكثر النوافل حتى تُنسى الفرائض . ويتسلل هذا التبديل هيّنا لا يفزع أحداً من رجال الدين ، ثم يكسبه مرور الزمن جلالا وقدسية دونهما جلال العقائد الأولى وقدسيتها . ثم تندمج آثار هذا التطور في العقائد والطقوس الدينية ، فيصبح مجرد التفكير في العودة إلى الأصول الأولى نوعا من المروق والخروج على الدين . وكم من بدع حدثت في الإسلام ، ثم ارتضاها رجال الدين ، وجعلوا أنفسهم حفظة عليها ، بحيث لو جاء أحد ينادي بترك بدعة من هذه البدع لنظر إليه القوم شذرا ، وقالوا إنه جاء يفسد عليهم دينهم !

فإبقاء القديم على قدمه ، ولو كان باطلا ، هو شعار هؤلاء الذين

http://www.al-maktabeh.com

ينصبون أنفسهم حماة للتقاليد ، ويفرضون على الآخرين آراءهم التى قد تبتعد قليلا أو كثيرا عن روح الدين . إنهم قلة ممن يظنون بأنفسهم أنهم قادة الفكر وحملة العلم ، وممن يرون ضرورة فرض أنفسهم على الناس، أرادوا أم لم يريدوا . فالاستبداد بالأرواح هدفهم ، والحجر على العقول غايتهم؛ يظنون أن العلوم الدينية والكونية قد ألقت إليهم مقاليدها .فلامطمح لباحث يحاول التجديد ، ولا سبيل إلى معرفة غير تلك التى يقررونها ، والتى يفخرون فى الوقت نفسه بأنهم ليسوا بأصحابها ؛ بل جاءتهم بالرواية عن هؤلاء العلماء السابقين المحققين المدققين الذين لم يتركوا لمن جاء بعدهم شيئاً يجتهدون فيه! فليس للعامة ـ ويعنون بها كل من ليس من طبقتهم ـ إلا أن تلتزم السمع والطاعة ،وليس لها أن تبحث عن الحق بنفسها ؛ بل ليس لها أن تتصل بربها إلا عن طريق الأوصياء من رجال الكهنوت أو أرباب الطرق الصوفية . وليس لأحد من العامة أن يعالج أمراً من أمور دنياه ، كعلاج مريض ، أو اختيار حرفة لابنه إلا إذا أجاز الشيخ رأيه .

وهذا نوع من الاستبداد شبيه بما عرفه أهل أوروبا المسيحية فى العصور الوسطى وما تلاها من القرون . فقد كان البابوات الحكام الحقيقيين فيها . وما كان لملك من ملوكها أن يجرؤ على عصيانهم ، وسلاح الطرد من حظيرة الكنيسة مرهف على عنقه وأعناق رعاياه . وما زلنا نسمع فى عصرنا الحاضر أن الكنيسة الكاثوليكية تستخدم هذا السلاح ضد رؤساء الدول التى لم يتحرر أهلها بعد من سلطان رجال الكهنوت .

ونحن لا نزعم أن لرجال الكهنوت فى الإسلام ما لقرنائهم فى المسيحية من السطو والبطش ، ولا ندعى أنهم بلغوا،أوسيبلغون، مبلغهم فى الاستبداد

مكتبة المهتدين الإسلامية

بالأرواح. ومع هذا نعترف أنهم لو استطاعوا أن يكونوا مثلهم لفعلوا ، ولو أنهم وجدوا فى الدين الإسلامى منفذاً كسم الخياط يلجون منه إلى تكفير الناس وطردهم من الدين لما قصروا فى اللحاق بإخوانهم من كهنة الملل الأخرى . لكنهم يفعلون مايستطيعون ، أى يستبدون على قدر طاقتهم ، وهم يستطيعون شيئاً كثيراً كلما خيمت سحب الجهل على أمة من الأمم الإسلامية ؛ إذ نراهم يخرجون من صمتهم وعزلتهم يسعون إلى المستبد أو يسعى هو إليهم ؛ لأن التعاون بين الفريقين كفيل بالسيطرة الشاملة على الأرواح والأجساد . وقد لا ندرى أى الفريقين أكثر حاجة إلى عون صاحبه ؛ غير أننا نعلم أنه لا بقاء لأحدهما دون الآخر .

وربما كان استبداد رجال الكهنوت أشد خطراً وأعمق أثراً ؛ لأن الآراء والمعتقدات الدينية أشد تحريكا للنفوس أو أكثر فتكا بحيويتها . كذلك نعلم أن رجال الدين يجدون فى هذا التحالف خيراً عميما ورزقا واسعاً ؛ فإن الحاكم يعترف لهم بأنهم قوامون على الدين وحفظة تقاليده ، مع علمه وعلمهم أيضاً ، أن هذا الدين براء منهم ؛ لأنه لا يعترف بمثل مكانتهم لنفر من الجبناء الذين ينصرون الظلم ، وينافقون الملوك ، ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، ولا يشبهون فى شىء أهل الحل والعقد من أفاضل المسلمين وأئمتهم فى أيام العزة الإسلامية الحقيقية . لكن ماذا عليهم لو خدعوا أنفسهم ، وخدعوا العامة معهم ، وادعوا مكانة ليست لهم ؟ أليست تلك هى السبيل إلى الاتجار بالدين ، والتظاهر بالتقوى والتقشف والزهد ؟ أوليس ذلك هو الطريق إلى نصب حبائل التصوف والشعوذة للسطو على ما فى أيدى الجهلة والسذج باسم النذور والأوقاف لأضرحة

http://www.al-maktabeh.com

الأولياء ، ولملء البطون والجيوب تحت ستار العمل لرفع شأن الدين .

ومن قبل فضح أبو العلاء أمثال هؤلاء الأدعياء فقال :

ويعجبني دأبُ الذين ترهّبوا ... سوى أكلِهم كدَّ النفوس الشحائح

وأطيب منهم مطعماً في حياته ... سعاةُ حلالٍ بين غادٍ ورائح

فما حَبَسَ النفسَ المسيحُ تعبداً ... ولكن مشى في الأرض مشية سائح

أما الملوك فهم في حاجة إلى من يبرر استبدادهم وبطشهم ، وإلى من يدخل في أذهان العامة أن لها ملوكا يكادون يشاركون الله سبحانه في صفاته وأفعاله : فهم لا يُسألون عما يفعلون ، ولا يخضعون لقانون ، ولا توصف أعمالهم بأنها عدل أو جور ؛ بل هي العدل كله ولو كانت ظلماً مبيناً ، ولهم حق الحياة والموت في رعاياهم ، وهم أولياء النعم ، مع أنهم لا يفتأون يأكلون أموال الناس بالباطل ، وهم أصحاب الجلالة والإكرام . . . وغير ذلك من الأوصاف التي لا يوصف بها إلا الله وحده . وليس هناك قط من يفضل رجال الكهنوت في خلع هذه الصفات على ملوكهم . وهل من المعقول أن يجد هؤلاء حليفاً لهم أفضل من هؤلاء الذين يدفعونهم إلى الاستبداد بالناس باسم الدين ؟

يدعون في جُمَعاتهم بسفاهة ... لأميرهم فيكاد يبكي المنبر

وقد أدى التحالف بين الملوك ورجال الدين ، في بعض البلاد الإسلامية ، إلى نتائج عجيبة ، وربما كان أكثرها غرابة أن ظهرت ارستقراطية من نوع جديد ، ونعني بها ارستقراطية رجال الكهنوت التي يغدق عليها المستبد العطايا ويخلع عليها الألقاب العلمية ، ويرفع من رواتبها ، ويطلق يدها في أوقاف

مكتبة المهتدين الإسلامية

المسلمين لتديرها كيفما تشاء ، أو تستعين بها على تنمية ثروتها الخاصة ، وعلى اصطناع الأتباع الذين قد تختلف رواتبهم ودرجاتهم ؛ لكن لا تختلف غايتهم من الركون إلى البطالة ، والاستعانة بالدروشة والشعوذة فى السيطرة على قلوب العامة وأرزاقها . غير أن طبيعة الدين الإسلامى ما كانت لتتفق مع ازدهار هذه الارستقراطية المزعومة التى تنسب نفسها ظلما إلى دين جاء يمحق الاستبداد أيا كان نوعه ، ويزيل الوسائط أو العوائق بين العبد وربه . هذا إلى أن بقية من الأخلاق الإسلامية كانت تدفع بعض المجتهدين ، بين عصر وآخر ، إلى كشف الستار عن أباطيل وأوهام هؤلاء الأدعياء الذين لا يمتد سلطانهم ، ولا يعم شرهم، إلا فى عصور الاستبداد والتدهور العقلى .

ب — اتحاد الوسائل :

كذلك يتحد الملوك ورجال الكهنوت فى الاستعانة بالوسائل التى تكفل لهم استمرار السيطرة على الأرواح والأجساد . وأهم هذه الوسائل محاربة العلم الجدير بهذا الاسم ، وهو العلم الذى يحرر العبيد ، ويدفعهم إلى المطالبة بحقوقهم السياسية والاجتماعية التى نالتها الشعوب المتحضرة والمتحررة . وأما العلم الذى يحتكره رجال الدين ، ويظنون أنهم حفظته والقوامون عليه، فإنه علم قد مسخوه،وأخرجوه عن أصوله، حتى كادت تختفى معالمه،وكاد ينكره بعض أهله :

أَجهل بساداتهم وإن زعموا — أنهمُ فى علومهم رسخوا
قد نُسِخَ الشرع فى عصورهمُ — فليتهم مثل شرعهم نسخوا (١)

(١) من لزوميات أبي العلاء .

http://www.al-maktabeh.com

إنهم يجردون العلوم الدينية من روحها ، ثم يجعلونها مطية للاستبداد ، ووسيلة إلى الحجر على العقول ، مع أن الحرية هى روح الدين الذى ينسبون أنفسهم إليه . إنهم يريدون علماً يشغل الإنسان عن حاضره ، ويصرفه عن التفكير فى سوء ما انتهى إليه ، ويعزيه عن حاله الحاضرة الخاسرة بحياة مستقبلة تعوضه خيراً عما ليس لأحد قدرة على احتماله فى هذه الحياة . وهم يريدون علماً يلهى الناس عن ملوكهم ، أو يدعوهم إلى الرضا بظلمهم ، وإلى اعتقاد أن ما ينزل بهم من الأهوال والنوائب إنما هو خير لهم ؛ لأنه بقضاء الله وقدره :

كذب يقال على المنابر دائما   أفلا يميد لما يقال المنبر ؟

وهم يريدون ، فى جملة القول ، أن يضحى الآخرون بدنياهم من أجل آخرتهم ، لكنهم يحرصون على ألا يعملوا بالنصح الذى يسدونه إلى غيرهم ، ويفضلون أن ينعموا بهذه الحياة أولا ، وعلى حساب الآخرين بصفة خاصة .

إنهم يخشون أن تفلت الفريسة من أيديهم ، ويسوؤهم ألا تظل العامة على جهلها وهوانها . فإن فى هذا الجهل والهوان ضماناً أكيداً باستمرار نعيمهم وبقاء تحالفهم مع ذوى الأمر . إذن فكل وسيلة فى محاربة العلم الحقيقى مشروعة بحجة الدفاع عن النفس . ولا يعدم الحليفان أن يجدا من الوسائل ما يقف زحف المعرفة ، التى تزعم أنها جاءت تحرر الأسرى وتفك الأغلال ! فمن الممكن أن تسن القوانين التى تحول دون ظهور طبقة متوسطة تتجه إلى تعليم أبنائها علماً يكفل لهم حياة أفضل من حياة آبائهم ، ومن الممكن أن توصد أبواب الرزق أمام العلماء الحقيقيين الذين ينادون بالإصلاح ؛ بل من المستطاع أن يضطهد هؤلاء وأن يلقى بهم فى أعماق السجون ، أو ينفوا من الأرض ،

مكتبة المهتدين الإسلامية

أو تسفك دماؤهم ، إذا تبين ألا سبيل إلى رجوعهم عما هم فيه من إثارة النفوس بالدعوة إلى الإصلاح والحرية .

أما رجال الكهنوت الرسميون ، الذين يحسبون أن كل معرفة لا تأتى عن سبيلهم لا بد أن تكون على خلاف مع التقاليد والدين ، فيرون فى فكرة الإصلاح الاجتماعى والسياسى خطراً يهدد كيانهم ؛ إذ أن كل خطوة يخطوها المجتمع نحو الحرية تدنو بهم من الهزيمة . ولذلك لا يتردد بعض هؤلاء ممن لا خلاق له فى الحكم بمروق المصلحين ، وقد يكون هؤلاء أفضل منهم منزلة عند الله والناس ؛ بل كثيراً ما يحاربون أهل الفضل والعلم باسم الدين ، ويقفون فى طريق تحرير الشعوب بما ينفثونه فى قلوب الأمراء من أن إشراك الأمة فى تدبير أمرها مضاد لما جرت به تقاليد الأمة الإسلامية من انفراد الملوك بالسلطان ؛ حتى دخل فى روع هؤلاء أن الدين لا يتفق مع بعض النظم السياسية الحديثة التى تطالب بها شعوبهم للنهوض من كبوتها ، وأن الخير كله فى أن ينفردوا بالحكم ، حفظاً للأمة من أن تنزلق إلى الثورات والفتن الداخلية .

وفى دولة الجهل والاستبداد ترجح كفة العلماء الأدعياء ؛ لأنهم أقل الناس حياء ، ولأن العلماء الحقيقيين لا يرون فى النفاق أو التملق سبيلا إلى فرض أنفسهم أو علمهم ؛ بل يؤثرون أن يظلوا فى غمار الناس ، بدلا من أن ينافسوا من يزعمون العلم لأنفسهم حتى يتقربوا به إلى ملوكهم الطغاة :

وخفَّ بالجهل أقوامٌ فبلَّغهم　　منازلاً ببناء العزِّ تلتفع
أمَا رأيت جبال الأرض لازمة　　قرارَها وغبارُ الأرض يرتفع؟

http://www.al-maktabeh.com

حـ ـ نهاية التحالف :

وعلى الرغم من وقوف رجال الدين الرسميين فى طريق الإصلاح ومعاضدتهم للمستبدين ، فمن الحق أن يقال إن المسلمين سيبقون بخير ما داموا على ذِكْر من أصول دينهم التى توجب عليهم الاتجاه إلى الخالق وحده ، دون حاجة إلى وساطة فريق منهم . ولذلك لم تخل بلاد المسلمين من علماء دينيين يتبعون الحق ، ويأبون الاستكانة للملوك . وهؤلاء هم الأحرار الذين يحملون المشاعل أمام هذه الأمم المنكوبة بملوكها وعلمائها الأدعياء ، وهم الذين إن كتب لهم النصر عاد المسلمون إلى عزتهم ، وتحرروا من أوهام المشعوذين وطغيان المستبدين . ووجود هؤلاء العلماء الحقيقيين صمام أمن للعقيدة الإسلامية التى لم تخمد جذوتها ، والتى توجد على صفائها فى بعض النفوس ، رغم ما لحقها من مسخ وتشويه فى نفوس الآخرين . ولذلك نجد أن تحالف الملوك ورجال الكهنوت ، وإن أضر كثيراً ، إلا أنه لم يقض تماماً على كل أمل ، وأن دعوة صادقة إلى الإصلاح كفيلة بأن ترفع نير الذل عن رقاب الناس ، وأن تحررهم من الطغاة ومن المدعين للعلم .

وهذا هو السبب أيضاً فى أننا إذا استثنينا الفترة التى استفحل فيها أمر فرقة الباطنية وجدنا أن الإسلام لا يعرف الجمعيات السرية التى تحاول تغيير الأوضاع باتباع أية وسيلة ، ولو كانت الغدر والاغتيال ؛ لأن من حق كل مسلم أن يقول ما يعتقد خيرا ، وعنده من الآيات والنصوص التى تدعو إلى العدل والإحسان والرفق والرحمة بالرعايا ما لا يستطيع رجال الكهنوت أن يخرجوها عن معانيها ، أو أن يؤاخذوه على الاستشهاد بها ، وإلا أثاروا الناس كافة عليهم . ونقول بعبارة أخرى إن تحالف الملوك ورجال الدين

مكتبة المهتدين الإسلامية

على ظلم الأمة لا يجد له سنداً من قرآن ولا سنة ، فهو يقوم على غير أساس، وهو أقل خطراً من التحالف بين هذين الفريقين فى بعض الأمم الأخرى .

فالتحالف بين المسيحية والملكية أشد قوة وأعمق أثراً بكثير من التحالف بين الملكية والعلماء الأدعياء عندنا . وفى حين أن النصوص الإسلامية الصريحة التى لا يمكن إخراجها عن مواضعها تقرر أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق نجد أن أقوال كبار الرسل لدى المسيحيين تنص على ضرورة الخضوع للحاكم : فمثلا يقول الرسول بولس للرومانيين : « لتخضع كل نفس للسلاطين العالية، فإنه لا سلطان إلا من الله ، والسلاطين الكائنة إنما رتبها الله فمن يقاوم السلطان يعاند ترتيب الله . » وقد ظن الناس فى أوروبا ، حتى قبيل الثورة الفرنسية ، أن ملوكهم ظل الله على الأرض ، وأنهم نواب سلطته ، وكانوا إذا وجدوا فيهم خللا أو نقصاً رضوا به خوفا من شر أعظم يحل بهم إذا خلعوا نير طاعتهم ، وذلك كله بفضل رجال الكهنوت عندهم .

وقد أثار تحالف الملوك ورجال الكهنوت نفوس الأحرار من الأوروبيين ، فاتفق هؤلاء على أن ينازلوا هذا العدو المشترك ليجهزوا عليه . غير أن القوة لما كانت فى جانب هذا الخصم الرهيب أجمع الأحرار أمرهم على أن يعملوا سراً ، وأن يهيئوا العقول شيئاً فشيئاً للثورة على الاستبداد والمستبدين . فنشأت الجمعيات السرية التى ما زالت تنمو شيئاً فشيئاً ، حتى استطاعت أن تدفع الجماهير إلى الثورات التاريخية الكبرى . ومن أشهر هذه الجمعيات جماعة البنائين الأحرار أو الماسونية . ولم تكن هذه الجماعة حديثة العهد ؛ بل ترجع إلى أصول بعيدة ليس من هدفنا أن نتتبعها فى مختلف

http://www.al-maktabeh.com

المراحل التاريخية . وقد نجحت هذه الجماعة فى الاستكثار من الأتباع فى البلاد المسيحية ؛ لكنها لم تصب نجاحاً كبيراً فى بلاد المسلمين ، ذلك أن الإسلام لا يعترف بالكهنوت ، ولا يشتد ساعد هؤلاء إلا فى عصور الجهل كما قلنا .

وإن من يطلع على ما كتبه أعداء الماسونية وأنصارها ليفجأه اتفاق الفريقين على أن هذه الجماعة تهدف إلى القضاء على كل من الملكية والكاثوليكية ، وأنها إذا أفسحت صدرها لبعض الملوك ورجال الدين فذلك لأنها تحرص على إرضاء غرورهم بالاشتراك فى طقوسها واجتماعاتها ، دون أن تكشف لهم النقاب عن أسرارها التى لا يطلع عليها المنتسب إلى الماسونية إلا فى الدرجات الأخيرة منها .

ونحن لا ندعى الإحاطة بكل شىء عن هذه الجماعة . حقاً قرأنا كثيراً مما كتب عنها ، وربما كانت المبادىء الإنسانية التى تنادى بها تخفى وراءها شيئاً لا يعرفه إلا الماسون أنفسهم ، ممن بلغوا أرفع الدرجات فى طائفتهم . غير أن من يقف عند ظاهر عباراتهم ومبادئهم يجب عليه أن يعترف بأنهم يمجدون العقل، ويعملون على تحرير النفوس من طغيان الملوك ورجال الدين.

ويكفى أن يقرأ المرء الأقسام التى يحلفها الماسونى عند التحاقه بهذه الجماعة ، أو عند انتقاله فى مراتبها ، وبخاصة المراتب الأخيرة — أى من المرتبة الثلاثين إلى المرتبة الثالثة والثلاثين — ليعلم إلى أى حد تهيمن عليهم روح العداء للاستبداد الملكى والكهنوتى . فمن ذلك قسم الدرجة الثلاثين ، وفيه يتعهد من يرتقى إلى هذه المرتبة أن يدوس بقدميه التاج الملكى ، لا على أنه رمز لنوع خاص من الحكومات ، أو لنوع من أنواع استغلال السلطة ؛

مكتبة المهتدين الإسلامية

لكن على أنه شعار للاستبداد أياً كان نوعه ومظهره ؛ وأن يطأ بقدميه تاج البابا ، لا على أنه رمز لعقيدة أو لدين أو لهيئة كهنوتية ، ولكن على أنه شعار للطموح والتجبر والشعوذة التي تخضع الرقاب لنيرها عن طريق القسوة ، وتقضي على الذكاء عن سبيل الأوهام والأباطيل التي تترعرع في ظلال الجهل ، والتي تعد حليفاً مخلصاً للطغيان . كذلك يصرح الماسوني أكثر من هذا بأنه عدو لاستبداد الحاكمين والقسس الذين يقضون على حرية الإنسان ، وحرية الفكر ، وحرية الضمير ؛ ويعلن أنه يكره الظلم ، ويحترم الحرية المطلقة للضمير احتراما غير مشروط بشرط ، وحرية الفكر ، وحرية الكلام ، وأنه يبغض التعصب والنفاق والزهو واستغلال رجال الكهنوت ؛ وأنه يحتقر الشعوذة وخرافات المتنبئين والكهنة والديماجوجيين .

وفي الدرجتين الأخيرتين يغلظ الماسوني الايمان على أنه سيحارب الملكية والكاثوليكية حتى الموت ، وأنه لا يؤمن إلا بإله واحد حي هو المهندس الأكبر للكون . ومما يدل صراحة على أن العدو الأول للماسونية هو الملكية الاستبدادية والكاثوليكية أن « ديدرو » ، أحد رجال دائرة المعارف الفرنسية قبيل الثورة ، لخص شعار الماسونية بهذه العبارة ، وهي : « ينبغي أن يشنق آخر الملوك بمصران آخر الكهنة . » (١) ومن المؤكد أن الماسونية لا تؤمن بالتثليث ؛ بل إنها تذهب في بعض طقوسها إلى تدنيس بعض العقائد المسيحية فتأمر أعضاءها بأن يدوسوا الصليب بأقدامهم عند انتقالهم إلى إحدى درجاتها ، كما أنها تمسخ بعض طقوسها : مثال ذلك أنها تقيم ما يشبه العشاء الرباني لدى المسيحيين ، فتقدم لأعضائها حملاً قد ثبتت أطرافه ورأسه بالمسامير ؛ وعند

(١) الأب لويس شيخو في كتابه « السر المصون في شيعة الفرمسون »

http://www.al-maktabeh.com

البدء فى أكله تُرمى هذه الأجزاء على أنها مدنسة. (١) وهذا وغيره يفسر لنا العداء الشديد بينهم وبين رجال الكنيسة . وقد نجح الماسون فى كثير من البلاد الأوروبية ، واستولوا على مقاليد الحكم ، ونفذوا مبادئهم ، وبخاصة فى فرنسا، ابتداء من الثورة الفرنسية حتى العصر الراهن . ومن أهم مظاهر غلبتهم أنهم فصلوا الكنيسة عن الدولة ، وجعلوا التعليم الحكومى علمانيا ، أى مدنيا بحتاً .

أما ما يرميهم به أعداؤهم من الإلحاد أو عبادة الشيطان بدلا من الخالق، فليس لدينا ما يدعو إلى تأكيده أو نفيه . ومن الممكن أن توجد محافل ماسونية ملحدة وأخرى مؤمنة . غير أننا رأينا أعداء الماسونية من رجال الكهنوت يعترفون بأن خصومهم يقولون بوجود سبب أول منظم للكون ، وإن اختلفوا فى تحديد هذه العلة الأولى التى يصفونها ، على كل حال ، بأنها ليست ذلك الإله المستبد الذى يُكره كهنة الكاثوليك أتباعهم من الجهلة على الإيمان به . وإذا كنا قد أبحنا لأنفسنا أن نستطرد قليلا فى الكلام عن موقف الماسونية من الدين ، ومن المسيحية بصفة خاصة ؛ فذلك لنبين ، فى طريقنا ، أن انضمام أمثال جمال الدين ومحمد عبده إلى هذه الجماعة فى فترة من حياتهما ، كان انضماما صوريا، بدليل خروج الأول والثانى عليها . حقا ذهب جمال الدين إلى أن التفرقة بين الأديان إنما ترجع إلى موقف رجال الكهنوت فى مختلف الملل ؛ إذ لم يحرص هؤلاء على بقاء الخلاف بين أتباعهم ، وبينهم هم أنفسهم، إلا لكى يحتفظوا بمكانتهم، ويتجروا بالدين لتحقيق مصالحهم . ومع ذلك فإنه يؤكد دائما أن الدين ضرورى لكل مجتمع ، سواء كان هذا الدين إسلامياً

(١) أخذنا هذا المثال من كتاب « ليوتاسكيل » عن الماسونية .

مكتبة المهتدين الإسلامية

أم مسيحياً أم يهودياً أم ديناً غير موحى به .[١] أما محمد عبده فقد انضم إلى الماسونية، لأنه كان يظن أنه ربما يستطيع بذلك خدمة الإسلام والمسلمين . غير أنه لما عاد من منفاه لم يذهب إلى المحافل الماسونية ولا مرة واحدة .[٢]

٣ ــ مسئولية رجال الدين

١ ــ جبناء أو مراءون :

لقد رسخت قدم الاستبداد فى الشرق ، وألفه الناس حتى نسوا معنى الحرية ، وأصبحوا يرون أن الطغيان السياسى هو النظام الطبيعى الذى يجب التسليم به والرضوخ له ؛ بل السعى إليه إذا اتفق أن ولى أمر المسلمين كان حاكما عادلا رحيما . وسرت عدوى اليأس إلى ذوى الفكر والرأى فرضوا لأنفسهم مكانة لا تختلف عن مكانة العامة ؛ إذ ثبطت الهمم ، وزهد الناس فى العلم ، وخلا الجو لنفر من المتملقين الذين يجيدون التكيف دائماً بمثل هذه البيئة الاجتماعية المعتلة ، ويعلمون من أين يكتسب الجاه ، وكيف تقتنى الثروة من غير جهد أو عناء ، وبأية وسيلة يدنو المرء إلى مجالس الملوك . أما علومهم الدينية فلا يعرفون عنها شيئاً ذا قيمة ، لأنهم انصرفوا عن فهمها حق الفهم ، ولو أنهم فطنوا إلى روحها لسلكوا مسلكا غير الذى ارتضوه لأنفسهم . غير أن ذلك لا يمنعهم أن يكونوا غاية فى الصرامة إذا طلب إليهم إصدار حكمهم فى أحد أفراد الرعية ، ولا سيما إذا كان ممن لا يرتضى مسلكهم فى التقرب أو الخضوع للمستبد؛ وكأن هؤلاء هم الذين قال فيهم أبو العلاء :

---

(١) أنظر فى هذه المسألة كتابنا عن جمال الدين الأفغانى : صفحة ١٣٠ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر من صفحة ٤٠ إلى ٤٣ .

http://www.al-maktabeh.com

نادت على الدين فى الآفاق طائفة   يا قومُ من يشترى ديناً بدينار
جنوا كبائر آثام وقد زعموا   أن الصغائر تجنى الخلدَ فى النار

فإذا دنوا من مجالس الملوك ، اصطنعوا المداجاة والنفاق ؛ وأخذوا يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، وتسابقوا إلى الحاكم المستبد يسبحون بحمده ، ويظهرون له ولاءهم ويعلنون عن استعدادهم للسير فى ركابه . فكان من الطبيعى أن تتسع أرزاقهم ، ويمتد نفوذهم لقاء نصيحة السوء يزجونها فى غير تكلف لولى أمرهم السادر فى غيه .

أما الآخرون ممن منعهم الحياء من بيع أرواحهم للشياطين فقد قعد بهم الجبن والخوف عن الاشتراك فى الحياة العامة للتخفيف من وطأة الظلم التى يشعر بها المستضعفون فى الأرض . لقد شهدوا كيف ترتفع قواعد الظلم والعسف ، وتنتصر دولة الباطل فلم تطاوعهم ألسنتهم على الدعوة إلى الحق والعدل . إنهم يرهبون بطش الحاكم ، ويخشون نزق وسفه الأدعياء ممن ينتسبون إلى طبقتهم ، فيؤثرون الصمت وهو نوع من الرضا ؛ ويحتجون على الإثم والعدوان بقلوبهم وهو أضعف الإيمان ؛ ويرغبون عن النصح وإسدائه لأنهم موقنون أنه سيذهب أدراج الرياح ، ولأنهم يعلمون أو يحسبون أن الناس فقدوا ثقتهم بكل ناصح وداع إلى الحق لكثرة ما سمعوا وخُدعوا ، وغررّ بهم باسم الدين ، حتى اشتبه الأمر عليهم ، وعسرت عليهم التفرقة بين أنصار الحق ودعاة الباطل ، فرضوا آخر الأمر أن يصموا آذانهم عن سماع النصح أياً كان مصدره .

فكيف لذوى الحل والعقد من المسلمين الذين تتقطع أنفسهم حسرات على ما انحدر إليه أبناء ملتهم أن يتطوعوا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟

مكتبة المهتدين الإسلامية

إنهم يرون المنافقين المداجين هم السابقون الأولون ، وهم الأخيار المقربون ؛ فيملأ عليهم الجبن أنفسهم ، ولا يخطر لهم خاطر أن يكشفوا عن ادعاء هؤلاء المهرجين حتى يعلم الخاصة والكافة نفاقهم واتجارهم بالدين . ولو جال بخيال أحد منهم أن يهب لمقاومة هؤلاء العلماء المتملقين لما لبث هذا الخيال فى خاطره لحظتين : إنه يظن أنه من الحمق والطيش أن يقف وحيداً فى طريق الباطل ، وأن يدعو إلى الهدى فى أمة من الضالين ؛ إنه لو فعل لأصبح هدفا لكل سهم يأتيه من حيث يدرى ومن حيث لا يدرى ، وضحيةً تقدم على مذبح مطامع ذوى الحظوة لدى الحاكم المستبد ؛ إنه يحسب أنه لو قام يدعو إلى الحق لمرّ به الناس غير حافلين ؛ بل ربما وجدوا أن ما قد ينزل به من أشد النوازل والمصائب جزاء عادل لتهوره وتهجمه على مقام مَن يجب أن تحنى له الجباه حتى تقبل الرغام .

ثم قد لا يعدم ذو الضمير الحى من يسخر منه لضيق عقله ، وفساد بصيرته ؛ إذ كيف لعاقل يعيش فى دولة البغى والملق أن يجاهر برأيه الحر ، وأن يطلب الإصلاح بعد أن أنسدت مسالكه ، وانقطعت وسائله ؟ أما كان أولى به ، لو كان عاقلا أن يرتضى لنفسه ما ارتضى رفاقه لأنفسهم ، وألا يجرؤ على نصح من لا يجدى النصح فيه ؟ أو لم يكن من حسن السياسة ألا يلقى بنفسه إلى التهلكة ، وقد كان الطريق أمامه معبداً نحو ما ينعم به أقرانه ممن عرفوا كيف تكتسب ثقة المستبد ، وكيف تُنتزع لقمة العيش من أفواه الجائعين ! لقد كان له أن يتبع سبيلا سهلا مُعَبّدا ، فآثر أن يسلك طريقا وعرا تكتنفه الصعاب من كل جانب ، وتغشاه ظلمات بعضها فوق بعض ؟ أو لم يكن من الخير له

http://www.al-maktabeh.com

أن يخذل الحق ، وأن يسلك سبل الباطل ، وأن يدع نصح الملوك جانبا ، وأن يتملقهم وينال أجره على ذلك ؟

تلك هي الهواجس التي تعتمل في نفس العالم الجبان الذي يأبى النفاق ويكره الظلم ، ويشعر بالرحمة للبؤساء من بني ملته . ولكنها هواجس تمر بالخاطر وتسنح للخيال ، ثم تنقشع ويرضى صاحبها بأن يدع العلم لهؤلاء الحذاق من المتعممين الذين كتبت لهم الحياة الطيبة في كثير من البلاد الإسلامية عندما ارتضوا أن يتحالفوا مع المستبد ، وأن يتخذوه وليا لنعمتهم يمنحهم المال بيد ، والدرجات العلمية بيد أخرى، ولا يطلب إليهم شيئا إلا أن يخالفوا ضمائرهم ، إذا اتفق أن تردد فيها صدى من أصداء الحق ، وإلا أن يكونوا له أبواقا تمجد أعماله وتحبب إلى الرعية الرضا بنقائصه .

وهل لمن يدعى العلم مطمح أسمى من هذا المطمح : علم ومال بغير عناء ؟ لقد ساهم رجال الدين من الأتراك بمثل هذه الوسائل في تحطيم أركان الخلافة الإسلامية ، وساعدهم على ذلك أنهم وجدوا في أحلك عصور الاستبداد ، وعرفوا كيف ينالون مكانتهم في قلوب السلاطين بملقهم ووسواسهم . وكانت نتائج هذا المسلك هو ما نراه من تفكك الدولة الإسلامية وسقوط كثير من أجزائها في قبضة دول الاستعمار . كل ذلك لأن رجال الكهنوت كانوا لا يعنون بمستقبل المسلمين عشر معشار ما يعنون بأنفسهم . إنهم يفضلون أن تتمزق الأمبراطورية العثمانية بسبب ضعفها واستبداد خلفائها وجبن أو نفاق علمائها ، بدلا من أن يفقدوا ما اكتسبوه من سلطان ونفوذ .

لقد كان شيخ الإسلام هناك يحرض السلطان عبد الحميد في أواخر القرن الماضي على عدم الاستماع إلى دعاة الحرية ، والمنادين بإدخال النظام النيابي ،

مكتبة المهتدين الإسلامية

وكان يحضه على الوقوف موقف الحازم من هؤلاء المتمردين ، بحجة أن هذا النظام الذى يطلبونه لا يصلح للمسلمين الذين لايستقيم لهم ملك إلا إذا كان على رأسهم مستبد عادل ، مع الاستبداد والعدل لا يجتمعان مطلقاً . كذلك كان ينظر بعين الرضا إلى جيوش الجواسيس التى أحاط بها السلطان نفسه ، ويطرب عندما يعمل هذا الأخير سيف الغدر فى رقاب الأحرار ؛ ذلك لأن شيخ الإسلام هناك كان يود البقاء دائماً بجوار عبد الحميد يفسر له أحلامه ، ويشير عليه بالأساليب التى يجب أن تتخذ لإنقاذ الدولة المشرفة على الفناء ؛ كل ذلك لأنه كان يرى فى مجىء الحرية نذيراً بالقضاء على منزلته لدى سلطان تركيا . (١)

ومن قبل، أى منذ قرنين من الزمان، لم يجد علماء الدين فى تركيا غضاضة فى أن يعفوا أنفسهم من مهمة تقويم الملوك ودعوة الناس إلى سبيل الرشاد ؛ بل نجحوا فى أن يضعوا مقاديرهم فى يد السلطان ؛ لأن ذلك كان خيراً فى ظنهم من أن يؤدوا للدين أمانته . وقد اتخذوا لأنفسهم — كما يذكر لنا عبد الرحمن الكواكبى — قانوناً سموه طريق العلماء ، وهو القانون الذى يجعل الدرجة العلمية منحة ينالها من ليس لها أهلا ؛ بل قد ينالها الجهلة والأطفال والأميون . « فإنه يكون طفلا فى المهد وينعت، فى منشوره الرسمى من قِبَل حضرة السلطان ، بأنه أعلم العلماء المحققين ، ثم يكون فطيما فيخاطب بأنه أفضل الفضلاء المدققين ، ثم يصير مراهقاً فيعطى المولوية ويشهد له بأنه أقضى قضاة المسلمين، معدن الفضل واليقين ، رافع أعلام الشريعة والدين، وارث علوم الأنبياء والمرسلين ، ثم وثم حتى يصعد ، فيوصف بأعلم العلماء

(١) أنظر كتابنا : جمال الدين الأفغانى صفحة ٨١ ، ٨٢ .

http://www.al-maktabeh.com

المتبحرين وأفضل الفضلاء المتورعين ، ينبوع الفضل واليقين ، إلى آخر ما فى تلك المناشير من الكذب المشين . »

فإذا ربع هؤلاء الجهال على عروش العلم ردّوا إلى السلطان أكثر مما خلعه عليهم ، فوصفوه بأنه « المولى المقدس ذو القدرة ، صاحب العظمة والجلال ، المنزه عن النظير والمثال ، واهب الحياة ، ظل الله ، خليفة رسول الله ، مهبط الإلهامات ، مصدر الكرامات ، سلطان السلاطين ، مالك رقاب العالمين ، ولى نعمة الثقلين ، ملجأ أهل الخافقين إلى غير ذلك من مصارع الشرك والكبرياء والمهالك . »

وعلى هذا النحو يتبادل الحليفان العون ، وتضيع مصالح العباد وتركد ريح الدين وسط مظاهر النفاق والملق . « ثم إن هؤلاء المتعممين ما كفاهم هذا القانون ، فألحقوه بقانون آخر سموه : « توجيه الجهات » ، جعلوا فيه التدريس والإرشاد والوعظ والخطابة والإمامة وسائر الخدم الدينية ، كالعروض تباع وتشترى ، وتوهب وتورث ، وما ينحل منها نادراً عن غير وارث يبيعها القضاة لمن يريدون ويتكرمون بها على المتملقين. وبهذا القانون انحصرت الخدم الدينية فى الجهلاء والمنافقين . »[1]

فبفضل العلماء الجبناء والأدعياء المنافقين ، مُسخ الدين فى نفوس أهله ، وضاع العامة بين ملوكهم وعلمائهم ، وخسر الناس دينهم ودنياهم ، إلا نفراً قليلا ضحوا بآخرتهم من أجل عاجلتهم . وبمثل هذا الخسران تتدهور الأمم ، وترسف فى قيود الذل ، وتتطلع بآمالها فلا تجد منفذاً لإصلاح ، فتنقلب

---

(١) أم القرى ص ٤٠ ، ٤١ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

إلى الوراء لترى مُلكاً زائلا ومجداً ضائعاً ، فلا تجد سلوى عن مصابها سوى البكاء على ما لا سبيل إلى رده ، لا بالأنين ولا بالنحيب ، ثم تتوالى البطون وتتتابع الأجيال ، فيستفحل الداء ، ويعظم الفساد ، وينقطع الأمل ، ويتعذر العلاج ، ولكن يستمر البكاء حيناً من الدهر ثم تجف الدموع ، وقد نسى الباكى سبب بكائه ، ورضى بما رماه به القضاء والقدر فلا يحزن لما يحل به من مصاب لكثرة ما أصيب . وساعد جبن العلماء على فتور الهمم ففسد العلم ، وقل أهله ، وسيطر الجهل غير منازع ، وأصبح الناس يعتقدون أن الاهتمام بالأمور العامة نوع من الفضول والتطفل . فغدا كل فرد من أفراد الأمة لا يشغله شاغل سوى نفسه وحفظ حياته ليومه ، لا يعنيه فى قليل أو كثير أن تضل هذه الأمة أو تهتدى .

ب — محاربة الإصلاح :

وإذا كتبت الغلبة فى الأمة لجماعة المنافقين من العلماء ومن يتبعهم من السذج والجهلة — وكثيراً ما جرت الأمور على هذا النحو — حورب الإصلاح ، وانقطع الأمل فى التجديد والتحرر من قيود الجمود والتقليد . وقد شهدنا كيف حارب الناس طائفة المعتزلة ورموها بالكفر . وقد سمعنا كيف ضاق الأزهر فى القرن الماضى بآراء جمال الدين ورماه بالإلحاد ، وكيف هاجت نفوس أهله عندما جاء محمد عبده ينادى بضرورة التجديد فى دراسة العلوم الإسلامية ووجوب العناية بالعلوم النظرية والعملية التى كانت سبباً فى تقدم الغرب .

وليست محاربة الإصلاح فى مثل هذه الحال أو تلك بالأمر العسير ؛

http://www.al-maktabeh.com

إذ يكفى أن ينطق أحد المتعممين أن الجغرافيا والرياضة والطبيعة والفلسفة علوم كفر وزندقة ، وأن يقرر أن الداعين إلى دراستها من المارقين والخوارج ، حتى يهرع المستبد إلى نجدته ، وتهب العامة لندائه ، وتدق طبول الحرب ، فتخترع التهم ، وتكال الشتائم ، وتبتكر ألوان جديدة من السباب وتقوم دنيا الجهل وتقعد ، ولا تهدأ ثائرة القوم ، إلا إذا ركدت ريح الإصلاح . وعندئذ ينقلب كلٌّ إلى أهله فرحاً مسروراً ، يزهو بما فعل : ألم يقف فى وجه الإلحاد ؟ أو لم يساهم قدر طاقته فى القضاء على شرذمة الخونة المتفرنجين الذين أرادوا تغيير الأوضاع ومسخ الدين ، وفتح باب الزيغ والبدعة ؟

وما الدين عند هؤلاء إلا الرضا بالمصائب والصبر على المكاره ، والسير الذليل على آثار السابقين المدققين المحققين من العلماء الذين أفنوا عصارة عقولهم فى وضع أسس العلم النهائى الذى لا علم بعده ، ويريدون بهم هؤلاء الذين ألّفوا كتبهم فى العقائد والنحو والتفسير ؛ وبخاصة من ألف منهم فى عصور التدهور والجهل كتبا تبدو فى أعين علماء العصور الأخيرة كما لو كانت أسمى ما أنتجه العقل البشرى ، مع ما تمتلىء به من مشاكل مزعومة وحلول واهية وما تفيض به من الخرافات والإسرائيليات التى تحجب الحقائق البديهية التى جاء بها الكتاب والسنة . (١)

ولو نبغ من بين هؤلاء العلماء المقلدين رجل أبى أن ينكر عقله وأن يردد ما قاله السابقون ، فرأى أن العلماء يجتهدون فى ضلال ، وأنهم يفنون العمر فى دراسة علوم قد تحجرت وذهبت روحها فلم تبق فيها إلا عبارات معقدة ، وصيغ مكررة ـ نقول لو فطن أحدهم إلى ضرورة مسايرة الزمن والاقتباس من العلوم الحديثة ، والعودة إلى المنابع الإسلامية الأولى ،

(١) بيننا فى مقدمتنا لكتاب مناهج الأدلة مقدار ابتعاد علماء الكلام عن روح القرآن .

مكتبة المهتدين الإسلامية

فقام ينادى بالإصلاح ، لعجبوا لأمره ، وأنكروا عليه غرابة تفكيره ، وتوجسوا منه شراً . فإذا ألح فى طلب الإصلاح استمعوا إليه قليلا ، ليروا ماذا يكون من شأنه : فإن هو طالب بتحقيق شيء من الكرامة لهم بأن رأى ضرورة زيادة رواتبهم قالوا حباً وكرامة ؛ فإذا نصح بإدخال نظم الامتحانات كما هى الحال فى المدارس أو الجامعات الأوروبية بدأ الريب يدب إلى قلوبهم ، فقالوا : « أهذا هو الإصلاح الذى كادت آذاننا تصم من صخب الدعاء له ؟ وما جدوى هذه النظم وما عسى أن تحققه من خير ؟ ألم تخلد معاهدنا على الزمن ؟ ففيم التجديد وتقليد الأجانب ؟ لقد كانت نظمنا القديمة أفضل النظم ، وقد تخرج فى ظلها مئات العلماء الأفاضل الأجلاء . إن هذا الإصلاح ما هو إلا خدعة يراد بها القضاء على التقاليد الإسلامية التى ورثناها جيلا بعد جيل . » ومع ذلك فربما قبلوا هذه النظم بعد كثير أو قليل من المساومة لكسب بعض المزايا الجديدة ، أو بعد أن رأوا أنها ترتبط ، من قريب أو بعيد ، بإصلاح حالهم ، وزيادة رواتبهم .

فإذا قيل لهم بعد ذلك إن الإصلاح ينبغى ألا يقف عند المظهر والشكل ، وإنه لابد من أن يتطرق إلى الموضوع واللب ، أى إلى العلوم التى تدرس فى معاهدهم ، بحيث يفسح المجال للجديد ، وبحيث يهذب وينقح القديم للتخلص مما لا جدوى منه ، دون القضاء على الأصول الأولى التى لا يندّ أحد عن الاعتراف بها ، والتى لا تتطلب من الباحثين أن يثيروا بصددها مشاكل لاحصر لها ، تنبت عادة من خلاف لفظى أو تترتب على سوء الفهم ، ولكنها تزدهر وتتفرع وتؤدى إلى مشاكل وعقائد جديدة فى ظل الجمود والجهل — نقول إذا دعاهم إلى إصلاح اللب والعودة إلى المصادر الأولى اضطربت

http://www.al-maktabeh.com

خواطرهم ، وثارت ثائرتهم ، وعلا ضجيجهم ، وهبوا جميعاً لمحاربة هذا العدو الذى يلبس ثياب الصديق ، وهذا المارق الذى خرج على الإجماع ، وهذا الملحد الذى يدعو إلى الاجتهاد ، لا لشىء إلا للقضاء على التراث القديم بحجة الإصلاح والتطور !

هذا هو موقف العلماء الرسميين من فكرة الإصلاح منذ أن ارتضى المسلمون أن ينصروا أهل الرواية والتقليد على أهل الفكر ، وأن يسدوا باب الاجتهاد ، وأن يقنعوا بما يردده الأولون ، أى منذ أن كتب لأتباع الأشعري أن يغلبوا المعتزلة على أمرهم . وهذا هو ماحدث فى أغلب الأقطار الإسلامية منذ أن تفرق الشمل ، وتصدع الصرح ، وتشتت الفكر ، ودبت مظاهر الانحلال فى هذه الأمة الكبيرة .

ومن قبل رفض جمال الدين ما زعمه الفقهاء من أن باب الاجتهاد قد أوصد عند أهل السنة ؛ فلا مجال لمجتهد أو باحث . فقد ذكروا يوما فى مجلسه رأياً للقاضى عياض ، ورأوا فيه أنه غاية ما يمكن أن ينتهى إليه الاجتهاد ، واشتد تمسكهم به حتى أنزلوه منزلة الوحى بأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فقال جمال الدين : « يا سبحان الله ، إن القاضى عياض قال ماقاله على قدر ما وسعه عقله ، وتناوله فهمه ، وناسب زمانه ، فهل لا يحق لغيره أن يقول ماهو أقرب إلى الحق وأوجه ، وأصحّ من قول القاضى عياض أوغيره من الأئمة ؟ وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال أناس هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم . [1] قد أطلقوا لعقولهم سراحها فاستنبطوا

---

(١) قال كلود برنارد قولا شبيها بذلك : إن احترام الآراء المتوارثة احتراما يقوم على الخيانة وسوء الفهم معناه اتباع سبيل الأوهام والأباطيل . وقد يكون ذلك عقبة حقيقية ==

مكتبة المهتدين الإسلامية

وقالوا . . . وأتوا بما ناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم ، وتتبدل الأحكام بتبدل الزمان . » ولما اعترض عليه بعض جلسائه بسدّ باب الاجتهاد قال: « ما معنى باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأى نصّ سُدّ باب الاجتهاد ؟ أو أى إمام قال لا ينبغى لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه فى الدين؟ أو أن يهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث أو أن يجد ويجتهد لتوسيع مفهومه منهما؟... نعم إن أولئك الفحول من الأئمة ، ورجال الأمة اجتهدوا وأحسنوا . . ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن أو تمكنوا من تدوينها فى كتبهم . » (١)

وهذا العداء للاجتهاد والإصلاح هو ما حدث، ويحدث فى عصرنا الراهن، وهذا هو ما وصفه الأستاذ أحمد أمين عندما عرض لموقف رجال الأزهر منذ خمسين عاما من دعوة الإمام محمد عبده إلى إصلاح هذه الجامعة الإسلامية الكبرى حتى تساير الزمن ، وحتى لا يضطر الناس إلى ترك الدراسات الدينية التى لم تعد تسير جنباً إلى جنب مع الدراسات العلمية الحديثة « ياالله وإصلاح الأزهر ! ما حاوله أحد من قبل ونجح ، ولولا الشيخ محمد عبده ؛ لأن كل المحاولات كانت تتجه إلى هامش الموضوع لا أساس الموضوع ، وكانت عن سبيل استرضاء أهله ، والخوف من أى قلق واضطراب ، والأزهريون

= فى سبيل تقدم العلم ، وهو فى الوقت نفسه مضاد للأمثلة التى ضربها لنا عظماء الرجال فى جميع العصور . فليس عظماء الرجال فى الحقيقة سوى هؤلاء الذين جاؤا بآراء جديدة ، وهدموا الأخطاء ، دهم لم يحترموا شهرة سابقيهم . وهم لا يفهمون كيف يسلك الآخرون تجاههم مسلكا مخالفا الخ . أنظر كتابنا المنطق الحديث ومناهج البحث ، ط ٢ ، ص ٢٤ .

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

http://www.al-maktabeh.com

كان يتزعمهم طائفة ألِفَت القديم حتى عدته ديناً ، وكرهت الجديد حتى عدته كفراً ، وعاشت فى المغارات فلم تر ضوءا ، وأفنت عمرها فى فهم لفظ ، وتخريج جملة ، وتأويل خطأ ، فلم تر حقائق الدنيا . فإذا أتى مصلح سمم أهله الجو حوله ، واحتموا بالدين يخيفون به الحكومة ، ويكسبون به عامة الشعب ، وخنقوا الطائفة القليلة من شبابه النازعين إلى التجديد ، وحرصوا على مراكزهم أن يكتسحها الإصلاح وجاههم أن ينتقل إلى يد المصلحين ، وبجانبهم طائفة أخرى تؤمن القديم عن صدق وإخلاص ، ولكن عن ضيق أفق ، وغفلة عن الحق ؛ هم من جنس ما قال أهل الحديث عن بعضهم « تتطلب دعوتهم ولا تقبل شهادتهم » فتتجمع كل هذه العوامل فيضطر المصلح ـ أخيراً ـ إلى الانسحاب إن غضب ، أو المداراة والمسالمة والرضا بالموجود إن لم يغضب ، وتُضطر الحكومة أن تتخلى عن إصلاح الأزهر حباً فى السلامة ، وتتركه يأكل بعضه بعضاً ، وتنشىء بجانبه المعاهد لمعلمى اللغة العربية والقضاء الشرعى ، لتستطيع تنظيمها والإشراف عليها ؛ إذ أعجزها الإشراف على الأزهر ..(١) »

وهذا مثال نذكره ، ولا نريد به طائفة خاصة ؛ إذ من الممكن أن يجد المرء أمثلة شبيهة به فى البلاد الإسلامية الأخرى ، وإنما سقناه لكى نستنبط العظة منه ، وهى أن ثورة علماء الدين على فكرة الإصلاح قد تبلغ حداً يجعلنا لا نصف خروج بعض تلاميذهم عليهم بأنه مروق أو جحود ؛ بل يحفزنا إلى النظر إليه على أنه غضبة للحق ونوع من الوفاء للدراسات الإسلامية

---

(١) زعماء الإصلاح : ص ٣١٧ ، ٣١٨ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

الحقة ؛ إذ يتجلى فى مثل هذا النقد المرير الذى يسوقه الأستاذ أحمد أمين لون من الحسرة على ما وصلت إليه المعاهد الإسلامية عندما تشبثت بعلوم أو شبه علوم كانت تدرس فى عصور الانحطاط والتدهور (١) ، ولم تفطن إلى أن العلوم الحديثة التى تحاربها بكل هذا العنف ربما كانت أكثر عوناً لها من علومها العتيقة على إظهار الدين الإسلامى فى مظهره الحق ، وهو الدين الذى لا يحارب العلم ، ولا يناهض العقل ؛ بل يجد فيهما خير أعوانه ..

هذا إلى أن العلماء الرسميين لا يريدون الإصلاح لا لأنفسهم ولا لغيرهم . وبقدر ما ينشطون إلى الدفاع عن مصالحهم الخاصة يرى المرء مع كثير من المصلحين أنهم لا يؤدون واجبهم الأول على النحو الذى كان ينبغى لهم أن يفعلوا . فهم مقصرون فى الدعوة إلى التمسك بأصول الدين والأخلاق ، وترويض النفوس للقيام بجليل العمل ، وهم بعيدون عن الغاية التى من أجلها وجدت طائفتهم . وهم لا يحيون رابطة دينية ، ولا يفكرون فى القضاء على أسباب الخلاف بين أمراء المسلمين أو ملوكهم ، ولا يتخذون المساجد والمعاهد سبيلا إلى بث روح الوحدة الإسلامية ؛ مع أن كل مدرسة وكل مسجد يجب أن يكون « مهبطاً لروح حياة الوحدة .» ثم لا يخطر لهم خاطر ، كما يقول جمال الدين فى أن يخلقوا لهم مراكز فى مختلف الأقطار « يرجعون إليها فى شئون وحدتهم ، ويأخذون بأيدى العامة إلى حيث يرشد التنزيل وصحيح الأثر . »

فهل فكروا فى أن تكون أيام الجمع موسماً للتعارف والتآلف وتذاكر

(١) قال أبو العلاء : وقالوا فقيــه والفقيه مموه ... وحلف جدال والكلام كلوم
أتوك بأصناف المحال وإنما ... لهم غرض فى أن يقال علوم

http://www.al-maktabeh.com

ما حل ببنى ملتهم ، والتدبر فى وسائل النهوض والإصلاح ، والعمل على نشر التعليم ، وتصحيح الآراء ، وتطهير الدين مما شابه من البدع ، والوقوف فى طريق الآراء الإلحادية التى تنتشر فى البلاد الإسلامية لعدم وجود ثقافة دينية كافية بها؟ إنهم لو تشاوروا وصرفوا جانباً يسيراً من جهودهم لخير المسلمين، بدلا من أن يبذلوها جميعها لنصرة المستبدين ونصرة أنفسهم لفعلوا شيئاً كثيرا ، أو لأدوا فى الأقل واجباً هو أمانة فى أعناقهم « إلا أنا نأسف غاية الأسف إذ لم تتوجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين إلى هذه الوسيلة ، وهى أقرب الوسائل ؛ وإن التفتت إليها فى هذه الأيام طائفة من أرباب الغيرة . »[1] وهى فى أغلب الأمر جماعة ليست من العلماء الرسميين ؛ بل من هؤلاء الذين يدفعون هؤلاء العلماء دفعاً إلى حضور المؤتمرات الإسلامية .

ولو أصر العلماء على ألا يشغلوا أنفسهم بأمور السياسة الإسلامية العامة ، وعجز الدافعون عن دفعهم إليها قسراً ، ولو قعدت بهم هممهم واختلاف آرائهم عن الدعوة إلى الوحدة بين المسلمين فى مختلف أقطارهم وإلى القضاء على الخلافات التى فرقت بينهم فجعلتهم أهل سنة أو شيعة ـ نقول لو رفضوا أن يقودوا الجماهير من الوجهة السياسية لبقى مجال العمل واسعاً أمامهم لو شاؤا ؛ إذ يجدون أمامهم حقلا بكراً ، وهو النهوض بالناحية الأخلاقية ، ولو بذروا فى هذا المجال بذرة صالحة لالتفت حولهم القلوب ، ولارتفعت مكانتهم فى نفوس الكافة ، وللحقوا فى هذه الناحية برجال الدين فى الملل الأخرى ممن قد يجتهدون فى ضلال من ناحية العقيدة ، ولكن يأتون بالعجب العجاب من الوجهة الاجتماعية الإنسانية . فإن هؤلاء

---

(١) من كلام جمال الدين الأفغانى .

مكتبة المهتدين الإسلامية

لما رأوا أن أبواب النفوذ والسلطان قد أوصدت فى وجوههم اتجهوا إلى العامة يرشدونها إلى أمور دينها ، ويهذبون أخلاقها وطباعها قدر طاقتهم ، مما ينهض بها ، وينتهى آخر الأمر بنهضتها السياسية والاجتماعية . ولقد فطن أصحاب العروة الوثقى ، إلى « أن الاعتدال فى أصول الأخلاق والتحلى بحلية الفضائل وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها إنما يكون بالدين ، ولن يتم أثر الدين فى نفوس الآخذين به . . إلا إذا قام رؤساء الدين وحماته وحفظته بأداء وظائفهم من تبيين أوامره ونواهيه وتثبيتها فى العقول ، ودعوة الناس إلى العمل بها وتنبيه الغافلين عن رعايتها . . . أما إذا أهمل خدمة الدين وظائفهم أو تهاونوا فى تأدية أعمالهم ضعف اليقين فى النفوس ، وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية ، وأظلمت البصائر بالغفلة ، وتحكمت الشهوات البهيمية ، وتسلطت الحاجات المعيشية ، ومال ميزان الاختيار مع الهوى . » (١)

حـ ـ روح العداء للعلم :

وقد ظن العلماء الرسميون أن العلم يجب ألا يخرج عن دائرة الدراسات الدينية من حديث وتفسير وجدل فى العقائد ، وهو ما يسمونه علم الكلام ، وربما أباحوا قليلا من معرفة الحساب للاستعانة بها فى علم الميراث . أما العلوم الأخرى من جبر وهندسة وعلم طبيعة وكيمياء فإنها تبدو لهم غير جديرة بأن تسمى علوماً . وإذا عرضت عليهم نتائج البحوث العلمية حاولوا إرجاعها إلى بعض ما اهتدى إليه السابقون من أئمتهم ، كأنما وقفت عجلة

(١) العروة الوثقى ص ١٤١ — ١٤٢ .

http://www.al-maktabeh.com

الزمن عند عصر معين كمل فيه العلم ، ولم يترك الباحثون فيه شيئا إلا وسبقوا إليه اللاحقين . حقاً كان العرب قد أخذوا بأطراف هذه العلوم ، واخترعوا بعضها كعلم الكيمياء والجبر ، لكنهم لم يفعلوا سوى أن بدأوا بدءا هيّناً ، ومع ذلك كان هذا البدء يبشر بالخير ، لولا أن زحفت موجة الجمود ، فوقفت فى طريق هذه العلوم وحورب أصحابها فيما بعد على أنهم مارقون ومشعوذون ، فماتت روح البحث ، وقضى على العقول ألا تعلم شيئاً آخر سوى العلوم الدينية وبعض العلوم التى تعد وسائل لها كعلم النحو والصرف والبلاغة والعروض . هذا إلى أن هذه العلوم الأخيرة قد تطرق إليها الفساد والخلل فى أثناء عصور الجمود ، إذ اختلطت بآراء منطقية وفلسفية فوقفت فى طريق نموها ، ودعت إلى تحجرها منذ عدة قرون ، حتى انقطعت الصلة بينها وبين الحياة الاجتماعية والعملية التى كان يجب أن تظل دائماً أداة جيدة للتعبير عن جميع دقائقها . وهكذا أصبحت الثقافة الإسلامية العربية التى يحرص عليها هؤلاء العلماء ، والتى يرفضون كل إصلاح بحجة المحافظة عليها ، ثقافة هزيلة لا تعتمد على الأصول الإسلامية الأولى ، ولا تتصل بالحركة العلمية ، فلا تشبع عاطفة ولا تروى غلة ؛ وإنما هى خليط من المناقشات والجدل الذى لا جدوى فيه ، وهى لا تزيد المرء علماً ؛ بل ربما قضت على ما لديه من استعداد جيد . وهذا هو السبب فى هبوط المستوى العلمى فى بلادنا على الرغم من طول مدة الدراسة ؛ وفى أن هؤلاء الذين لا تنجح مثل هذه الثقافة فى تشويه عقولهم قد ينبغون نبوغاً باهراً متى أتيح لهم أن يتصلوا بثقافات أكثر حيوية وأغزر مادة وأقوم منهجاً .

أما العلوم الأخرى التى قضى الفقهاء أنها لاتدخل فى نطاق الثقافة الدينية

مكتبة المهتدين الإسلامية

فقد أحاطت بها هالة من كراهية القوم ونفورهم ؛ إذ المرء عدو ما يجهل . ثم أصبح الاهتمام بتحصيلها موضع نقمتهم ، كما أصبح المشتغلون بها هدفا للنقد والتجريح الذى ينتهى عادة بالرمى بالكفر أو الفسوق . لكن هذه العلوم التى ضاق بها فقهاء المسلمين انتقلت غضة الإهاب إلى أوروبا ، وفطن إليها بعض رجال الفكر هناك ابتداء من القرن الثالث عشر ، ونخص بالذكر من هؤلاء روجر بيكون الذى يعد أمير الفكر الحقيقى فى القرون الوسطى ؛ فهو الذى وضع البذرة الأولى للتفكير القائم على الملاحظة والتجربة هناك ، بعد أن اطلع على الثقافة العربية ، واهتدى إلى أهم ما تنطوى عليه هذه الثقافة من الأصول التى يمكن أن تعتمد عليها العلوم التى تدرس الظواهر الطبيعية . ذلك أنه لم يهتم بفلسفة أرسطو التى نقلها العرب ، ولا بالمنطق الذى ظن الأوروبيون فى عصره أنه العلم النهائى الكامل ؛ وإنما وجه عنايته إلى المحاولات التجريبية الأولى التى قام بها بعض علماء العرب فى علم الكيمياء وفى فنونهم الأخرى . فقام ينادى فى أشد عصور الجهل حلكة فى أوروبا بأن الحقائق العلمية لا يمكن أن تأتى من مصدر آخر سوى الملاحظة والتجربة ؛ لأن التجربة تكفى نفسها بنفسها ، فى حين أنه لا قيمة للحقائق المنطقية إلا إذا كانت مطابقة للواقع ، ولا للآراء الدينية إلا إذا كانت على وفاق مع العقل .

وقد اختمرت فكرته هذه عدة قرون فى عقول أهل أوروبا ، ثم ازدهرت فجأة بعد طور اختمارها ، فكانت تلك النهضة العلمية الكبرى التى حمل لواءها فرنسوا بيكون وجاليلى ونيوتن وآخرون كثيرون ، والتى آتت ثمارها فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، والتى تنبىء بأن أمامها آفاقاً يكل

http://www.al-maktabeh.com

الخيال عن الإحاطة بها ؛ فإن الكشوف العلمية التى اهتدى إليها العلماء منذ القرن السادس عشر حتى الآن توحى إلينا أن العلم لم يدرك بعدُ غاية تطوره .

وقد نمت هذه العلوم فى أوروبا وأدت إلى نتائجها العظيمة التى نلمسها فى الفارق الكبير بين حضارتهم وتأخرنا ، وقوتهم وضعفنا ، وعلمهم وجهلنا . ومع أننا نتتلمذ الآن على الغرب فى كل شىء يتصل بالحياة العلمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية فإن علماء الدين عندنا ظلوا ، حتى أواخر القرن الماضى ، يحاربون العلوم الرياضية والطبيعية ، ويصفون الداعى إلى دراستها بالكفر والزندقة . ومن يدرى فلعل بقية من علماء هذا العصر تصر على عداء هذه العلوم ، وترى فيها خطراً على الدين ؛ فإذا هى أكرهت على تدريسها فى معاهدها شوهتها أو اكتفت بقشورها اعتزازاً بالقديم وأهله ، أو عجزاً عن فهم الجديد ومتابعته ؟

إنهم يخافون العلم الحديث ، ويقولون إنه قد يوشك أن يفسد على الناس عقائدهم . غير أن هذا ليس بمسلك الدفاع عن العقيدة الحقة ؛ لأن العقيدة التى تؤثر الحياة فى ظلام الجهل والجمود ، وتخشى أضواء العلم ، لا يمكن أن يقول أصحابها إنها أسلم العقائد وأقربها إلى العقل . إنهم يسيئون الدفاع عن عقائدهم ويرمون دينهم بما ليس فيه ، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم حفظته وحماته . ولو أنهم فطنوا إلى حقيقة دينهم لعلموا ، كما يقول جمال الدين : « إن الدين لا يصح أن يخالف الحقائق العلمية . فإن كان ظاهره المخالفة وجب تأويله . وقد عم الجهل وتفشى الجمود فى كثير من المتردين برداء العلماء حتى اتهم القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة ، والقرآن برىء مما يقولون ، والقرآن يجب أن يجل عن مخالفة العلم الحقيقى خصوصاً فى الكليات . »

مكتبة المهتدين الإسلامية

هذا إلى أن محاربة العلم دليل قاطع على جهل هؤلاء العلماء . فإن تقدم العلوم الحديثة فى أوروبا صرف كثيرا من الطبقة المتعلمة فيها عن عقائدها ، فأصبحوا أقرب إلى الإيمان بإله واحد ، وأكثر استعداداً لقبول دين عقلى يحض على البحث النظرى ويتسع صدره للدراسات العلمية والفلسفية . فإذا ألقوا ببصرهم نحو الإسلام فجأهم الطابع العقلى الذى تتسم به عقائده البديهية ، فظنوا أنه الدين الذى يبحثون عنه . لكنهم متى رأوا حال أهله وخاصة علماء الدين منهم ، وعرفوا عن هؤلاء موقفهم من العلم ، لم يجدوا ما يحفزهم إلى الإيمان بهذا الدين الذى يحارب أتباعه العلوم باسمه ؛ بل ذهب رينان إلى القول بأن أوروبا لم تفد شيئاً من الثقافة الإسلامية وما حملته إليها من فلسفة اليونان ؛ فإنهم نقلوا إليها هذه الفلسفة مشوهة ومحرفة . ومع ذلك فإنه يعترف بأن دينهم يحتوى على مثل عليا رفيعة كثيراً ما حببت إليه التفكير فى اعتناق الإسلام ، غير أن أهله يعتقدون أن البحث فى العلم نوع من الكفر . وهذا هو ماصرفه عن اعتناق هذا الدين لما حسب أنه يناهض العلم والفكر . ونرى من جانبنا أن مسلك علماء المسلمين الجهال تجاه العلم فى عصور التدهور ربما كان أحد الأسباب التى دفعت رينان إلى هذا الغلو .

والعلماء المتأخرون أكثر وزراً من سابقيهم الذين يقلدونهم فى عدائهم للمعرفة العلمية الدنيوية ؛ لأنهم يعيشون فى عصر النهضة العلمية الكبرى، ثم لا يرون ضرورة الاطلاع عليها فضلا عن المساهمة بنصيب فيها. وكان من اليسير عليهم، لو شاؤا ، ألا يقابلوا هذه النهضة بروح الريب، وألا يقفوا منها موقف الحذر؛ بل كان أولى بهم أن يتخذوا منها فى الأول موقف الحياد المشرب بروح المودة أولا ، لكى يفقهوا بعد قليل أنها لا تعارض الدين ؛ بل تؤكد عقائده .

http://www.al-maktabeh.com

ولقد عرف جمال الدين ذلك من رجال الدين الرسميين ، فنصح السلطان عبد الحميد ألا يثق بهم ، فيرسل نفراً منهم إلى اليابان لنشر الإسلام فيه ؛ إذ كان يخشى ، وربما كان محقاً فى خشيته ، أن يعطى هؤلاء العلماء فكرة مشوهة عن دينهم لليابانيين ، ومع ذلك يصرّ علماء الدين على أنهم يفهمون دينهم حق الفهم ، ويرون أن الخير كل الخير فى أن يظل طلبة العلوم الدينية بمعزل عن الحركة العلمية . وغاب عنهم أنهم كلما أعرضوا عن معرفة العلوم الدنيوية كانوا أبعد عن معرفة علوم الدين معرفة صادقة ؛ كذلك خفى عنهم أنهم لو فهموا الدين فهما حقاً لتوسعوا فى العلوم الكونية .

وهذا هو مافعله علماء المسلمين فى العصور الأولى ، وهذا هو ما ألح فى بيانه أكبر فلاسفتهم ، ونعنى به ابن رشد ، عندما بيّن أن الشريعة والفلسفة أختان رضيعتان متحابتان بالطبع ، وأن الحقيقة واحدة يأتى بها الوحى مجملة ويعمل العلم على تفصيلها ، وأن من يحارب العلم والفلسفة باسم الدين رجل يجهل الدين ، ومن يناهض الدين تحت ستار الفلسفة رجل يجهل حقيقة الفلسفة . كذلك غاب عن أعين المتأخرين أن مما يختلف به دينهم عن الأديان الأخرى أنه لا يتضح فى أذهان معتنقيه إلا إذا تقدموا فى معرفة الحقائق العلمية ؛ فى حين أن أتباع بعض الديانات يبتعدون من العلم بمقدار احترامهم وحرصهم على عقائدهم ، ويقتربون منه بمقدار انصرافهم عن الإيمان بهذه العقائد .

غير أن المسلمين انتهى بهم انحطاطهم إلى أن كرهوا العلم عندما تولى شئونهم جهالهم ، وتصدر للوعظ فيهم ضلالهم . وفى أثناء ذلك حدث الغلو فى الدين واستعرت نيران العداوات بين النظار فيه ، وسهل على كل منهم ، لجهله بدينه ، أن يرمى الآخر بالمروق لأدنى سبب ، وكلما ازدادوا جهلا بدينهم ازدادوا

مكتبة المهتدين الإسلامية

منه غلواً فيه بالباطل، ودخل العلم والفكر والنظر فى جملة ما كرهوه، وانقلب عندهم ما كان واجباً من الدين محظوراً فيه . »(١)

٤ — يجهلون الدين أيضاً :

هذا هو موقف العلماء الرسميين من العلوم الكونية . أما العلوم الشرعية التى يزهون بأنها وقف عليهم ، وأنها ميدانهم الذى يجولون فيه ويصولون ، فلم تكن أسعد حظاً من العلوم الأخرى . ذلك أن هؤلاء العلماء لم يكونوا على وفاق فيما بينهم ، ولا سيما بعد أن تسربت إليهم روح الجدل التى فرقت بين علماء الكلام من قبل . فذهب القوم إلى أن كثرة التفريع والتقسيم وتخيّل جميع الحالات الممكنة وغير الممكنة دليل على عمق المعرفة وطول الباع فى الإحاطة بكل شىء .

ولم يكن هذا التفريع والتقسيم ليتم دون صراع وجدال بين أنصار مدارس الفقه المختلفة . ومن الحق أن نعترف أن الفقهاء بذلوا جهوداً كبيرة ، غير أنها جهود بذلت فى غير وجهها ، وفى غير ما يعود على أصحابها وعلى الناس بالخير . ولو أنها صرفت فى توضيح أصول الدين ، وتقريبها إلى أذهان العامة فى صورة هينة يسيرة تخلو من الجدل والخلاف لثبّتت العقائد السليمة، ولساعدت على نشر الأخلاق والآداب ، ولما اضطر الناس إلى مخالفة الدين بسبب جهلهم لأحكامهم ، واختلاف علمائهم فى تقرير هذه الأحكام . وربما أمكن تلمس العذر للرجل العادى الذى يخالف الشرع بسبب عجزه عن فهم نصوص كتب أهل الجدل من الفقهاء ،وذلك لصعوبة

---

(١) الإسلام والنصرانية لمحمد عبده ص ١٥٠ .

http://www.al-maktabeh.com

عباراتها وكثرة الخلاف فيها ـ نقول لو بذلت هذه الجهود فى وجهها الحق لما انحدر المسلمون إلى ما انحدروا إليه بفضل هؤلاء العلماء الذين يظنون أن العلم معناه تكفير الخصم ؛ لأنه لا يرى رأيهم فيما اعتادوه من التشدد فى الدين وجعله عبئاً ثقيلا مع أن الدين يسر فى أصله ومنبعه . ولو أطلعت على بعض كتب المتأخرين من الفقهاء لوجدت فيها شيئاً كثيراً « من مطاعن بعضهم فى بعض مالا يسمح به أصل من أصول الدين الذين يُنسبون إليه : يضلل بعضهم بعضاً ، ويرمى بعضهم بعضا بالبعد عن الدين ، وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن ، ولكنه الجمود قد يؤدى إلى الجحود.»[1]

وهل لأحد أن يلوم العامة، إذا رأت هذا الخلاف ومثل هذا السباب ، على أنها تتلمس لنفسها الأعذار فى مخالفة أحكام الشريعة ما دام العلماء على غير وفاق فيما بينهم ؟ إنها تنحدر نحو الحلول التى تتفق مع أهوائها معللة النفس بأنه من الممكن أن يكون هناك من الفقهاء من يرى رأيها .

على أن علماء العصر قد لا يكونون أحسن حالا من العامة فى فهم الأحكام الدينية ؛ إذ لو اطلع الواحد منهم على الكتب التى أُلّفت فى عصور التقليد والجمود والشقاق والجدل، ليعلم حكم الشريعة فى مسألة من المسائل، لضلت به السبل ، لكثرة ما يلقى فى طريقه من اعتراضات وردود وتسفيه آراء وطعن فى عقيدة المخالف . أما الحكم نفسه فقد يجد له احتمالات عديدة لايدرى أيها يختار ؛ هذا إلى أنه قد يعجز عن تمييز الحلول بعضها من بعض . ويضرب لنا الإمام محمد عبده مثالا لهذه الفوضى فى كتب المتقدمين فيقول إنه قرأ أكثر من عشرين شرحاً ليعرف رأى القوم فى التيمم فوجدها كلها

(١) المصدر السابق ١١٩ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

غامضة مشوهة ، وأن النص القرآنى واضح ليس فى حاجة إلى كل هذه الشروح . وسنضرب نحن أمثلة عديدة سيعجب المرء كيف كانت موضع تفكير المحققين من رجال الفقه . فما بالك إذن بعامة الشعب ممن لا يستطيعون الخروج بشىء من مثل هذا الاختلافات التى لا تقف عند حد ؟ إنهم يريدون حكم الدين فى أمر من أمورهم فلا يجدون أمامهم سوى علمائهم . وربما لم يكن المسئول بأعلم من السائل ؛ إذ يتفق لبعض ، أو لكثير من هؤلاء الذين يتصدون لتطبيق أحكام الشريعة أن يعجز عن تقـــرير الحكم الصحيح : إما جهلا ، وإما عجزاً عن تفهيم من يسأله ؛ وربما كان له فى ذلك بعض العذر ؛ لأنه يعتمد على مراجع ومصادر متناقضة متنافرة يكاد يعد الوصول إلى وجه الحق فيها أمراً مستحيلا .

ويمكن إرجاع فساد أخلاق العامة فى القرى والعساكر الإسلامية إلى جهل هؤلاء العلماء الذين يتصدرون للفتوى والوعظ ، والذين لا يعرفون كيف يرشدون الناس ، أو يميزون لهم بين الحق والباطل والحرام والحلال . إنهم حسنو النية من غير شك ، ولكنهم ضحية التقليد والجمود ؛ وهم يفتون بقدر ما يعلمون ، وربما كانوا لا يعلمون شيئاً كثيرا . على أنه يتفق لحسَن النية أن يتزلق إلى الشر عفواً أو قصداً ، وأن يتخذ الدين وسيلة إلى طلب السعة فى الرزق بدلا من أن يكون سبيله إلى تقويم الخلق وبذل العون والنصح ؛ ويتفق أيضاً أن يشتغل فقهاء القرى أنفسهم بأعمال السحر والشعوذة ، يفرقون بين المرء وزوجه ، ويسعون بين الناس بالباطل ، ويضلون العامة بدلا من أن يتركوها تتبع فطرتها السليمة . ويسيطر هؤلاء الفقهاء على النفوس ويقومون سداً بينها وبين أهل العلم الصحيح ممن يستطيعون إرشادها إلى أمور دينها ،

http://www.al-maktabeh.com

ويبثون فيها أخلاقه ويرتفعون بها عن هذا المستوى الذى نزل بها إليه جماعة ممن لا علم لهم بالدين والأخلاق ، وممن يغرسون فى عقول النشء أسوأ الغرس ، أو يصرفونهم عن الدين بسبب مسلكهم الذى يتنافى مع أبسط قواعده ، وهى الرغبة فى الخير ، والدعوة إليه فى رفق وغير عنف .

وقد اضطربت معايير الأخلاق بسبب هؤلاء العلماء الجهال حتى أصبح إرشاد الناس إلى الفضيلة والحق ، وزجرهم عن الرذيلة والباطل ، من أشق الأمور وأقلها ثمرة .[1] وكيف يجدى النصح فى قوم نكبوا بجماعة من المضللين الذين يثبطون الهمم ، ويصرفون الناس عن الشكوى من الظلم ؛ بل يدفعونهم إلى قبوله دفعاً بحجة التسليم للقضاء والقدر ، ويشوهون عقولهم بسيل من الخرافات والأوهام التى تسرى مسرى السم فى خيالهم جهلهم وسذاجتهم .

وهكذا انصرف الفقهاء عن واجبهم الأول ورضوا لأنفسهم أن يقفوا موقف الجمود والتقليد ، ثم أرادوا أن يخلعوا على ثقافتهم المحدودة طابع القداسة ، وأن يوهموا الناس أنهم حووا علوم الأولين والآخرين ، فنادوا بأن باب الاجتهاد فى الدين قد أُوصد ، وأن هؤلاء الذين يحاولون التجديد فى أحكام الشريعة حتى تكون موافقة للتطور الاجتماعى جماعة من الكفرة ؛ بل ربما رموا هؤلاء الذين يرون ضرورة العودة إلى رأى السلف بأنهم قد مرقوا من الدين . وقد روى لنا الشيخ محمد عبده كيف أن أحد هؤلاء المجتهدين ، وهو السيد عبد الحميد الزهراوى الحمصى ، نشر مقالا عرض فيه للصوفية ،

---

(١) قال أبو العلاء : كم توعظون فلا تلين قلوبكم فتبارك الخلاق ما أعتاكم !

مكتبة المهتدين الإسلامية

وبيّن فيه أن هذا المذهب كان نكبة على الإسلام ، فلما أطلع الناس على مقاله فى مصر « هاج عليه حملة العمائم . . . وقالوا إنه مرق من الدين . . . ثم رفع أمره إلى الوالى فقبض عليه ، وألقاه فى السجن . فرفع شكواه إلى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يأمر بنقله إلى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه . . . فأجيب طلبه ، لكن لم ينفعه ذلك كله ، فقد صدر الأمر هناك أيضاً بسجنه ، ولم يعف عنه إلا بعد أشهر ، مع أنه لم يقل إلا ما يتفق مع أصول الدين . . . »(١)

كذلك روى لنا قصة الشيخ عليش الكبير مع الشيخ السنوسى الذى وضع كتاباً فى أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية لأنه كان قد اعتمد فى تقرير أحكامه على الكتاب والسنة مباشرة . فلما ترامى النبأ إلى الشيخ عليش ، وهو من هو فى شدة تعصبه للدين بمعناه الضيق الذى كان يفهمه كما يقول الأستاذ أحمد أمين ، حمل حربة وذهب يبحث عن الشيخ السنوسى ليطعنه بها لأنه خرق حرمة الدين . ولكن سفر السنوسى قبل أن يلقاه الشيخ عليش حال دون وقوع هذه الجريمة النكراء باسم الشريعة الغراء .

وليس علماء الدين الرسميون فى مصر هم وحدهم الذين كانوا يقفون فى طريق الإصلاح ، ويناخون عن التقليد ، ويحرمون تدريس العلوم الحديثة باسم الدين ؛ بل إنهم كانوا يسلكون مسلك أقرانهم فى مختلف البلاد الإسلامية سواء فى الأفغانستان أم الهند أم إيران أم بلاد المغرب ، حيث كان هؤلاء العلماء يعلنون الحرب على كل من حاول أن يزحزحهم إصبعاً عما كان عليه.

---

(١) الاسلام والنصرانية لمحمد عبده ص ١٠٣ — ١٠٤

http://www.al-maktabeh.com

سلفهم ، وإن كان فى البقاء عليه تلفهم .

وقد تساءل الإمام محمد عبده فقال : « هل هذه الحال جديدة على المسلمين ، حتى يقال إنها عارض عرض عليهم . . . ؟ لا يسهل على من يعرض أحوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة أن يظن أن هذه الحال من العلل الطارئة على أمزجة الأمم ، خصوصاً عند ما يجد الوحدة فى الصفات ، والشمول فى الاعتبارات ، فلو أخذ مسلماً من شاطىء الأطلانطيق ، وآخر من تحت جدار الصين لوجد كلمة واحدة تخرج من أفواههما وهى : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » وكلهم أعداء لكل مخالف لما هم عليه ، وإن نطق به الكتاب ، واجتمعت عليه الآثار . . »

فإذا كان هذا هو رأى محمد عبده فى علماء المسلمين فى العصور الأخيرة ، فهل لأحد أن يعيب على رينان إذا تشابه الأمر عليه ، فسوى بين الإسلام والمسلمين ، وظن أن هذا الدين يحارب العقل والعلم حقيقة ، وأن كل من يؤمن به يسلك مسلك التقليد ، أى ينهل من مناهل الجمود ؟ وهل لنا أن ننفى عن علمائنا الرسميين روح العداء للعلم ، أو ننكر عليهم رغبتهم فى فرض ثقافتهم التى ازدهرت فى عصور الانحطاط الفكرى على عقول تتابع الحركة العلمية المعاصرة ، وتتوق إلى أن ترى تجديداً فى الدراسات الدينية ، يخرج بها عن المناقشات اللفظية العقيمة ، ويبعث فيها تلك الروح التى عرفها السلف فى دينهم ، والتى حجبتها سحب الجهل أو التظاهر بالمعرفة ؟

هـ — ماذا جنى المسلمون منهم ؟ :

والحق أن البلاء الذى وقع بالمسلمين بسبب علمائهم فى الناحية السياسية لا يكاد يعدله إلا نكبتهم بهم فى الناحية الدينية . فإن هؤلاء العلماء ساهموا

مكتبة المهتدين الإسلامية

فى تثبيت قواعد الاستبداد السياسى ، وساعدوا قدر طاقتهم فى طبع النفوس بطابع الذل والاستسلام للحاكم الزمنى ، وجعلوا طغيانه وعدوانه أمراً مشروعا وقضاء من الله ، ثم أكملوا القضاء على الروح الإسلامية عند ما قصروا فى أداء واجبهم الأول وهو إصلاح النفوس وتهذيبها وإرشادها إلى العقائد الصحيحة والأخلاق السامية التى جاء بها هذا الدين الحنيف . ذلك أن المشتغلين بالفقه أرادوا ألا يكونوا أقصر باعا أو أقل شهرة من رجال علم الكلام أو الجدل فى العقائد ، فجعلوا يتوسعون فى أحكام الشرع ، ويفرعون فيها ، كما يحلو لهم ، وكما تمليه عليهم خواطرهم السليمة أو المريضة ، فيضعون لكل حادثة حقيقية أو مستحيلة حكما خاصاً بها ، وإن لم تكن فى حاجة إليه . وليتهم اتفقوا على هذه الأحكام ، ولكنهم اختلفوا ، وصار يرمى بعضهم بعضاً بالكفر ، على غرار ما كان يفعل علماء الكلام من قبل . ولما ضاق الناس بخلافهم ، وعميت أبصارهم عن النهج الصحيح لم يجدوا مفراً من الركون إلى التقليد ؛ كل يقلد إماماً من الأئمة . وتعددت المذاهب واختلفت المناهج ، وألفت الكتب ، وحوت الغث والثمين ، والحق والباطل ، وجاء من بعد هؤلاء المؤلفين خلف يحسن الظن بكل ما جاء فى كتبهم ؛ إذ وجد أن التقليد أيسر من الاجتهاد ، والتسليم بما قال أحد السابقين أهون من تحكيم العقل واستئناف مشقة البحث .

ولما رأى المتأخرون مدى الاختلاف بين السابقين أخذوا يبررون هذا الاختلاف بأنه رحمة بالعامة ، كما وجدوا فيه سبيلا إلى التحايل على أحكام الشرع ، حتى ذهب بعضهم فى تحايله إلى ما لا يقره الخلق ولا الدين ، كأن يهب الرجل ماله لأحد ممن يثق بهم حتى إذا حال الحول استعاده كاملا ،

http://www.al-maktabeh.com

دون أن يخرج منه شيئاً مما يجب شرعاً على الأغنياء للفقراء . كذلك أحلوا للرجل أن يهب زوجته التي طلقها ثلاث طلقات إلى من يشاء ، حتى يستطيع ضمها إليه ، بعد أن يقوم الوسيط أولا يقوم بمهمة المحلل . أما من يريد أن يقرض شيئاً من ماله بالربا ، دون أن يقع تحت طائلة العقاب ، فله أن يبيع لمن يقترض منه شيئاً خسيساً بشيء ذي قيمة يرده إليه مع ماله الذي أقرضه ؛ إلى غير ذلك من الحيل التي ربّما كان يعلمها بعض الفقهاء أكثر من معرفتهم بفرائض الدين وآدابه ، والتي يهرع إليها العامة للتخلص من أحكام الشرع .

ومن جانب آخر أغرب بعض الفقهاء في استنباط الأحكام من النصوص إغراباً شديداً . ذلك أن أحدهم متى وجد نصاً من النصوص الشرعية يتضمن أمراً أو نهياً فهمه أولا حسبما يؤديه إليه عقله ، ثم حاول تطبيقه على أمثال الحادثة التي ورد فيها ؛ وقد لا يكون بين هذه وبين الحالات التي يماثل بينها شبه ما ، لكنه يأبى إلا أن يجتهد على غير علم أو بصيرة ؛ لأنه يصر على أن يجد لكل حادثة من حوادث الحياة اليومية حكماً شرعياً إما بالوجوب وإما بالتحريم ، ولو كانت مما سكت عنه الشرع . ومن البديهي أن ينتهي الأمر بأن تصير كل الأشياء ، حتى توافهها وسفسافها محرمة أو واجبة ، وأن تختفي الأشياء المباحة التي يستطيع المرء أن يقربها أو يتركها ، دون أن يكون سيف الفقهاء مصلتاً على عنقه .

وقد تتعارض أحكام الفقهاء السابقين في مسألة من المسائل فيرى المتعنت من المتأخرين أن يلزم أشد الأحكام عسراً ؛ لأنه يريد أن يأخذ بالأحوط ، طلباً للمثوبة كما يقول . وهكذا تمادى المتأخرون في التنطع والتشدد ،

مكتبة المهتدين الإسلامية

حتى أصبح الدين اليسر عبئاً ثقيلا لايدع صغيرة أو كبيرة من الأفعال العادية إلا وقرّر لها حكما . وكثيراً ما يكون هذا الحكم مضاداً للعقل وللطبيعة . ولكن هكذا شاء الفقهاء ، فعلى العامة أن تتبعهم فى تشددهم ، وتكلِّفهم العناء فيما لاموجب لطالب العناء فيه ، وإلا حل بها من اللعنة فى الدنيا والآخرة مالا قِبَلَ لها به . وظل الفقهاء يوغلون فى الدين ، برفق وبغير رفق ، حتى غلبهم وصرعهم ، وحتى أدت شدة الحرج التى يشعرون بها ، والقهر الذى يباشرونه على العقول ، إلى تطلع فريق من المسلمين إلى من ينقذهم من عسف المتشددين ، وعنت المتصدرين للفتوى بينهم . وعندئذ لم يجد هذا الفريق أمامه من مهرب سوى أن يقذف بنفسه فى حلقات أهل التصوف الذين هونوا عليه أمر التكاليف ، وصرفوه عنها وعن تشدد الفقهاء ، إلى تلاوة التراتيل والترانيم وهز الأعطاف والتمايل على دق الطبول ونقر الدفوف ، فأصبح الدين لديه لهواً ولعباً وصفيراً وتصفيقاً بعد أن جعله الفقهاء أغلالا وقيوداً .

أما من لم تستهوه مباهج التصوف ، وكان فى خلقه شىء من الشدة والتزمت فقد رضى أن يظل فى حوزة الفقهاء ، وآثر أن يتبع سبيلهم ، ولو كلفوه بما لم يكلفه به الله ورسوله ، ولو أوجبوا عليه من النوافل والقربات أضعاف ما جاء به الكتاب من الفرائض . إنه يميل مثلهم إلى التشدد ويشعر شعورهم بالحرج ، ويرى رأيهم فى أن ماجاء به القرآن ليس كافياً فى نجاته . فيقبل على هذه النوافل إقبالا ربما أنساه الواجبات ؛ هذا والفقهاء المشرعون لا يكفون عن التشريع والتقنين وبسط أحكام الشريعة على كل ما يعترض طريقهم : فهم يأبون إلا أن يحددوا لكل عمل من الأعمال قيمته ، ولو كان من تلك الأعمال التى تركها الشرع مباحة للناس يأتون منها ما شاءوا وبالقدر

http://www.al-maktabeh.com

الذى يتفق مع حياتهم الاجتماعية التى تتطور دون انقطاع . ولم يعدم الفقهاء حجة لغلوهم وتشددهم فى الدين ، فهم يشعرون بضيق دونه أى ضيق فى أن يتركوا شيئاً من غير أن يبينوا فيه حكم الله ورسوله ، وهم يخافون على الناس أن يخلطوا بين الحرام والحلال ؛ كأن الدين كان ناقصا فجاؤا هم يكملونه .

وفى الواقع ليس ما يشعرون به من حرج وما يجنحون إليه من تشدد أو أخذ بالأحوط إلا وليد اضطرابهم فى الرأى وقصورهم فى الفهم ، وترددهم فى الجزم ؛ إذ أن الحلال بيّن والحرام بيّن ، وما بعد ذلك فهو مباح للناس بدرجات متفاوتة . ومن قبل غلا أحبار اليهود وعلماؤهم ، وتشددوا فى الدين حتى فقـــد روحه ، وأصبح مجرد عبارات وطقوس معقدة إلى حد كبير أو قليل ، فحق للمسيح أن يأخذ عليهم تشددهم وتعنتهم ونفاقهم عند ما يهتمون بالظواهر المادية للدين ويغفلون عن لبه وجوهره . ومن قبل أيضا أفرط رجال الكهنوت من النصارى فى تشددهم فكلفوا الناس أن يذعنوا لأحكامهم ، وأن يتقبلوها بالسمع والطاعة دون مناقشة أو نظر ؛ بل بلغ من تشددهم وقهرهم أنهم حرموا على أتباعهم تلاوة الإنجيل أو الاستفسار عن عقائدهم ، وبخاصة عقيدة التثليث التى قالوا إن علمها عند آباء الكنيسة وحدهم ، مع أنها حجر الزاوية فى المسيحية .

كذلك زعم رجال الكهنوت فى النصرانية أن لرئيسهم الأكبر حق تقرير العقائد الجديدة وإدخالها فى صلب المسيحية ، وما على الناس إلا أن يتبعوه . فإذا قرر رئيسهم أن مريم العذراء قد رفعت إلى السماء ، مثل ابنها المسيح ، وجب أن يؤمن الأتباع بهذه العقيدة ، وألا يسألوا كيف أو متى رفعت ؛ وله أن يكرس القديسين وأن يخصص أنواعا من الصلاة للتقرب إلى الله

مكتبة المهتدين الإسلامية

عن طريقهم . وهكذا تتخضم العقائد وتتطور وتزداد تعقيداً بمرور الزمن وبمشيئة رؤساء الدين وغفلة من يأتمون بهم .

ولقد رأيت فى إحدى مقاطعات فرنســـا أن بعض الآباء الذين يقيمون فى أحد الأديرة فكروا فى وسيلة لجذب قلوب الناس ، فرأوا أن يقيموا على مقربة منهم مغارة تشبه إحدى المغارات المقدسة عندهم وهى مغارة « لورد » [Lourdes] التى يحج إليها المسيحيون من مختلف البقاع للتبرك بتمثال العذراء ولطلب الشفاء للمرضى عن أعيا الأطباء علاجهم . ثم رسموا هذه المغارة على مثال مغارة « لورد » وبدأوا يقودون أتباعهم نحوها . وقد لا تمضى أجيال ، حتى يسمع الناس عن هذه المغارة نبأ عجيباً ؛ إذ ربما قيل إنها مهبط لأحد القديسين فى سالف الأزمان .

وبمثل هذا التشدد والتعقيد يبسط رجال الكهنوت سلطانهم فى كل ملة . ونحن لا نبرىء فقهاء المسلمين وعلماء الدين فيهم من أمثال هذه الأعمال . فمن يدرى من يرقد فى أضرحة كثير من أولياء المسلمين فى المدن والقرى . فلربما كانت تضم رفات رجال ورعين ؛ لكن ربما ضمت أيضا رفات قطاع طرق ، أو بعض جثث الحيوانات ؛ ثم يحج الناس إليها ، ويقدمون إليها القرابين ، ويجودون عليها بالنذور ويبتهلون إلى سكانها أن تكون فى عونهم ، كأنما يئسوا من روح الله .

⁂

أما التشدد والتعقيد فى الأمور التفصيلية التافهة فأكثر من أن يدخل حتى حصر . وكتب الفقه لا تضن علينا بأمثلة غريبة تخيلها المتشددون ، ووضعوا لها الحلول التى لا تقل عنها غرابة . وليتهم اتفقوا فيما بينهم على حل واحد

http://www.al-maktabeh.com

لكل مسألة ، إذ لو فعلوا لأراحوا أنفسهم وأراحوا الناس معهم . لكنهم اختلفوا فى المذهب الواحد فما بالك بالخلاف الذى يمكن أن يقع بين المذاهب المختلفة ؟ وليس من غرضنا أن نتعقب الفقهاء فى أمثلتهم العجيبة ، رغبة فى التندر بهم أو التشنيع عليهم . فإن هذا الكتاب لا يتسع لمثل هذا المسلك . أضف إلى ذلك أن السخرية والتهكم فى مثل هذه الأحوال لا يحققان الهدف الذى نرمى إليه ؛ بل ربما انتهيا إلى نتيجة أخرى غير تلك التى نريد الوصول إليها . وقد كان فى وسعنا ، لو شئنا ، أن نذكر أمثلة لا حصر لها للتدليل على تشدد الفقهاء وتعنتهم ، وأن نختار أكثر الأمثلة إغراباً فى السقم ؛ لكننا آثرنا أن نعرض لبعض الأمثلة اليسيرة ، وفى بعض المسائل المحددة ، لعل المشتغلين بالفقه يتجهون من تلقاء أنفسهم وبقلوب راضية إلى تطهير كتبهم مما يشوهها ! وهذا ما ارتضيناه فى كتاب آخر لنا عندما بينا كيف انتهى علماء الكلام إلى الابتعاد عن روح الكتاب العزيز بأدلتهم الجدلية ، حتى أصبحت العقيدة الواضحة شديدة الغموض فى كتبهم.(١)

أما فى مجال الفقه أو التشريع فإننا نشير إلى مسألة الطلاق التى عالجها الفقهاء من الوجهة اللفظية أو الشكلية الصرفة ، ونسوا ، فى أثناء خلافهم وسيل حججهم ، أن الطلاق يمس ناحية إنسانية أو اجتماعية هامة ، فعالجوها كما لو كانت من مسائل المنطق الصورى ، ونعنى به منطق أرسطو كما فهمه المسلمون ، ذلك المنطق الذى يبحث فى جميع الحالات الممكنة وإن لم تقع بالفعل ، وهو المنطق الذى نعتقد أنه أفسد على المسلمين علومهم اللغوية

(١) هذا ما بيناه بالتفصيل فى مقدمتنا فى نقد مدارس علم الكلام التى صدرنا بها كتاب مناهج الأدلة لابن رشد . ولذلك نحيل عليها فى كل ما يتصل بعقم المناقشات الكلامية .

مكتبة المهتدين الإسلامية

والشرعية ، كما أفسد عليهم ثقافتهم وحضارتهم [١] ـ نقول إنهم حاولوا تطبيق قواعد المنطق وقوانين اللغة على العبارات التى تصدر من الرجل فى غضبه أو فى رضاه ، وغفلوا عن هذا الأمر وهو أن فصم رباط الزوجية ينبغى ألا يكون بمثل هذا اليسر ، وخاصة بعد أن حدّد لهم القرآن الكريم ، الذى كان ينبغى أن يظل مرجعهم الأول ، المبادىء العامة التى يجب أن تحوط الحياة الزوجية بسياج قوى ، حتى تكون بمأمن من سفه الزوجين أو تلك الأزمات الطائشة التى تعترض حياة الأسرة ؛ فتوشك أن تلحق الضرر بمن لا ذنب له ، ونعنى بهم الأطفال الذين قلّ أن نظر إليهم الفقهاء بعين المودة فى أثناء جدلهم واختلافهم فى الحلول .

ونقول إن هؤلاء المشرعين الذين يؤكدون لنا أنهم يسيرون على هدى القرآن فى تشريعاتهم ينسون أن هذا الكتاب لا يريد أن يكون الطلاق سلاحا يسلّطه الرجل على عنق المرأة ، وبغير حق فى أعظم الأحوال . فهو ينهى الناس عن كثرة الأيمان والأقسام التى يذكر فيها اسم الله أو لا يذكر فيها اسمه . ولذلك قال تعالى فى التمهيد للحديث عن الطلاق : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم ، لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم . » وإنما نهى عن كثرة إيقاع الأيمان لأن هؤلاء الذى يكثرون من الأحلاف هم هؤلاء الذين وصفهم الله بالمهانة عندما قال فى كتابه :

---

(١) بينا فى كتابنا « المنطق الحديث ومناهج البحث » أن الحركة العلمية الحديثة لم تزدهر إلا بعد القضاء على المنطق الشكلى ، كما كان يفهمه أهل العصور الوسطى من المسلمين والمسيحيين على حد سواء . انظر ص ١٥ إلى ص ٣٠ ، من الطبعة الثانية .

http://www.al-maktabeh.com

« ولا تطع كل حلاف مهين » . ذلك أن الحلاف لا يكون عادة إلا كاذباً .

وهكذا نسى الفقهاء أن الله لا يرضى أن يتخذ اسمه سبيلا إلى إلحاق الضرر بالنساء كأن يقسم الرجل ألا يقرب زوجته أربعة أشهر . فإذا فعل رغم ما فى ذلك من الإجحاف بالزوجة التى أوصى الله بحسن معاملتها أوجب الله الطلاق بعد مرور هذه المدة التى تقطع صلة التواد والتراحم بين الزوجين . لكنه أوجبه بالنسبة إلى النساء اللاتى ما زلن يصلحن للزواج بدليل أن الآية خاصة بذوات الحيض.(١) لذلك ذهب بعض المجتهدين إلى أنه لا يجوز طلاق المرأة التى بلغت سن اليأس « فإن اليائسة من شأنها ألا تطلق لأن من أمضى زمن الزوجية مع امرأة حتى يئست من المحيض كان من مقتضى الطبع والفطرة ومن أدب الشرع والدين أن يحفظ عهدها ، ويرعى ودّها بإبقائها على عصمة الزوجية ، وإن كان بعض السفهاء لا يحترمون تلك العشرة الطويلة ، ولا يراعون ذلك الميثاق الغليظ فيقدمون على طلاق اليائسة ، ثم إن اليائسة ، إذا طلقت فلا تكاد تتزوج ، وما خرج عن مقتضى الشرع واستقامة الطبع فلا يعتد به . » (٢)

فالشريعة الإسلامية كما يقررها القرآن لا تجعل الطلاق لهواً ولعباً ، ولا تجعله أداة عمياء فى أيدى السفهاء ، أو مجرد كلمة تقال فى ساعة غضب فتقضى على أسرة بأكملها أو تجرّد امرأة يائسة من كل مقومات حياتها ؛

(١) للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاؤا فإن الله غفور رحيم وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء الآية : سورة البقرة ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٢) هذا هو رأى الإمام محمد عبده — تفسير المنار ج ٢ ص ٣٧٠ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

بل إن الكتاب الكريم ينصح بإرسال أهل الخير للسعى بالصلح بين الزوجين اللذين يمكن طلاقهما ، وذلك إذا دبّت النفرة . فإن الله تعالى يقول: « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيراً » ولم يقل وإن يريدا طلاقا لأن أبغض الحلال إلى الله هو الطلاق . والشرع لا يبيح الطلاق إلا إذا استنفدت جميع الوسائل الأخرى ؛ لأنه جعل للرجل حق تأديب امرأته فى غير عسف بالهجر فى المضاجع والضرب الهين ، حتى إذا بدا ألا سبيل إلى تقويمها عن طريق الصلح أو التأديب جعل للزوج أن يسرحها سراحا جميلا . ثم أعطى للزوجين فرصة للتفكير فى العودة إلى الصفاء والحياة المشتركة ، فحدد الطلاق بمرتين ، يحق للزوج فيهما أن يراجع زوجه . فإذا تبين بعد ذلك كله أن مثل هذه الحياة لا يمكن أن تطاق أباح الطلاق مرة ثالثة وأخيرة ، لاتعود المرأة بعدها إلى زوجها إلا إذا تزوجت رجلا آخر ، حتى يعلما أن الطلاق ليس لعباً ولا لهوا .

فالنصوص القرآنية واضحة فى تحديد الطلاق ، وهى تتجه إلى كل ذى عقل، أى إلى هؤلاء الذين يحق تكليفهم بدين من الأديان ، وهى - كما نرى - لا تتسع لما درج عليه المسلمون من أن يأتى الرجل منهم فيوقع الطلاق على امرأته طلقتين أو ثلاثا - كما يبرر له الفقهاء - وربما دون مبرر أو موجب، أو لأمر لا يتصل بالحياة الزوجية من قريب أو بعيد . فيقال له بعد ذلك إن امرأته طالق ثنتين أو ثلاثة ، مع أن العقل والطبع لا يبرران فصم رباط الأسرة بمثل هذا الجور أو الحمق .

وهذا هو ما كان يسير عليه المسلمون فى عهد الرسول فلقد روى النسائى

http://www.al-maktabeh.com

قال : « أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً ، فقام غضبان ، ثم قال : « أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ » أى أن الرغبة فى التلاعب فى الطلاق وفى إلحاق الضرر بالمرأة أمر قديم .(١)

ومع وضوح نصوص القرآن فإن الفقهاء نسوا ذلك الوضوح ، كما نسوا غضبة الرسول من هؤلاء الذين يتلاعبون بالقرآن . فأخذوا يشرعون لهؤلاء الذين وصفهم محمد عبده قبلنا بأنهم هم السفهاء من الناس : وجعلوا يغربون فى أحكام الطلاق إغراباً لاحدّ له . ذلك أنهم أبوا إلا أن يفرعوا فى البحث ، وإلا أن يفرطوا فى الجدل ، حتى لا يكونوا أقل نصيباً فى العلم من زملائهم من أهل الجدل فى العقائد ؛ وهذا هو منشأ تلك المسائل العديدة التى حجبت المبادىء التشريعية الجليلة التى حدّدها القرآن وأكدها الرسول ، تلك المبادىء التى كان ينبغى للمسلمين أن يلتزموها للفصل فى مشاكل الطلاق. لكن هذه المبادىء احتجبت خلف ستار من اللجج والجدل الذى فتح الطريق واسعة أمام صيغ الطلاق المتخيلة وغير المتخيلة ، والتى جعلت الفراق بين الزوجين أمراً يترتب على سفه الزوج أو حمقه أو تلاعبه بالألفاظ .

فإذا نحن انتقلنا من تلك المبادىء التشريعية السامية إلى التطبيق لدى الفقهاء وجدنا ، والحق يقال ، هبوطا فريدا فى التفكير على نحو يفجأ النّظر . مثال ذلك إذا قال رجل إنه إن شرب الماء الذى فى هذا الكوز اليوم فامرأته طالق ،

---

(١) كان طلاق الثلاث يقع طلقة واحدة فى عهد الرسول وأبى بكر وسنتين من خلافة عمر . فلما رأى هذا الأخير أن القوم يشددون على أنفسهم شدد عليهم إذ قال : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم ! فأمضاه عليهم .

تفسير المنار جـ ٢ ص ٣٨٤ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

فما الحكم ؟ إن الأمر يتطلب تفصيلا : أيحتوى الكوز على ماء حقيقة أم لا يحتوى ؟ أما فى الحالة الأولى فقد اختلف الفقهاء ، فقال بعضهم لو أريق الماء قبل مجىء الليل لم يحنث الرجل فى يمينه وبقيت امرأته حلالا له ، وقال بعضهم إنه يحنث على كل حال ، أى أن امرأته تصبح محرمة عليه . أما فى الحالة الثانية فقد اتفقوا على أنه لا يحنث . ونعتقد أنه ما كان للفقهاء أن يشغلوا أنفسهم بمثل هذا الرجل ؛ بل كان ينبغى لهم أن يقولوا بضرورة تعزيره أى عقابه ؛ لأنه يربط بين مصير أسرته وبين شرب الماء أو عدم شربه ، دون ما يوجب الربط بين هذين الأمرين .

ومثال آخر لهذا السفه الذى قد يقع فيه بعض الأزواج ، والذى يثير جدل الفقهاء ، وهو أن الرجل لو قال لزوجته : إن كنت تحبين أن يعذّبك الله فى نار جهنم فأنت طالق أو قال لها إن كنت تحبينى فأنت طالق ، فقالت أحب أن أعذب فى النار أو أحبك ، فإنها تطلق . ولا ندرى ما الذى يدفع الرجل سليم العقل إلى استخدام هذه الصيغة حتى يطلق زوجته ! أو لم يكن له أن يبحث أولا أهناك ما يوجب الطلاق حقيقة ؟ وهل هناك من وسيلة للصلح إن وجدت بعض أسباب قد تدعو إلى الطلاق ؟ أم الأولى به ، وقد يئس من إصلاح أمره معها ، أن يسرّحها سراحا جميلا دون أن يعرض عليها عذاب النار حتى تتخلص منه ، أويجازيها على حبها له بطلاقها ؟ ونقول مرة أخرى إنه ما كان للفقهاء أن يشغلوا أنفسهم بمثل هذا الزوج الذى ينبغى توبيخه ولومه ، بدلا من التشريع له .

ولا ندرى لماذا أجهد الفقهاء أنفسهم لمثل هذا الرجل الذى كان يستطيع تجنب النسل عن طريق العزل ، لكنه لم يرتض ذلك لنفسه ؛ وإنما رضى

http://www.al-maktabeh.com

أن يقـــول لامرأته إذا ولدت غلاماً فأنت طالقة طلقة واحـدة ، أما إذا ولدت جارية فأنت طالق طلقتين . ثم أراد الله لهذه البائسة أن تلد غلاماً وجارية ، ثم لم يعلم الزوج ـ وكان فى وسعه أن يعلم ـ أيهما خرج إلى الحياة أولا ؟ لكن الفقهاء رأوا أن يشرعوا له ؛ وأن يختلفوا فى التشريع له . (١)

كذلك اختلف المشرعون فيما بينهم فى أمر هذا الرجل الذى قال لزوجته : إن دخلت هذه الدار فأنت طالق ثلاثاً ، فلم تدخل ، ثم طلقها طلقتين ، ثم تزوجت زوجاً آخر ، ودخل بها ، ثم عادت إلى الأول ، فدخلت الدار فما الحكم ؟ قال بعضهم ، إنها تصبح مطلقة ثلاثاً ، وقال بعضهم : بل تطلق طلقة واحدة ، وقال بعضهم : لا تطلق لا طلقة واحدة ولا ثلاثاً ؛ لأن الزواج الثانى أبطل يمين الطلاق الذى وقع من الزوج الأول. (٢) ومن الأكيد أن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا جميعاً فى شيء واحد . وهو أنهم أغفلوا آية الصلح بين الزوجين ، وآية التسريح بالإحسان .

ومن هذا القبيل أنهم اختلفوا فى أمر هذا الرجل الذى جال بخاطره ، وربما لغير سبب ، أن يقول لامرأته : طلقى نفسك ثلاثاً إن شئت فطلقت واحدة ، فقال بعضهم لا يقع الطلاق ، وقال بعضهم : بل تقع طلقة واحدة . وعندئذ فليس لهذا العابث بأبغض الحلال إلى الله إلا أن يبقى فى الحيرة لأن المشرعين لم يجزموا له بما إذا كانت زوجته حلالا له أو حراماً عليه .

أما إذا كان من أهل المنطق أو من غير أهله ، وقال لزوجته « أنت طالق

---

(١) كتاب الهداية شرح بداية المبتدىء ج ١ صفحة ٢٠٠ .

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٢٠١ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

ما لم أطلقك، أنت طالق ، فعندئذ يفتيه الفقهاء أن امرأته أصبحت مطلقة ؛ لأنه وجد زمان لم يطلقها فيه ،وإن قلّ ، وهو زمان قوله «أنت طالق» قبل أن يفرغ منها . (١)

وإذا طاب له أن يقول لزوجته أنا منك طالق فليهدأ نفساً ، ولو كان ناوياً للطلاق حقيقة ، ذلك لأن المرأة لا تملك الطلاق . لكن إذا قال لها أنا منك بائن ، أو أنا عليك حرام ، فهي طالق ، لأن البينونة ـ ومعناها قطع الصلة بين الزوجين ـ أمر مشترك بينهما .

وأخيراً ـ وليس آخراً ـ في احتمالات الطلاق (٢) : لو طلق الرجل من زوجته جزءاً شائعاً مثل أن يقول لها أنت طالق نصفك أو ثلثك فهي طالق ؛ لأن الجزء الشائع ـ كما يقولون ـ محل لسائر التصرفات كالبيع وغيره . أما إذا قال لها يدك طالق أو رجلك طالق فقال بعضهم يقع الطلاق وقال آخر لا يقع ! !

وليس باب الطلاق وحده هو الذي يحفل بمثل هذه الاحتمالات ؛ بل نجد في باب الأيمان شيئاً لا بأس به . مثال ذلك أن الرجل لو حلف

---

(١) نفس المصدر ج ١ ص ١٨٦ .

(٢) أمثلة أخرى: لو قال لها طلقي نفسك فقالت أبنت نفسي طلقت ، وإن قالت قد اخترت نفسي لم تطلق ، ولا دخل للنية هنا مطلقاً . نفس المصدر ج ١ ص ١٩٦ .

وإذا قال لأجنبية إن دخلت الدار فأنت طالق ثم تزوجها ، فدخلت الدار لم يقع عليها الطلاق نفس المصدر ج١ ص ١٩٩ .

أما إذا قال لامرأة : يوم أتزوجك فأنت طالق، فتزوجها ليلا وقع عليها الطلاق ج١ ص١٨٦ .

ولو قال لها طلقي نفسك من ثلاث ما شئت فلها أن تطلق نفسها واحدة أو ثنتين ولا تطلق ثلاثا ، وقال آخرون بل تطلق ثلاثاً إن شاءت . ص ١٩٨ الخ .وهناك أمثلة أخرى لم نر أن نستشهد بها نظرا لمجافاتها للذوق العام .

http://www.al-maktabeh.com

ألا يأكل لحماً فأكل لحم السمك فإنه لا يحنث فى يمينه ، أما إذا أكل لحم خنزير أو لحم إنسان فإنه يحنث، لأنه لحم حقيقى إلا أنه حرام . لكن إذا أكل كبدا أو كرشا فقيل يحنث فى يمينه وقيل لا يحنث . وإذا حلف ألا يأكل أو لا يشترى شحما فإنه لا يحنث إلا فى شحم البطن عند بعضهم ، وقال بعضهم إنه يحنث لو أكل شحم الظهر أيضاً. [١]

أما إذا أقسم ألا يأكل فاكهة ، ثم أكل عنباً أو رماناً أو رطباً أو قثاء أو خيارا لم يحنث ، وإن أكل تفاحا أو بطيخاً أو مشمشاً حنث عند بعض الفقهاء ، ولم يحنث عند أخرين[٢] . وإذا حلف ليصعدن إلى السماء أو ليقلبن هذا الحجر ذهباً ، فإنه ملزم بيمينه ، ويحنث فيها عقب التلفظ بها . لكن قال بعضهم لا يقع يمينه لأن ذلك أمر مستحيل عادة ، فأشبه المستحيل حقيقة ، وقال الأولون إنه يحنث فى يمينه « لأن الصعود إلى السماء ممكن حقيقة : ألا ترى أن الملائكة يصعدون إلى السماء ، وكذا تحوّل الحجر ذهباً بتحويل الله تعالى له . وإذا كان متصوراً ينعقد اليمين موجَباً لحلفه ، ثم يحنث بحكم العجز عادة . » [٣]

واختلف الفقهاء أيضاً فى أمر ذلك الرجل الذى نذر أن ينحر ابنه فى مقام إبراهيم ، فقال أحدهم: ينحر جزوراً ، وقال آخر : ينحر شاة ، وقال ثالث ينحر مائة من الأبل ، وقال رابع : يهدى ديته ، وقال خامس : بل يحج به ، وقال سادس وسابع : لا شىء عليه لأنه نذر معصية ولا نذر فى معصية .[٤]

---

(١) كتاب الهداية ج ٢ ص ٦٨ .   (٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٦٩.
(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٧١ .
(٤) كتاب بداية المجتهد لابن رشد ج ١ ص ٣٤١ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

ونقول نحن إنه ما كان للفقهاء أن يشغلوا أنفسهم بكل حلاّف مهين يجعل الله عرضة لأيمانه . وكان الأجدر بهم أن يقرروا عقوبة التوبيخ أو التعزير لمثل هؤلاء الذين يعقدون أيمانهم فى معصية أو فى أمر مستحيل أو فى أمور تافهة تتصل بالطعام والشراب !

ومن أمثلة الغلو أو التشدد الذى لا موجب له حقيقة مسألة استخدام السواك . فإنه ورد عن الرسول عليه السلام أنه قال : لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك . ولو صح هذا الحديث لما دلّ على أكثر من إباحة استخدامه أو ندبه . ومع ذلك وجد فيه الفقهاء مجالا للاجتهاد ، بدلا من الاجتهاد فى أمر له خطره فى حياة المسلمين السياسية والاجتماعية ، فقال بعضهم إنه سنة ، وقال بعضهم يجب أن يكون السواك من عود الأراك ، وعمّم بعضهم فقال يجوز استخدام الإصبع أو غيره بشرط ألا يؤدى ذلك إلى إدماء اللثة . وتشدد آخرون فقالوا يجب ألا يكون السواك أقصر من شبر ، وإلا كان مخالفاً للسنة . وقال قوم إن السنة تقضى بألا تزيد فتحة السواك عن نصف الإبهام ، ولا يتجاوز سمكه عن غلظ إصبع . ثم افتن آخرون فى تحديد طريقة استخدامه ، فقالوا : إنه من السنة أن يبدأ المرء بإدخال السواك مبتلا فى الشدق الأيمن ثم يمر به على أسنانه ثلاث مرات ، ثم يبصق أو يتمضمض، ثم يمر به ثلاث مرات أخرى ، ويبصق أو يتمضمض من جديد ، وهكذا تتوالى المرات والبصق والتمضمض . وهنا تساءل أحد هؤلاء المجتهدين فقال : أتكفى هذه المضمضة عن سنة المضمضة فى الوضوء أم لا تكفى ؟ فمن قال إنها لا تكفى استطاع أن يحتج بأن مضمضة الوضوء

http://www.al-maktabeh.com

تقتضى إمرار الماء بالحلق للغرغرة ، ولا يتحقق ذلك الأمر باستخدام السواك . ثم اختلفوا بعد ذلك فقالوا : كم مرة يستخدم السواك فى اليوم ؟ وهل يجب استخدامه عند كل وضوء أو عند تلاوة القرآن ؟ وبلغ من تشدد هؤلاء المشرعين أنهم جعلوا استخدام السواك نوعاً من التبرك والتقرب إلى الله . ثم إن بعض المشعوذين وجدوا فيه كثيراً من المزايا السحرية : منها إنه إذا وضع قائماً ركبه الشيطان . وقال آخرون إنه إذا ألقى أورث مستخدمه الجذام! وبفضل هذا التنطع والتعنت خفى على الناس حكم استخدام السواك. وبعد أن كان أمراً مستحباً كاد يصبح أساساً من أسس الشريعة ، أو حيلة من حيل السحر والشعوذة .

وأقل من هذا التشدد والتعنت ما وقع فيه بنو إسرائيل الذين شقوا على أنفسهم فشق الله عليهم ؛ كما جاء فى قوله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما هى قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون . قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلّمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون . »[1] فكان يكفيهم أن يذبحوا أية بقرة إلا أنهم أبوا إلا التنطع

---

(١) سورة البقرة من آية ٦٧ إلى آية ٧١ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

واللجج فى السؤال . فلما شدّدوا شدّد الله عليهم . (١)

لكن لنعد إلى فقهائنا وإلى كتبهم لنقول : إنّ من يبحث عن مثل أحكامهم الغريبة هذه سوف يجد منها ما يثير عجبه . لكن ليس فى غرضنا - كما قلنا - أن نفسح لها فى كتابنا أكثر من هذا المقدار الذى لم نحاول اختياره من أشد الأحكام غرابة . ومع هذا فإن تلك الكتب ما زالت موضع تبجيل وتقديس لدى المتأخرين ، يرجعون إليها كلما حزبهم الأمر ، أو كلما طُلب إليهم أن يقرروا حكم الشريعة فى كل ما يجد من الحوادث والأعمال . وقلما يجدون فيها شيئاً يتصل بما يراد معرفة حكم الشرع فيه ، فيتمحلون وجوه الشبه بين القديم والجديد ، ويقيسون أمراً على آخر ، ولا يفكرون مطلقاً فى أن يضعوا حكما جديداً يعتمد على البحث والنظر العقلى ، ويتفق مع الحقائق العلمية التى تم الكشف عنها منذ ألّفت هذه الكتب التى تحجب ، أو تكاد تحجب ، عنهم كتاب الله وسنة رسوله .

فإذا قيل لهم إن تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية قد أدى إلى ظهور حالات جديدة لم يرد بشأنها نص فى كتب الفقهاء ، وإنه لابد من تقرير أحكام خاصة بها تلائم العصر وتوافق العقل أبوا إلا أن يقفوا موقف الجمود ، ومنعوا الاجتهاد فى تقرير أحكام شرعية لهذه الحالات الجديدة . ولو أجاز بعض المجتهدين فى عصرنا مشروعية التأمين على الحياة أو على البضائع أو على الدور ضد الحريق ، أو أفتى بجواز استثمار الأموال الراكدة عن طريق المصارف أو أحل قبول ربح ضئيل للأموال المودعة فى صناديق

(٢) راجع تفسير الإمام محمد عبده لهذه الآيات . تفسير المنار ج ١ ص ٣٥٠ .

http://www.al-maktabeh.com

التوفير ، أو أباح لبس القبعة فى أثناء الصيف هاج المقلدون الجامدون فرموه بالكفر . ولم لا يفعلون ؟ ألا يرون أن باب الاجتهاد قد سدّ ، وأن أبواب فضل الله قد أغلقت فى وجوههم ؟ لكنهم ينفرون من الاجتهاد ستراً لعجزهم واحتماء وراء المتقدمين الذين لو وجدوا فى مثل ظروفهم لاجتهدوا ولأجازوا كثيراً مما يحرمه القوم لجهلهم وتشددهم فى الدين والشعور بالحرج فى غير ما يوجب الشعور به .

ولقد ضاق الأفغانى صدراً بهؤلاء الذين يخفون جهلهم وقصورهم تحت ستار التمسك بما قال السابقون من الأئمة ، وهربا من تقرير الأحكام الشرعية طبقاً لما تقتضيه حاجات الزمان وظروفه ، فقال أيجهل هؤلاء الأدعياء أن السابقين الأولين قد اجتهدوا فى حدود ما كانت تمليه عليهم بيئتهم الاجتماعية والتاريخية ، ولم يقفوا هم أنفسهم عند أقوال من تقدمهم.(١) ولم يتوقعوا أن من سيأتى بعدهم لن يسلك مسلكهم من الاعتماد على النظر والبحث مع اطلاق الحرية للعقل . ولو استطاعوا أن يجتهدوا لكل ماسيجد فى العصور التى تليهم لفعلوا . فما الذى يحول إذن دون المتأخرين أن يجتهدوا بدورهم ، وأن يتشبهوا بهؤلاء الذين يحتجون بأقوالهم ؟ ولماذا يؤثرون الجمود والتقليد ثم يزعمون أنهم قوامون على الناس فى أمور دينهم ودنياهم ؟ لقد ترك الأولون للآخرين شيئاً كثيراً . وليست الأحكام التفصيلية التى اهتدوا إليها إلا شيئاً يسيراً ، لأنها كانت رهنا بزمانهم . والأحكام تتبدل وتتطور بتبدل الأزمان والعصور . ومن ثم فلا سبيل إلى الإصلاح

(١) انظر أيضاً ص ١٢٢ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

إلا إذا فتح باب الاجتهاد ، وإلا إذا دالت دولة المقلدين العاجزين ، التى رأى محمد عبده قبلنا ، أنها بسطت سلطانها على العالم الإسلامى منذ نحو ألف سنة ، بحيث لا يمكن القول بأنها دولة عارضة توشك أن تزول . فمنذ ذلك الحين يعلم المتأخرون مسائل الخلاف حق المعرفة ولكنهم لا يريدون أن يقطعوا برأى فيها ما دامت الكتب التى فى أيديهم لم تشر إلى الرأى الذى يجول بخاطرهم . فهم يتحرجون كل الحرج من أن يقولوا شيئاً لم يسبقهم إليه أحد .

وفى غمرة هذا الخلاف تضل العامة ولا تهتدى إلى الحق فى أمور دينها ودنياها . وقد أشار أبو العلاء إلى هذا البلاء الذى وقع فيه المسلمون بسبب جمود الفقهاء واختلافهم ، فقال يتحدث عن أتباع الشافعى وأبى حنيفة وغيرهما :

أجاز الشافعى فِعال شىء ... وقال أبو حنيفة لا يجوز
فضّل الشيبُ والشبان منّا ... وما اهتدت الفتاة ولا العجوز
لقد نزل الفقيه بدار قوم ... فكان لأمره فيهم نجوز[1]
ولم آمن على الفقهاء حبْساً ... إذا ما قيل للأمناء جوزوا

وحرص هؤلاء على إبقاء الخلاف بينهم ، وعلى احتكار العلم يريدون به عرضاً من الحياة الدنيا ، كما وصفهم ابن رشد فى عصره ، فقال : « ومعظم الفقهاء هكذا نجدهم » . ذلك أن الفقهاء يجدون فى هذا الخلاف والصراع سبيلا إلى استمرارهم فى البقاء ، وإلى كسب العيش ، وكل ما يشغلهم هو أن يفرضوا أنفسهم على الناس ، وأن يظل التحالف بينهم وبين الحاكم الزمنى . لذلك قلما تجد الفقهاء يشغلون أنفسهم بالبحث عن أسباب تدهور المسلمين

(١) قضاء حاجة له .

http://www.al-maktabeh.com

وانحطاطهم ، أو يجهدون الفكر فى تلمس الوسائل للنهوض بالأمة وإعلاء شأنها ؛ بل يعتقدون، فى أشد العصور ظلاما، أن الأمة بخير ، وأن كل ما يحل بها من البلاء أقل مما يمكن أن يحل بها لو أرادت إصلاح أمرها عن طريق غير طريقهم ، مع أن الإصلاح لا يعنيهم فى قليل أو كثير ؛ إذ يرون أن الأمور تسير دائماً على النحو الذى ينبغى أن تسير عليه ما دام الناس يتقبلون صابرين كلا من الاستبداد السياسى والروحى . فهم متفائلون دائماً مهما اشتدت الخطوب ، ويرون أنه ليس فى الإمكان أن يكون أبدع مما كان . فهم محافظون بحكم وضعهم فى الهيئة الاجتماعية ؛ بل بحسب طبيعة مهنتهم . وأهم سمات المحافظة الجمود ، أى محاربة التجديد والإصلاح . فإذا أنت رأيت فى عصر ما أن التحالف بين أهل التقليد من رجال الدين وبين حكومة إسلامية بدأت تنفك أواصره وتنحل روابطه فلك أن تطمئن إلى أن الإصلاح يسير بخطا حثيثة، وأنه يسير فى الاتجاه الصحيح .

مكتبة المهتدين الإسلامية

الفصل الثالث

طرق الإصلاح

١ ـ نهضة الشرق

١ ـ شدة القهر تؤدى إلى الانفجار :

لن ينهض الشرق من كبوته ، ولن يسترد مكانته التى طالما حنّ إليها أهله إلا إذا عرف أدواءه ومواطن الضعف فيه ، وإلا إذا علم كيف يسد تلك الثغرات العديدة التى نفذت إليه منها أطماع وجيوش الدول الأجنبية . وقد أجمع المصلحون ممن عرضوا لمشكلة تدهور المسلمين على أن الاختلاف السياسى والدينى أفضى إلى ظهور طبقتين كانتا وبالاً على الإسلام، وهما طبقة الملوك المستبدين وحلفاؤهم من العلماء المنافقين ، كذلك اتفقوا على أن هذا التحالف قضى على الروح الدينية الحقيقية ، وعكس معايير الأخلاق ، فثبّط الهمم ، وشغل الناس عن دنياهم بحجة الاستعداد لآخرتهم ، مع أن من واجب المسلم أن يعمل لهما معاً . لذلك كان من الطبيعى أن تتوالى النوازل على الأمة الإسلامية خلال العشرة القرون الماضية ، مما أدى إلى استسلامها لنفر قليل من أبنائها ، ثم زاد البلاء شدة عندما أخذ الأجانب ، فى مطلع العصر الحديث ، يعبثون بأقدارها ويسخرونها كما تسخر الأنعام أو ما هو أشد من ذلك سبيلا .

على أن هذه المصائب والكوارث المتتالية ، ولا سيما كارثة الابتلاء

http://www.al-maktabeh.com

بالسيطرة الأوروبية ، أزعجت الغافلين ، ونبهت النائمين ؛ لأن أية أمة من الأمم إنما تسلك مسلك الانحطاط والانحلال إذا غلب عليها الاستبداد السياسي أو الروحي أو كلاهما معاً . فإذا هي بلغت غاية من الخضوع والاستخذاء ، ولم يعد في القوس منزع فزعت من ركودها ، وحاولت المحافظة على بقائها . ذلك أن الأجنبي لا يريد الاستعمار فحسب ؛ بل يحرص ، في التحليل الأخير ، على إفناء الأمم التي تخضع له . فإذا استطاع أن يفنيها فعل ، كما حدث في القارات التي كشف عنها الأوروبيون منذ أواخر القرن الخامس عشر حتى الآن ، حيث أبيدت ملايين من أهل البلاد الأصلية تحت ستار نشر الحضارة الأوروبية . والحق أنهم أبيدوا ليفسحوا المجال أمام النازحين من دول ضاقت بسكانها .

فإذا عجز المستعمرون ، لسبب ما ، عن إبادة أمة بأسرها اتخذوا إلى ذلك سبلا مختلفة ، كأن يحاولوا محو خصائص هذه الأمة وتقاليدها ولغتها ودينها لكي يسهل عليهم إدخالها في فلكهم أو إدماجها في شعوبهم ، كما حاولت أن تفعل فرنسا مع بلاد الجزائر التي تقول عنها إنها مقاطعة فرنسية ، أو جزء من أرض الوطن ، لكل فرد من أفرادها أن يخضع للقوانين والتقاليد الفرنسية حتى يغدو مواطناً كأي فرنسي آخر . وتلك حيلة قد ينخدع لها بعض من لا عقل له ، ولكنها لا تخدع الفرنسيين أنفسهم أو لا يصدقها الرجل الفرنسي العادي في الأقل ، فكثيراً ما يخبرك مثل هذا الرجل متطوعا أن شعب الجزائر من جنس غير جنسه ، ودين غير دينه ، وهو لا يرضى في قرارة نفسه ، أن يقف المستعبدون على قدم المساواة مع الأحرار . كذلك أرادت انجلترا أيضاً شيئاً من هذا القبيل مع مسلمي الهند

مكتبة المهتدين الإسلامية

عندما ساعدت على نشر موجة الإلحاد بينهم لتصرفهم أولا عن دينهم ، لكى تستطيع القضاء فى يسر على كل مقاومة فى الأقطار الهندية .[١] وهكذا تفعل الدول الغربية جميعها عند ما توفد المبشرين لتمهيد الطريق أمام جيوشها وأساطيلها .

غير أن الأمة الإسلامية ، وإن كانت بلغت من الانحطاط غايته ، وأوشكت أن تبيد بسبب ظلم حكامها وأعوانهم ، فإنها كانت تحتفظ بجذوة كامنة تتمثل فى دينها الذى أتاحت له سلامة بنيته وبداهة عقائده وموافقته للطبيعة الإنسانية أن يصمد أمام كل غزو دينى أيا كان مصدره . فلما اشتد الضيق بالمسلمين ، وبلغت النفوس التراقى ، وسقطت جل البلاد الإسلامية فى يد الأجنبى أو صنائعه ، وقرب الخطر من القلب ، أى من جزيرة العرب والأماكن المقدسة ، تحركت الخواطر وانتفضت الأمة الإسلامية لتدفع عن كيانها ، فتجمّع الشمل ، وقامت جماعة من المسلمين المخلصين من مختلف الأقطار تثير الهمم ، وتدعو إلى الاتحاد والتكاتف والتعاون أمام هذا الخطر الأكبر ، فتجددت الروابط ، وتقاربت الأقطار المتباعدة والآراء المتنافرة ، فأيقظت أفكارَ العقلاء ، وحولت أفكارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ، مع ملاحظة العلل التى أدت بهم إلى ماهم فيه ، فتقاربوا فى النظر ، وتواصلوا فى طلب الحق ، وعمدوا إلى معالجة الخطأ وعلل الضعف ، راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوّة ، مؤملين أن تمهّد لهم الحوادث سبيلا حسناً ليسلكوه لحماية الدين والشرف . وإن فى الحاضر منها لنهزة تغتنم ،

---

(١) انظر كتابنا جمال الدين الأفغانى : حياته وفلسفته ص ٥٠ — ٥٥ .

http://www.al-maktabeh.com

وإليها بسطوا أكفهم لا يخالونها تفوتهم ، ولئن فاتت فكم من الغيب من مثلها . . » (١)

وهكذا نشأت جمعية العروة الوثقى من هؤلاء العقلاء الذين حددوا هذا الهدف الجليل فى كثير من الأقطار الإسلامية ، وخصوصاً فى البلاد الهندية والمصرية ، وجعلوا يبحثون عن أسباب النجاح من كل وجه ، ويبذلون الجهد فى جمع كلمة المسلمين ، مضحين بأرواحهم . وكان على رأس هذه الجماعة جمال الدين الأفغانى الذى خصص حياته للدفاع عن الإسلام وأهله فى كل قطر من أقطارهم . فكان لإنشاء هذه الجمعية ومجلتها أثر كبير فى بعث الحماس، وتوحيد القلوب،وثورة الشعوب ضد حكامهم المستبدين وملوكهم الخائرين ؛ لكى يأمنوا ظهورهم فى أثناء صراعهم مع الدول المستعمرة . وامتد لهيب الثورات فى كل مكان فى مصر،وفارس وغيرهما.ومابرحت الأمم الإسلامية التى استيقظت من هجعتها الطويلة تسير على هدى هؤلاء الأحرار المصلحين، لتنتزع بلادها بلداً بلداً من أيد الغاصبين ، فتحررت مصر والباكستان وإيران وسوريا ، وبدأت أفريقية الشمالية تجاهد بدورها لرفع يد الحكم الأجنبى عن عنقها . فاليقظة الإسلامية شاملة ما فى ذلك ريب ، ووسائل النجاح موفورة ، ولا يعدو الأمر أن يكون مسألة زمنية ؛ فسوف تسترد هذه الأمم حريتها فى المستقبل القريب أو البعيد . ولو كانت أكثر اتحاداً وتضامناً لاستطاعت أن تختصر كثيراً من المراحل والتضحيات . ولكن من يدرى فربما كان ذلك هو الطريق الطبيعى . فإن الأمة التى تفقد حريتها لمئات من السنين

---

(١) العروة الوثقى ص ٤١ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

لا تستطيع استردادها بين يوم وليلة ، كالمريض الذى ترهقه العلة ، فى سنين طوال ، فيعجز عن استرداد الصحة دفعة واحدة ؛ بل لا بد له من فترة النقاهة والتدرج ؛ إذ كثيراً ما ينتكس المريض إذا حاول ما ليس فى طاقته ، أو سلك مسلك الأصحاء فى طعامهم وشرابهم .

ومن الأكيد أن الأمم الإسلامية قد استيقظت منذ الحركة الوهابية وزادت يقظتها إبتداء من أواخر القرن الماضى ، ولا ريب فى أنها يقظة حقيقية غير مفتعلة ، وفى أن تلك الأمم تشرف على أفاق جديدة . ومن الأكيد أيضاً أنها أخذت تشعر بقوتها الحقيقية ، وتعلم أن هذه القوة وليدة الاتحاد والوفاق ، وأن سبيل الخلاص إنما يكون بالعودة إلى الأخلاق الإسلامية التى انعكست معاييرها بسبب الاستبداد وازدهار طائفة من المشعوذين والمتجرين بالدين . وليس من ريب فى أن اليقظة كاملة ، وأن المحن التى اعترضت، أو قد تعترض، الأمم الإسلامية ليست من تلك المحن التى تعود بها إلى ما كانت عليه فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحالى . فقد احتملت الضيم إلى حد لا سبيل إلى الزيادة فيه مثقال خردلة . وهى تعلم أنها إذا أخطأت طريقها إلى استرداد حريتها مرة فلن تخطئه مرة أخرى ؛ إذ ستكون أكثر حذراً ، وأشد فطنة فى المرة التالية . ذلك أنه إذا طاح أو هوى زعيم من زعمائها فسيأتى من بعده زعيم آخر ، أصلب منه عودا ، وأطول باعا ، وأنفذ بصيرة ، وأكثر دهاء . وهى تعلم أنه ربما فشلت ثورة الأحرار مرة ، لكنها تنجح فى المرة التالية . وإن حوادث الشرق فى عشرات السنين الأخيرة لتشهد بأن الأمم الإسلامية تفيد من أخطائها ، وأن البذرة

http://www.al-maktabeh.com

التى غرسها زعماء الإصلاح الدينى والسياسى قد أنبتت أفضل الغرس وتبشر بأفضل الثمر .

ب — مجددون ورجعيون :

وقد لاحت معالم اليقظة فى مختلف الأقطار الإسلامية فى أوقات متقاربة ، فظهر بعض المصلحين فى الهند من أمثال أحمد خان ، ثم جاء جمال الدين الأفغانى فأيقظ الدول الإسلامية فبدأ بمصر والسودان ، وثنى بإيران ، وظل يحمل لواء الثورة على الأوضاع السياسية والاجتماعية زهاء ربع قرن أو يزيد . وفى أثناء ذلك تتلمذ عليه أحرار مصر وتركيا ممن كان لهم شأن فى النهوض بالشرق فيما بعد . حقاً أدركه اليأس من أبناء ملته فى آخر حياته ، لكن الأفكار لا تموت . وما النهضة التى نراها الآن فى مختلف بلاد المسلمين إلا من غرس يديه . على أن هناك طائفة أخرى ساهمت بقدر ما فى هذه النهضة الشاملة ، وإن كانت تختلف عن جمال الدين وتلاميذه فى أنها لم تتخذ العودة إلى الدين أساساً ومحوراً لدعوتها ؛ بل كانت طبقة من الملحدين الذين تأثروا بإلحاد أوروبا ، وظنوا أن النهضة السياسية والاجتماعية تكفى فى تنبيه هذه الأمم المغلوبة على أمرها . ومع ذلك فإنها لم تعلن إلحادها ؛ بل كثيراً ما استخدمت الدين ستاراً لتحقيق أغراضها السياسية والقومية . كذلك نلحظ لدى بعض هؤلاء الدعاة والزعماء نفراً آخر ينادون بمبادىء تشبه مبادىء الماسونية شبهاً عجيباً ، وتدعو إلى محاربة التعصب الدينى وإلى ضرورة الحياة النيابية على غرار ما فعل الماسونيون فى الغرب ، للقضاء على استبداد الأقلية التى تتحكم فى الشعوب باسم الحكم الملكى الوراثى أو باسم الدين .

مكتبة المهتدين الإسلامية

هذا إلى أن حركة الإصلاح لم تجد الطريق معبداً أمامها ، وكان من الطبيعى أن تصطدم بقوة هائلة ، وهى قوة المحافظين على القديم ممن يرون فى تغيير الأوضاع خطراً على الدين أو على أنفسهم . ولم تكن قوة الرجعيين بالأمر الذى لا يؤبه به ؛ فإن للقديم سحره وجلاله وقدسيته ، وله أنصاره وأعوانه الذين ينافحون عنه إما عن علم ، وإما عن جهل . وربما كان أعوان القديم من الجهلاء أكثرهم حدّة فى الدفاع عنه ، وأشدهم حماساً فى محاربة الإصلاح والسخرية من زعمائه وقادته . فلقد لقى جمال الدين من جهلاء الأتراك أكثر مما لقى من علمائهم ؛ إذ انساقت العامة وراء شيخ الإسلام هناك ترميه بالإلحاد والزندقة ، وتطوع بعض الكتاب للطعن فى دينه على غير معرفة بحقيقة حاله . وإذا ساهم الجهلاء فى مقاومة المصلحين فعلوا شيئاً كثيراً ، فإن التيارات الاجتماعية والعاطفة الدينية العمياء تكتسح فى طريقها كل عاطفة أخرى كعاطفة الإنصاف أو الرحمة ؛ وفيها يفقد المرء العادى حرية تفكيره ، وينصاع لما يقوله الآخرون فيردّد ما يرددون ؛ بل ليغلو فى ترديده دون بصيرة ، حتى ليظن أنه الحق نفسه . فإذا هدأت الأفكار الثائرة عاد كل من هؤلاء إلى نفسه ليرى أنه أفرط فى النقد وغلا فى اتهام الناس بالباطل . وقلّ أن يقابل الإصلاح بنفوس راضية ؛ بل إن من شأن العبقرية أو الزعامة أن يلقاها الناس بالسخط والحقد ، حتى إذا فرضت نفسها عليهم ، رضخوا لها ، وجعلوا يقولون إنها إنما جاءت تعبر عن أفكارهم وتترجم آمالهم .

كذلك لقى الإمام محمد عبده من عداء الخاصة والعامة أكثر مما لقى منهما أستاذه . فإن الخديوى عباس ركن إلى بعض الرؤساء الروحانيين ممن

http://www.al-maktabeh.com

لهم نفوذ عظيم فى نفوس العامة ، لكى يبثوا له العداوة بين الشيخ محمد عبده وبين رجال الأزهر ؛ بل يقال إنه ذهب إلى تحريض بعض أعضاء مجلس إدارة الأزهر على الاستقالة ، لكى يستعيض عنهم بآخرين يكونون أقدر على الوقوف فى طريق الإصلاح الذى كان محمد عبده ينادى بضرورة إدخاله على هذه الجامعة الإسلامية . ولم يكن شيوخ الأزهر ليغفروا له أنه جاء يحارب الجمود والتقليد ، ويحث على التجديد والاجتهاد . فظنوا أن خير سلاح يوجهونه إليه فيصميه هو أن يتهموه بالكفر ، وأن يشيعوا ذلك عنه ، حتى ينفر الناس منه جميعاً . وقد أفلحوا فى كيدهم إلى حد كبير ؛ وهنا يأتى دور الجهلة ، ومن لا خلاق لهم ممن يتجرون بالرأى العام عن طريق الصحف ؛ فانساق هؤلاء وهؤلاء ، من تلقاء أنفسهم أو بتحريض أعداء الشيخ محمد عبده ، للتشهير به ورميه بكل نقيصة ، وافتنت الصحف الهزلية فى التشنيع عليه حتى أصبح لا يطيق حياته ، دون أن يرجع عن آرائه أو تهن عزيمته ، وإن تركت هذه المقاومة العمياء آثارها العميقة فى نفسه وصحته .

لكن مثل هذه المقاومة ما كانت لتهن من عزم هؤلاء المصلحين الذين أدركوا بفطرتهم الثاقبة أن الزمن فى جانبهم ، وأن فلول الحقد والحسد والجهل سوف تولى الأدبار عما قريب ؛ ذلك أنهم فطنوا إلى ما لم يفطن إليه هؤلاء الذين تغمرهم الحياة السياسية من كل جانب ، فلا يتبينون منها شيئاً — نقول إنهم فطنوا إلى أن العالم الإسلامى قد بدأ يضطرب تحت وقع ضربات الغرب ، وأنه أخذ ينتفض مذعوراً من سباته العميق ، يريد تحطيم أغلاله وقيوده واسترداد مكانته . كذلك أدركوا أن هذه الأمة ما زالت تصلح للبقاء ؛ إذ على الرغم مما حل بها من الكوارث فما زال فى أعماقها طبقة من الذين يتوقون إلى النهوض والدفاع عن النفس ، والذين لم يأت

مكتبة المهتدين الإسلامية

الاستبداد السياسى والروحى على خير ما تنطوى عليه نفوسهم من العزم على الصمود للظلم والدجل ، ومن الرغبة فى استعادة ما فقدته أمتهم من مجد وشرف . وفى جملة القول حدس هؤلاء القادة حدسا صادقا أنه قد آن للشرق أن يقف على قدميه ، ويزيل الصعاب التى اعترضت تقدمه مئات السنين ، فى الوقت الذى استطاعت فيه دول أوروبا أن تخرج من ظلمات العصور الوسطى، وأن تتحرر من طغيان الحاكمين بأمرهم فيها .

أضف إلى ذلك أن احتكاك الشرق بالغرب لم يكن شراً كله ، بل كان فيه جانب من الخير ؛ فقد وقف المسلمون على حقيقة أذهلتهم ، وهى أن الحضارة الغربية أصبحت الحضارة العالمية ، وأن كل حضارة سواها لاتستطيع البقاء إلا إذا أخذت بالأسباب التى أدت إلى ازدهار حضارة الغرب ، من اعتماد على العلم والحرية السياسية ؛ كذلك علموا أن حضارتهم التى طالما زهوا بها ، والتى حسبوا أنها ما زالت تمثل الحضارة الإنسانية ، أصبحت لا تغنى عنهم شيئاً ، ولا سيما بعد أن تلوثت مصادرها الأولى بأوشاب وأخلاط مسختها حتى أصبح التعرف عليها يكاد يكون من أشق الأمور وأكثرها عناء ، وحتى أصبحت فى حالتها الراهنة لا تدفع عنهم شراً ولا تأتيهم بخير . ذلك أن العلم والفن أصبحا غربيين بعد أن ضاق الشرق بهما ، كما انتقلت القوة والغلبة معهما من جانب إلى آخر .

ونقول إن هؤلاء المصلحين لم يضيقوا بهذه المقاومة اليائسة التى بذلها الرجعيون للاحتفاظ بآخر معقل من معاقلهم ؛ ذلك أنهم علموا أن الشعوب الإسلامية ستدرك ـ أو أدركت بالفعل ـ أن القديم لا غناء فيه ما لم يطعم بالجديد ، وما لم تهذب أطرافه وحواشيه حتى يمكن التوفيق بينه وبين الجديد.

http://www.al-maktabeh.com

فكل محاولة يقوم بها أنصار الجمود والتقليد للوقوف فى تيار الحضارة الجديدة التى تقوم على أساس العلم ، ستلقى أسوأ مصير ؛ فإن الأمم لاتستطيع أن تعيش على القديم وحده ، وبخاصة إذا كان هذا القديم مليئاً بالأخطاء والأوهام والتقاليد التى لا تتفق فى كثير من الحالات مع الديانة الأولى . فالخير كل الخير للشرق أن يعترف أن الحياة لا توهب للضعفاء والجهلاء ، وأن محاربة العلم والحرية السياسية باسم الدين غدت أسطورة لا تخدع أحداً ، وأن هؤلاء الذين يقاومون الإصلاح ويحاربون أهله إنما يطعنون فى غير مطعن ، وينفقون جهودهم عبثاً ، وأنهم سيرجعون عن باطلهم ، طال بهم الزمان أم قصر ، وأنهم سيعلمون متى يجب أن ينقلبوا مع الريح، لكى يكونوا أول الفائزين بثمرات جهاد الآخرين .

وهذا هو ما حدث بالفعل فإنا نرى بأعيننا أن أحفاد أو أبناء هؤلاء الذين حاربوا جمال الدين ومحمد عبده وأضرابهما يقبلون على دراسة العلوم الأوروبية التى كان أجدادهم أو آباؤهم يصرحون بأنها خطر على الدين. كذلك نرى أن الدين لم يفقد شيئاً سوى تلك الأوهام والآراء المميتة التى كانت وصمة عار فى جبين السمحة الغراء . فقد أخذت موجة التصوف الكاذب تنحسر ، وبدأ أوساط الناس وعامتهم يتجهون إلى الدين الحق من تلقاء أنفسهم ، دون أن يقودهم إليه علماء الدين الرسميون ؛ بل رأينا أكثر من ذلك، وهو أن الإصلاح الدينى يسير بخطا حثيثة وأن آراء كبار المصلحين من أمثال جمال الدين ومحمد عبده تدرس جنباً إلى جنب مع آراء أرسطو وأفلاطون وكانت وديكارت فى المعاهد الدينية أيضاً. فلقد تحطمت حصون الرجعية أو فتحت فى الأقل أبوابها للعلوم الحديثة والفلسفة ، واضطرت

مكتبة المهتدين الإسلامية

أن تقبل ما كانت ترفض من قبل ؛ لأنها ما زالت شديدة الحرص على الحياة . ولا حياة فى عصرنا هذا لا للجامدين ولا للمتعصبين للجمود . ولو قام غلاة الرجعيين اليوم ينذرون الناس بخطر العلوم الحديثة على الدين لهز القوم أكتافهم سخرية ، ولو كانوا من أشد الناس عداء للعلم بالأمس .

فمن الأكيد أن روح الإصلاح قد سرت وتغلغلت فى نفوس كثير من أبناء الأقطار الإسلامية ، وأن مظاهر التطور بدأت تلوح فى مختلف مرافق الحياة ، وأن الشرق يشهد اليوم تفاعلا عجيباً بين عناصر القديم وعناصر الجديد ويعلم أن الغلبة ستكتب ، دون ريب ، لهؤلاء الذين يأخذون من الحضارة الغربية أحسن ما فيها ليوفقوا بينه وبين العناصر الإسلامية الأصيلة . ومن الطبيعى أن هذا التفاعل الكبير سوف يطهر العقائد من كثير من الشوائب والأوهام والآراء الفلسفية العتيقة التى ظنها مفكرو المسلمين فى عصورهم السابقة النتائج النهائية للحكمة والتفكير العقلى ؛ كذلك سوف يقضى على كثير من العادات الغريبة التى نمت ثم ازدهرت وتحجرت على الزمن، فى عصور التأخر والجمود . على أن هؤلاء الذين يريدون الاحتفاظ بكل شىء فى القديم ، ولو كان شراً ، ويبذلون قدر طاقتهم فى الوقوف أمام تيار الحضارة العلمية والاجتماعية الزاحفة فى بلاد الشرق يغفلون عن حقيقة كبرى ، وهى أننا إذا فرضنا جدلا أن أهل الجمود انتصروا ، وأنه أمكن الرجوع إلى الأفكار العتيقة التى سادت فى بلاد المسلمين فى أيام تدهورهم ، فإن ذلك لن يغنى عنهم شيئاً . حقاً سوف تعود البلاد الإسلامية إلى حالة من الانحطاط لايتمناها إلا مريض العقل أوالعاطفة . ولكن هل من الأكيد أن يرضى الناس جميعاً بهذا النكوص ؟ وهل من المعقول أن تقف دورة

http://www.al-maktabeh.com

الفلك ، فلا تتجدد نفس العوامل التاريخية والسياسية والاجتماعية التى أدت إلى يقظة المسلمين فى القرنين الأخيرين . إن الزمن لا يعود إلى الوراء عادة ، وقد تتخلف بعض الأمم ، وتركد وتأسن حضارتها ؛ فإن بقى فيها صبابة من عزم وطموح لم تلبث أن تتحرك عجلة التطور ، وتتوالى طلائع الإصلاح حتى تنشط الهمم الخامدة ، وتدب الحياة فى أوصال هذه الأمة التى يحرص الرجعيون على الحياة على أشلائها . وإن سنن العمران التى تبعها الشرق فى يقظته توحى بأن الريح تهب فى جانب دعاة الإصلاح ، وأن المسلمين لن يعودوا إلى ركودهم عما قريب ، ولو كره أنصار القديم .

حـ ـ الوحدة الدينية والسياسية :

وقد استيقظ المسلمون حقاً ، وبدا النصر فى جانب دعاة الإصلاح ، عندما جاءهم رائد الإصلاح السياسى والدينى فى أواخر القرن التاسع عشر ينبئهم أنهم لن ينهضوا من عثرتهم ، ولن يحتفظوا بالقليل الذى بقى فى أيديهم ، ولن يستطيعوا استعادة قليل أو كثير مما فقدوه ، إلا إذا سار الإصلاح السياسى جنباً إلى جنب مع الإصلاح الدينى ، وإلا إذا اتحد المسلمون أولا ، وعادوا إلى دينهم الحق المجرد من عناصر الشرك ومن عقيدة التواكل ، ومن عادات التخاذل والشقاق. فالإصلاح السياسى رهن بالإصلاح الدينى ، وكلاهما فى الحق مكمل للآخر .

وليس هناك فى الحقيقة ما يدعو إلى اليأس . فإن المسلمين ما زالوا ، كما يقول الأفغانى : « يملأون الأقطار التى ورثوها عن آبائهم ، وعديدهم لا ينقص عن مائتى مليون ، وأفرادهم فى كل قطر بما أشربت قلوبهم من

مكتبة المهتدين الإسلامية

عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداماً على الموت ممن يجاورهم ، وهم بذلك أشد ازدراء بالحياة الدنيا ، وأقلهم مبالاة بزخرفها ؛ جاءهم القرآن بمحكم آياته يطالب الناظرين بالبرهان على عقائدهم ، ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالأوهام ، ويدعو إلى الفضائل وعقائل الصفات ؛ فأودع فى أفكارهم جرائيم الحق ، وبذر فى نفوسهم بذور الفضائل . فهم بأصول دينهم أنور عقلا وأنبه ذهناً ، وأشد استعداداً لنيل الكمالات الإنسانية ، وأقرب إلى الاستقامة فى الأخلاق . . . لا يرغبون بسلطة غيرهم عليهم ، ولا يحوم بفكر واحد منهم أن يخضع لذى سطوة من سواهم ، وإن بلغت من الشدة أو اللين ما بلغت . ولما بينهم من الأخاء المؤزر بمناطق العقائد يحسب كل واحد منهم أن سقوط طائفة من بنى ملته تحت سلطة الأجانب سقوط لنفسه .»

وتلك هى العقلية الإسلامية التى أدت فى قديم الزمن إلى انتشار الدين الإسلامى انتشاراً لم يشهده أى دين آخر . ذلك أنه يتجه إلى الفطرة الإنسانية السليمة ، وهى تلك الفطرة التى ترى فى حرية العقل والضمير خير ضمان للعقيدة الحقة التى توجب على صاحبها ألا يذل ويخضع ويقر بالعبودية إلا لله وحده . وقد جاء الإسلام فى وقت تدهورت فيه الديانة المسيحية ، واتجهت نحو الشرك فى بيزنطة حيث انتشرت الأوهام والعقائد الوثنية والأساطير القديمة بفضل علماء الدين من اليونانيين ذوى العقول السخيفة والآراء الفاسدة ، فأصبحت المسيحية عبثاً وسخرية على حد قول لوثرب ستودارد .(١)

أما الدين الجديد فقد نجح فى طبع العرب غلاظ القلوب بطابع الرحمة

(١) حاضر العالم الإسلامى ص ٤ .

http://www.al-maktabeh.com

والتسامح والسعي إلى الخير ، فذهبت عنهم همجية الجاهلية وحدّتها ، وغدوا فاتحين رحماء لا يميلون إلى إراقة الدماء ، ولا يهدفون إلى تدمير حضارات الأمم التي دخلت تحت سلطانهم ؛ بل كان الأمر على عكس ذلك تماما ، فقد أخذ العرب ينهلون من موارد المعرفة ، وحملت الأمة الإسلامية أمانة العلم وأصبحت أكثر أمم الأرض حضارة وتقدما وعمراناً ، وكتبت الغلبة لثقافتها خمسة قرون أو أكثر ، وأخذت بيد العالم المسيحي فأخرجته من حلكة العصور الوسطى . فلما دب الضعف إلى العقائد وكثرت الفرق الدينية ، وسيطر أهل التعصب ممن تأثروا بالتقاليد المسيحية أو الهندية، على عقول العامة ، دب الوهن إلى هذه الأمة ثم طفقت تنحدر حتى قاربت الهاوية . ومع ذلك فإنها تستطيع أن تقف في طريق الانحدار دفعة واحدة ، فتسترد أنفاسها ، وتسترجع مجدها الذي طالما بكت على ضياعه عبثا، لو أنها عادت إلى الأصول الدينية الأولى وإلى الأخلاق الإسلامية التي كانت منبعاً تفيض منه قوتها وحضارتها .

فالوحدة الدينية في رأي جمال الدين هي الأساس الحق لكل نهضة سياسية ؛ بل هي منها بمثابة الروح من الجسد . ذلك أن القطيعة الدينية بين أبناء الأمة الإسلامية والخرافات التي دخلت على عقائدهم كانت أهم العوامل التي أدت إلى تفرق أجزاء هذه الأمة وتنافر ملوكها وأفرادها على نحو انتهى بتدهور الأقطار الإسلامية المتناحرة وإلى ضعفها جميعا ، ثم إلى سقوطها قطراً بعد آخر في أيدي العدو، حتى أصبح المسلمون في آخر العهد يحارب بعضهم بعضاً تحت أعلام دول أجنبية ، كما حدث في الحروب العالمية الأخيرة . وقد أحس الأفغاني من قبل بتفكك هذه الأجزاء وتناثرها

مكتبة المهتدين الإسلامية

وتقاطعها فأبى لنفسه أن ينتسب إلى جزء منها ؛ بل كان يرى أنه غريب لاوطن له ، لأنه لاوطن اليوم للمسلمين . فقد أصبحوا غرباء فى بلادهم ، وأذلاء فى أقطارهم ، يتحكم الأجنبى فى أرواحهم وأموالهم .

فلو أن المسلمين فطنوا إلى علة العلل ـ وقد فطنوا إليها بالفعل ـ لعلموا أنها تنحصر فى الاختلافات الدينية والخرافات التى مسخت عقائدهم ، واتجهت بهم إلى نوع صريح من الشرك ، يقوم فيه الأولياء أو القديسون مقام الآلهة فى ديانات الشعوب الوثنية كديانة الإغريق والرومان . ولو أنهم أرادوا لأمتهم حياة كريمة ـ وهذا هو ما يريدونه بالفعل إلا طبقة من الخونة والمرتزقة ـ لوجب عليهم أن يعودوا إلى دينهم الحق وإلى وحدتهم السياسية الأولى التى مزقتها الخلافات والمطامع والفتن . فالهدف الأول الذى يرى الأفغانى ضرورة تحقيقه ، حتى يكون النهوض بالمسلمين أمراً ممكناً ، هو أن يسعى هؤلاء لإقامة حكومة إسلامية كبرى ، تضم تحت جناحيها مختلف الولايات التى أصبحت عزلاء تنتظر سوء المصير ، إن لم يكن قد أدركها سوء المصير بالفعل .

غير أنه تبين أن تحقيق الخلافة الإسلامية فى العصر الحديث على غرار ماكانت عليه فى أيام أبى بكر وعمر بن الخطاب أمر يكاد يكون مستحيلا ؛ لذلك قنع بأن ينشىء المسلمون اتحاداً إسلاميا عاما شبيها بالنظم السياسية الحديثة لبعض الأمبراطوريات الكبرى فى عصره . فهو لايدعو إذن إلى ملك واحد يسيطر على الممالك الإسلامية جميعها ؛ لأن ذلك أمر عسير بعد ظهور القوميات فى العصر الحديث . لكنه يرجو أن يكون القرآن دستور الجميع وسلطانهم ، وأن تصبح الوحدة الدينية هدفهم الأكبر ، بينما يبذل كل ملك من ملوكهم

http://www.al-maktabeh.com

غاية الجهد للدفاع عن أقرانه ، فإن حياته بحياتهم ، وبقاءه ببقائهم . وهذه الوحدة السياسية هى التى يتطلبها الدين ؛ فإنه يأمرهم أن يعتصموا بحبل الله جميعاً وألا يتفرقوا . فجمال الدين ليس عدواً للملكية فى ذاتها ، ولكنه عدو للاستبداد السياسى أيا كان لونه ؛ فإذا صلح حال ملوك المسلمين واتحدوا فليس هناك بأس من بقائهم . وهذا فى رأينا دليل على أنه لم يرتض مبادىء الماسونية ، ولم يعمل على نجاحها ، وأنه لم ينخرط فى سلك هذه الجماعة إلا ظناً منه أنها تنادى بالمبادىء الإنسانية الحقة من حرية وإخاء ومساواة .

فالوحدة السياسية — ولو كانت بين الملوك — ضرورة توجبها العوامل التاريخية التى تكتنف المسلمين فى عصرهم الراهن . لقد اشتد بهم قهر الدول المستعمرة ، فاستيقظت ضمائرهم وسرت فيهم حمية دينهم ، فليس لهم أن يتركوا مثل هذه الفرصة التى يواتيهم الزمان بها ، وليس لهم أن يقعدوا عن العمل الحثيث للوحدة الإسلامية ، فى ظل نظام الحكم الملكى السائد فى بلادهم ، ولن يغنيهم أن ينقطعوا للبكاء على المجد الغابر ، فإن البكاء — كما يقول الأفغانى — لا يحى الميت والأسف لا يرد الغائب ، والحزن لا يدفع المصاب . كذلك ليس لهم أن يهنوا ويضعفوا فى محنتهم الراهنة ، ولا يرهبوا قوة العدو ، فإن الوجل يقرّب الأجل واليأس وضعف الهمة من أسباب الحتف . والحق أن اليأس والجبن ليسا من خلق المؤمن ، إذ لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولا يخاف الموت إلا من فقد ثقته بربه . فاليأس والجبن دليلان على الكفر : لهذا نقول إن المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام أن يقنطوا من رحمة الله فى إعادة مجدهم مع كثرة عددهم ، ولا يسوّغ لهم إيمانهم أن يرضخوا للذل ويرضوا للضيم . . . وإن من الحق أن نقول

مكتبة المهتدين الإسلامية

إن أبواب رحمة الله مفتحة لديهم ، وما عليهم سوى أن يلجوها . . . وليس عليهم فى استرجاع مكانتهم الأولى . . . إلا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم . وذلك أيسر ما يكون عليهم بعد تمكّن الجامعة الدينية بينهم» . (١)

٢ — طريق الثورات السياسية والاجتماعية

اتجاهات ثلاثة :

لقد أجمع المصلحون على ضرورة الإصلاح ، لكنهم اختلفوا فى تحديد طرقه ووسائله . فمنهم من دعا علانية إلى الثورة ضد الاستبداد السياسى والروحى ، واستخدام العنف للقضاء على تلك الفئة التى تقف فى سبيل النهضة الإسلامية . ومنهم من رأى أنه لابد من العودة إلى التعاليم والأخلاق الإسلامية حتى يلتئم الشمل ، وتنمحى الفُرقة ، وعندئذ يكون النصر السياسى أمراً محققاً . ومنهم من رأى أن محاكاة أوروبا فى علومها وصناعاتها أسلم الطرق لرفع مستوى الحياة فى الأمم المستعبدة ؛ إذ أن الفقر والجهل حليفان للاستبداد ، وأن الثروة والعلم هما عدة العصر وذخيرته .

وقد جمع جمال الدين بين هذه الاتجاهات المختلفة . ذلك أنه كان باعث الثورات السياسية فى مصر وإيران وتركيا ؛ بل هو باعث الثورات التى شهدها الشرق الأوسط وشمال أفريقية فى السنوات الأخيرة أيضاً ؛ فإن هذه الثورات ليست فى الحقيقة إلا امتدادا لحركة الشعوب الإسلامية من أواخر القرن الماضى . وليس من الغلو فى شىء أن ننسب إلى الأفغانى هذه الآثار

(١) العروة الوثقى ص ١٨٣

http://www.al-maktabeh.com

كلها فقد كان لشدة ذكائه وحدة عاطفته أكبر الأثر فى تحريك الهمم وإثارة النفوس لعدة أجيال ، شأن العباقرة الذين لا تموت آراؤهم بموتهم ؛ بل تتحقق عادة بعد أن يدركهم اليأس من تحقيقها . أما فى مرحلة اليأس من إصلاح حال المسلمين لجمودهم وفتورهم فقد كان الأفغانى شعلة لا تخبو جذوتها ، وثورة لا تهدأ حركتها : أينما ذهب تأججت النفوس ، وقام أشباه الموتى من مضاجعهم يطالبون بالحرية ، وينادون بموت الخونة ، وطرد المستعمرين الذين حسبوا أنفسهم سادة أمم منحلة . أما بعد موته فقد انقلب اليأس أملاً ، والجمود والانحلال تجديداً وحيوية ، وزادت الثورة عنفاً ، والنفوس اضطرابا .

فجمال الدين الأفغانى رسول النهضة السياسية فى الشرق ، وهو رائد التجديد الإسلامى . لقد ثار على أهل الجمود من العلماء فقاوموه مااستطاعوا . ودعا إلى تحرير الدين من الأوهام والأباطيل ، وحاول صرف الناس عن عقيدة التواكل التى ما تطرقت إلى أمة إلا كانت نذير فنائها . وكان اتجاهه الدينى هو أهم ما ورثه عنه تلميذه الشيخ محمد عبده . وربما كانت طبيعة التلميذ لا تتسع لأكثر من هذا الاتجاه . ومع ذلك فإنه لم يكن أقل خطراً من الاتجاه السياسى الذى ارتضاه آخرون كعبد الرحمن الكواكبي ، وطبّقه بالفعل مصطفى كامل وسعد زغلول فى مصر ، وجمعية تركيا الفتاة فى دار الخلافة .

أما الاتجاه العلمى فكان شديد الوضوح عند جمال الدين الأفغانى على الرغم مما قد يزعمه زاعم يريد الانتقاص من قدر هذا المصلح أو يريد أن يصوره للعامة فى مظهر عالم الدين الرجعى الذى يحارب الحضارة الأوروبية

مكتبة المهتدين الإسلامية

والعلم الحديث . ونقول ربما هوجم جمال الدين من هذه الناحية ؛ فإن بعض الناس يخلط بين موقفه من الآراء الإلحادية الأوروبية التى أخذت تنتشر بين المسلمين وبين موقفه من العلوم والفنون التى كان يعلم حق العلم أنها سبب نهضة الغرب ، والتى كان ينادى بضرورة اقتباس الشرق لها إذا أراد التحرر من إساره ثم اللحاق بأهل أوروبا . وسنفصل هذه الفكرة فى موضعها .

ولم يكن بد من أن يوجد رجل فى مثل ذكاء الأفغانى وعبقريته لكى يستطيع التأليف بين هذه الاتجاهات الثلاثة التى يحسب بعض المصلحين من الدرجة الثانية أو الثالثة استحالة التوفيق بينها . لكن جمال الدين كان أطول باعا، وأصلب عوداً ، وأجود استعداداً ، وأشد حمية ممن تتلمذوا عليه . لقد أراد محاربة الاستبداد السياسى والجمود الدينى والتدهور العقلى فى آن واحد ، وقد فعل . ولو أنه وجد من الأتباع من ينهض بحمل العبء معه فلربما لم تتطلب النهضة الإسلامية هذه السنين الطوال لكى تصبح فى وقتنا هذا حقيقة ملموسة فى مختلف الاتجاهات ؛ إذ بدأت الأقطار الإسلامية تتحرر من استبداد الملوك ومن عنت المستعمرين منذ أوائل القرن الحالى ، وأخذ علماء الدين الرسميون يفسحون المجال أمام نفر من العلماء الدينيين المجددين الذين يرون أن لا عزة لدينهم مع هوان وضعة معتنقيه ، والذين يقودون حركة الجماهير الثائرة فى بعض الأقطار الإسلامية ضد المستعمرين ، بدلا من أن يسعوا إلى التحالف معهم أو طلب العون والرزق لديهم ، على نحو ما كان يفعل بعض الشيوخ ورؤساء الطرق الصوفية منذ عهد ليس بالبعيد . كذلك جعل الشباب يتجه إلى الدراسات العملية المثمرة من طب وهندسة وعلوم وزراعة وملاحة ،بدلا من تلك الدراسات النظرية

http://www.al-maktabeh.com

التى لا تكفى وحدها فى إعداد جيل قادر على الصراع لكسب القوت فى هذه الحياة التى يكتب الفوز فيها للعمل ، لا للقول والجدل ، أو الآراء الفلسفية الإلحادية التى ربما تجد صدى فى نفوس العاجزين ممن لا يطيقون الكفاح من أجل البقاء ، فيظهرون سخطهم بالتجرؤ على مقام الإلوهية الذى خذلتهم بعد أن خذلوا أنفسهم .

٣ ــ الإصلاح السياسى

ا ــ مثال من الغرب :

ترجع نهضة أوروبا الحديثة إلى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، أى إلى العصر الذى غابت فيه شمس المسلمين فى بلاد الأندلس . فإن سقوط هذه البلاد فى يد الفرنجة كان بدءاً لعصر الكشوف الجغرافية الكبرى ثم الاستعمار . وفى أول الأمر اتجهت أنظار الأوروبيين نحو الغرب بعد كشفهم عن أمريكا عفوا ، وهكذا وضعوا أيديهم على قارتين جديدتين . ومنذ ذلك الحين كان من المستطاع أن يتنبأ المتنبئون بأن ساعة الغرب قد دقت ، وأن شمس الشرق قد غربت ، وأن أوروبا سوف تسيطر على مصير الحضارة الإنسانية .

غير أن ذلك كله كان فى حجب الغيب ، وكان أهل القارة الأوروبية فى شغل شاغل بالفتح والكشف من جانب ، وبالتحرر من سيطرة الملوك ورجال الكهنوت من جانب آخر . ولم يكتب النصر لهذه الشعوب على ملوكها ورؤسائها الروحانيين إلا فى أواخر القرن الثامن عشر ، عندما قام

مكتبة المهتدين الإسلامية

الفرنسيون بثورتهم الكبرى التى غيرت معالم أوروبا ، وهزت عروش ملوكها ؛ فلم تنقض عدة أجيال حتى اختفت الملكية الاستبدادية دون رجعة ، وقنع رجال الدين بأن يحيوا حياتهم الخاصة ، وأن يتركوا ما لقيصر لقيصر ؛ أى أنهم رضوا أن يشغلوا أنفسهم بالدين وحده .

ولم يكن التحرر من الطغيان السياسى والدينى إلا نتيجة لجهود جماعة من المفكرين الأحرار ، أو الملحدين كما يسميهم رجال الكهنوت فى أوروبا ، ونريدبهم طائفة البنائين الأحرار أو الماسونية . فقد ظهرت هذه الطائفة هناك فى الربع الأول من القرن السادس عشر ، أى فى العصر الذى نادى فيه لوثر وكالفن بضرورة الإصلاح الدينى . وكان أهم دعاتها فى إيطاليا أفراد عائلة تسمى « سوزينى » . وقد أراد هؤلاء أن يذهبوا فى الثورة على الكنيسة الكاثوليكية إلى حد أبعد مما ذهب إليه كالفن ولوثر . وكانت الفكرة الأساسية للماسونية الأوروبية هى القضاء على مبدأ الأسرار فى المسيحية ، وتأويل كل ما لا يقبله العقل منها إلى درجة أنهم أفزعوا البروتستانت أنفسهم . فمن العقائد التى أنكروها عقيدة التثليث وعقيدة الخطيئة الأولى ، وتجسد الله سبحانه فى شخص المسيح . ثم انتشرت الماسونية من إيطاليا إلى كثير من الأمم الغربية كبولنيا وانجلترا وهولندا وفرنسا وبلاد المجر وروسيا .

وإلى هذه الطائفة يرجع الفضل فى هدم الملكية وتدمير سلطان الكنيسة . ومن المحقق أن « فولتير » و « ديدرو » وغيرهما ، ممن مهدوا لقيام الثورة الفرنسية ، كانوا من أتباع الماسونية . كذلك من الأكيد أن الديانة الطبيعية [Déisme] التى نادى بها فولتير ، وأراد الاستعاضة بها عن المسيحية ، ليست إلا صورة من الفلسفة الماسونية التى تقوم على فكرة

http://www.al-maktabeh.com

الاعتراف بإله واحد ، يطلقون عليه اسم مهندس الكون الأكبر ؛ وتعتمد على أسس المعرفة العقلية التي يتخذون الهندسة والرياضة نموذجاً لها. أما في عهد الجمهورية الفرنسية الأولى التي تلت سقوط الملكية فقد استولى الماسونيون على السلطة الحقيقية ؛ ذلك أن عدداً كبيراً من ممثلي الأمة كانوا من أفرادها ، ومعهم بعض القسس الذين خرجوا على تعاليم الكنيسة . هذا إلى أن نابليون نفسه انتسب إلى الماسونية عند مروره بجزيرة مالطة ، في طريقه إلى مصر . وهذا يفسر لنا سبب اضطهاده للبابا في عصره . كذلك كان نابليون الثالث ماسونياً هو الآخر .

ب ـ ضرورة الثورة على الاستبداد :

وهذه الطائفة هي التي يشير إليها عبد الرحمن الكواكبي ، دون أن يذكر اسمها ، فهو يقول ، عند حديثه عن سبب نهضة أوروبا ، إن حكماء أوروبا المتأخرين قد حرروا الناس من الملكية والكنيسة عن طريق العلم . ثم إنه يبدو أكثر تحديداً عندما يقول : « وقد سبق هؤلاء فئة اتبعت أثر النبيين ، ولم تحفل بطول الطريق ، وقد نجحت ورسخت ، أعنى بتلك الفئة أولئك الحكماء الذين لم يأتوا بدين جديد ، ولا تمسكوا بمعاداة كل دين كمؤسسى جمهورية الفرنسيس ، بل رتقوا فتوق الدهر في دينهم وهذبوا وسهلوا ، وقربوا حتى جددوه وجعلوه صالحاً لتجديد خليق أخلاقهم . »(١) فإذا علمنا أن الماسونية هي التي وضعت أسس الجمهورية الفرنسية وأن « روبسبيير » وغيره كانوا من الماسون لم يبق لدينا شك في حقيقة هؤلاء الذين يومىء

(١) طبائع الاستبداد ص ٧٥ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

إليهم الكواكبي . وإذا علمنا من جانب آخر أن الماسون ينكرون ألوهية المسيح ، وينادون بالإخاء والحرية والمساواة ، وهي مبادىء دينية يمكن أن تنسب إلى المسيحية أو إلى الإسلام على حد سواء ، زاد يقيننا أن هذه الطائفة التي يلمح إليها الكواكبي والتي حررت أهل أوروبا كانت طائفة الماسون .

هذا إلى أن الكواكبي ينادي صراحة بأن الشرقيين ، على اختلاف مللهم من مسلمين ومسيحيين وإسرائيليين في أشد الحاجة إلى مثل هؤلاء الحكماء الذين لا يكترثون « بغوغاء العلماء الغفل الأغبياء والرؤساء الفساق الجهلاء » حتى يستطيعوا النظر في الدين وتجديده وتطهيره من الزوائد والحواشي الباطلة التي تطرأ عادة على كل دين تقادم عهده ، مما يحتم ظهور بعض المجددين المصلحين الذين يرجعون الدين إلى أصله عن طريق العلم والمعرفة . وتلك فكرة قريبة من آراء الماسونية أنفسهم .

غير أنه لا يدور بخلدنا بعد هذا كله أن نقول إن عبد الرحمن الكواكبي كان ماسونيا ، فإنه كان أقرب ما يكون إلى المذهب الوهابي . ولا يكفي أن تتحد المبادىء بحسب الظاهر ، إذا كانت تختلف بحسب الواقع أو من جهة التطبيق ، أي أن الكواكبي إذا ارتضى مثل هذه المبادىء فليس من الضروري أن يكون ماسونيا ، فإن كل مسلم عاقل مجدد يستطيع أن يقول قوله دون أن يكون ماسونيا . هذا إلى أننا بينّا أن الماسونية في الشرق لم تبلغ قط مبلغها في الغرب ، وأن السبب في ذلك يرجع إلى أن المسلمين ينكرون ألوهية المسيح ، كما أن دينهم لا يعترف مطلقاً بوجود طبقة من رجال الكهنوت الذين يفرضون فهمهم للدين على بقية الأمة ؛ لأن الدين الإسلامي هو الدين الذي يرفض الواسطة بين الله وعباده ، أيّا كانت طبيعتها . فإذا جاء

http://www.al-maktabeh.com

الكواكبى أوجمال الدين وغيرهما ينكرون على علماء الدين الأدعياء سلطانهم لم يكن ذلك مروقا أو خروجا على الدين أو انتساباً حقيقياً إلى الماسونية .

ويبدو لنا ، فيما عدا ذلك ، أنه ، وإن كان قد اطلع على مبادىء الماسونية الغربية ، فإنه لا يرتضيها ، وبخاصة إذا كانت ماسونية ملحدة . فهو يلح دائما أن نهضة الشرق بثورته على الحكم الملكى الاستبدادى وحلفائه لن تقوم إلا على اساس دينى . وهو يأخذ على الشرقيين أنهم لا يتبعون دينهم الذى يدعوهم إلى التحرر من الظلم والذل ، والذى لا يجيز العبودية ، إلا فى حالة واحدة ، أى عندما تكون لله وحده . فالمسلمون فى رأيه لا يحبون الموت ؛ بل يحرصون على الحياة ، لكنهم لا يعرفون طريق الحياة الكريمة . ولو علموا سبيلها الحق ، لعرفوا أن الهرب من الموت موت ، وطلب الحياة حياة . غير أنه إذا دعا المسلمين إلى التمسك بدينهم فإنه ينهاهم عن التعصب الممقوت ؛ فإن مصيبة الشرق واحدة ، وهى نكبته باستبداد الأمراء ، وخضوعهم لتوجيهات الغرب . وإذن فليتحد المسلمون والنصارى فى جهادهم من أجل الحرية ، وليتجه كل منهم إلى دينه ، فإن الدين لله وحده ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . (١)

فالطريق إلى الإصلاح واضحة عنده ، وهى الثورة على الحكم الفردى . غير أنه يجب الحذر ، ولا سيما إذا كان أعوان الملك المستبد وجنوده من غير أبناء الوطن . ولعل الكواكبى يشير إلى فشل الثورة العرابية بسبب عدم تجانس القوات الحربية ، ولوجود عنصر الشراكسة الذين كانوا يرون

---

(١) المصدر السابق صفحة ١٠٤ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

فى نجاح عرابى قضاء على نفوذهم . أما إذا كان المستبد قوياً بجنوده وأنصاره من الأجانب ، فقد وجب التريث ، وإعداد العدة ؛ لأن الثورة من غير استعداد وتعبئة كاملة ليست إلا فتنة تُحصد فيها أرواح الناس حصداً . ومع هذا قد يبلغ الاستبداد غايته ، فلا يجدى النصح شيئاً ، وعندئذ تنفجر الثورة انفجاراً طبيعياً . فإذا نجحت ، على الرغم من وجود هذه العقبات جميعها ، وجب على القائمين بها أن يبدأوا بالقضاء على المنافقين ، حتى يأمنوا ظهورهم ، وحتى لا يكون نفاق هؤلاء سبباً فى ضياع جهودهم .

وهناك ظروف مواتية يجب أن تترقبها الشعوب الشرقية للخلاص من مستعبديها ، وهى إن فاتتهم مرة فقد لا يضن بها الدهر مراراً أخرى . فمنها أن يخرج المستبد مغلوباً على أمره من حرب قاده إليها غروره وقصر نظره ، دون أن يستطيع إلصاق الهزيمة ببعض القواد . ومنها أن يجرؤ المستبد على خدش العواطف الدينية مما يثير حفيظة الشعب وحنقه . ومنها أن تحدث أزمة اقتصادية تعجز الطبقة المتوسطة عن احتمالها ؛ أو يظهر المستبد مودته وثقته لمن تجده الأمة عدواً لشرفها أو دينها وتقاليدها .

وقد تجتمع هذه الأسباب كلها فى أمة من الأمم الشرقية . وفى هذه الحال يكون نجاح الثورة أمراً محققا ، وبخاصة إذا قادها جماعة أفادوا من أخطاء سالفيهم من الأحرار . لكن النجاح الأول وحده ليس إلا مقدمة لكثير من المشاكل التى تعترض الأمة التى تخرج من الظلام فجأة إلى نور يكاد يعشى بصرها ، أو يذهب به . ومهارة القادة تتجلى حينئذ فى دفع هذه الأمة الحائرة نحو مصيرها فى غير هوادة أو رفق ؛ لأن التردد فى تحقيق نتائج هذا النصر يذهب بروعته

http://www.al-maktabeh.com

ويوشك أن يثير رغبة الغدر والنكوص لدى ضعاف القلوب أو أصحاب المنافع الخاصة .

كذلك لا يكفى أن تنجح ثورة من الثورات فى القضاء على القديم ومساوئه وأعوانه الذين لا تخلو منهم أمة من الأمم ؛ بل يجب أن تحدّد أهدافها منذ البدء تحديداً واضحا ومفصلا . ذلك أن الأهداف الغامضة تفضى عادة إلى انقسام القائمين بأمر الثورة . وإذا حدث أن انقسم هؤلاء فيما بينهم فإن رؤوس الخونة تطل من مخابئها تنفث السم فى نفوس الأمة ، وتحاول أن تفيد من هذا الخلاف . وكلما زاد الخلاف حدة أصبح الخونة أكبر أملا فى إثارة الفتنة ، وأطول باعا فى اختراع الأكاذيب لتهييج نفوس السذج ، سواء أكانوا من الخاصة أم من العامة ، وكلما اشتد ساعد الخيانة رجحت عوامل الشر فى هذا المجتمع الذى لم يسترد بعد حالته الطبيعية من إثر الهزة الكبرى التى قلبت فيه الأوضاع رأسا على عقب . أما إذا عظم الخلاف ففرقّ بين القائمين بأمر الثورة دون رجعة فمما لاريب فيه أن أنصار النظام القديم لن يترددوا فى إثارة الفتن الداخلية التى ربما كانت أشد خطراً على كيان الأمة من طغيان المستبدين وجبروتهم .

فمن الواجب إذن أن يُحكم الثائرون خطواتهم ، وأن يجيدوا تحديد برامجهم ، وأن يشركوا الشعب كله فى الحماس معهم لتحقيق هذه الأهداف ، وأن يشعروه دائما أنه مسئول عن مصيره ، وأن يجعلوه يعمل ويشعر أنه يعمل حقيقة ؛ إذ ليس أفتك بحيوية الشعوب من البطالة والفراغ . وهذا هو السبب فى نجاح الثورات الكبرى كالثورة الفرنسية فى مطلع القرن الماضى ؛ فإنها كانت ثورة شعب بأسره . وقد استطاع قادتها أن يشغلوا هذا الشعب

مكتبة المهتدين الإسلامية

وأن يشعروه بأنه هو الذى سينشر مبادىء الحرية والمساواة والإخاء بين بقية الشعوب الأوروبية بعد أن تتخلص مثله من الاستبداد السياسى والروحى.

تلك هى آراء الكواكبى فى ضرورة الثورات السياسية فى الشرق للخلاص من الطغيان أياً كان نوعه. غير أنه لا يذهب مطلقاً إلى تحريض الشرقيين على رجال الدين دون تفرقة. ذلك لأنه يفرّق بين نوعين من العلماء الدينيين. فهناك فريق العلماء المنافقين الذين يرى هو أن أفضل الجهاد فى هذا الزمن هو الحط من أقدارهم عند العامة. وهناك فريق العلماء العاملين الذين يجب احترامهم والاعتراف بفضلهم وحسن فهمهم للدين؛ لأنهم لا يتخذونه وسيلة من وسائل الكسب أو الرزق؛ بل يؤمنون به عن يقين، ويلتزمون مبادىء الإسلام وأهمها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فإن الملوك والأمراء إذا رأوا احترام الناس لهم وسخريتهم من العلماء الأدعياء أقبلوا عليهم أيضاً رغم أنوفهم، وأذعنوا لنصحهم طوعاً أو كرهاً.

وإنا لنجد مثلا لذلك فى أيامنا هذه عند كثير من علماء المغرب. فإن هؤلاء رغبوا عن أن يكونوا أداة فى يد الملوك أو الأمراء من حلفاء المستعمر، وذلك لأنهم احتفظوا لأنفسهم بكرامة العلماء من أهل الحل والعقد، وفرضوا أنفسهم على قومهم بالفضل والعلم. فأصبحوا أصحاب الحق فى اختيار السلطان أو عزله إن أخطأ أو حاد عن سبيل الحق. وهم الذين يدعون الناس إلى الجهاد إذا قهرهم الأجنبى المستعمر على قبول حاكم دينى لا يرتضونه؛ وهم الذين نصروا أمتهم فى المطالبة بعودة سلطانهم الذى يعقدون عليه آمالهم فى الإصلاح وفى الظفر بالحرية.

ويرى الكواكبى أن من واجب هؤلاء العلماء الذين يربأون بأنفسهم

http://www.al-maktabeh.com

عن أن يحنوا رقابهم للملوك المستبدين أن يلجأوا إلى خير السبل وأيسرها لتثقيف العلماء من الطبقة التي تليهم ، وأن يحاولوا رفعهم إلى مكانتهم في العلم والخلق ، ليكونوا من بعدهم رؤساء الأمة ووكلاءها ، أي أهل الحل والعقد فيها . وذلك لأن ضعف أو قوة الأمة الإسلامية راجع إلى ضعف أو قوة احتساب أهل العقد والحل واشتراكهم في تدبير الأمة . فإن استبداد الملوك بمصائر هذه الأمة كان سبب البلاء الأكبر الذي حاق بها ؛ في حين أن حكم الشورى كان سبباً في قوتها ومجدها » وهكذا عند التدقيق في كل فرع من الدول الإسلامية الماضية والحاضرة ؛ بل في ترجمة كل فرد من الملوك والأمراء ؛ بل في حالة كل عائلة أو كل إنسان فرد نجد الصلاح والفساد دائرين مع سنة الاستشارة والاستقلال في الرأي . »(١)

ويعتقد الكواكبي أن المسلمين لو نجحوا في ثورتهم على الاستبداد واستطاعوا الرجوع إلى حكم الشورى لما كان لهم أن يقنطوا من اللحاق بالأمم الغربية التي سبقتهم إلى الأخذ بأساليب الحكم النيابي . ذلك أن الضعف الذي يقعدهم عن النهوض يمكن أن يزول . فكم من أمة حل بها التدهور ، ثم استردت حضارتها وكيانها كالرومان واليونان وغيرهما من الأمم . ثم تأخذ الكواكبي نشوة من الأمل ، فيرى أن الفارق بين الأمة الإسلامية وبين الأمم الحية المعاصرة لا يعدو أن يكون فارقاً في العلم والأخلاق العالية . وهو في رأيه فارق هيّن يمكن القضاء عليه ؛ لأن مدة تحصيل العلم لا تزيد عن عشرين سنة ، ومدة تطهير الأخلاق أو السمو بها لا تتطلب أكثر من أربعين عاماً . ونود أن لو كان صادقاً في نبوّته ؛ وإن بدا لنا أنه

---

(١) أم القرى ص ٥٣ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

ربما كان شديد التفاؤل . ومع ذلك فإننا نعترف له أنه اهتدى إلى أهم نقط الضعف لدى المسلمين ؛ لأنه عرف أن الحرية لا تمنح عفواً ، وإنما تؤخذ عنوة ، ثم إنه لا يمكن الاحتفاظ بها فى أمة تجمع بين الجهل وسوء الخلق .

٤ — النهضة عن طريق العلم

(١) العلم والدين :

لقد أجمع المصلحون منذ أواخر القرن الماضى على أنه لن تقوم للمسلمين قائمة إلا بالعلم ، ولا يريدون به هذا العلم المتحجر الذى عرفوه فى كتب المتأخرين من الفقهاء وأهل الجدل ، ذلك العلم الذى مازال يطبع عقول ملايين من أبناء المسلمين بطابع الجمود وضيق الأفق الذى تتميز به عقلية القرون الوسطى ، وإنما يريدون به العلم الحديث ، أى العلم الأوروبى الذى يعتمد على كشف القوانين وتسخير الظواهر الطبيعية ؛ ذلك أن هذا العلم هو الذى يحرّر العقول من الأوهام والأباطيل ، وهو الذى يستطيع أن يجدّد حيوية الشعوب الإسلامية ، وأن يعين أبناءها على الاقتراب من مصادرهم الأولى التى استغلقت على أفهامهم ، مع أنها أكثر وضوحا وبداهة ، مما اخترعه ذوو اللجج من علمائهم السابقين . وقد ضربنا أمثلة من كتب الفقه تبين لنا كيف تناسى الفقهاء آيات القرآن ، وأحاديث الرسول ، فأوغلوا فى تعنتهم ولججهم حتى كرّهوا الناس فى دينهم ، وجعلوهم يحسبونه أغلالا وقيودا .

ونقول : إن المصلحين أجمعوا على ضرورة الاستعانة بالعلم الحديث ؛ لأنهم رأوا أن تقدم أهل أوروبا ، إنما يرجع إلى تحررهم من عقلية العصور الوسطى ، ومن رجال الكهنوت الذين زعموا أنهم قادة الفكر وحملة العلم

http://www.al-maktabeh.com

الدنيوى والأخروى . لذلك نرى أمثال أحمدخان فى بلادالهند يقرّر فى صرامة أن المسلمين لن ينهضوا إلا إذا أخذوا عن أوروبا علومها ومدنيتها ؛ ذلك لأن العلم لا يفقد المسلمين شخصيتهم ودينهم ؛ بل إنهم فقدوا ذلك أو كادوا يفقدونه بسبب جهلهم . ومن ثم يجب عليهم أن يشاركوا الأمم الأوروبية فى معارفها ، وأن يزاحموها ما استطاعوا فى كل فروع العلم والفن . كذلك رأى محمد عبده فى مصر أنه لا أمل فى نهضة المسلمين فى مصر إلا بإصلاح الأزهر وإدخال العلوم الحديثة وتطهير الدين من الخرافات التى تفيض بها تلك الكتب التى ينظر إليها بعض المشتغلين بدراسة الدين نظرة التقديس التى لا تقوم على الفهم ، بقدر ماتقوم على الجهل والرغبة عن تكوين رأى شخصى.

لكننا سنشير بصفة خاصة إلى موقف أكبر هؤلاء المصلحين ، ونريد به جمال الدين الأفغانى ، فقد قيل عنه إنه كان عدواً للحضارة الأوروبية (١) ، وإنه وقف فى سبيلها حتى لا تنفذ إلى بلاد المسلمين . وربما احتج هؤلاء بموقفه من أحمد خان فى الهند ، ومن آراء الفلاسفة الماديين فى رسالته للرد على الدهريين (٢) ، أو ربما احتجوا بنقده لجماعة ممن بهرتهم مظاهر الحضارة الأوروبية وقشورها ، أو ربما لم يحتجوا بشىء من هذا كله أو من غيره ، لكنهم أرادوا — لسبب لانود البحث عنه — أن ينسبوا إلى الأفغانى رأيا لم يكن من آرائه فى حقيقة الأمر . ونقول إننا لانود البحث عن العوامل التى قد تدعوهم إلى تجريح هذا الرجل ؛ لأن هناك ما هو أجدى فى نظرنا من الاستطراد فى هذه المسألة ، ونريد بذلك الأهمّ الأجدى أن

---

(١) أنظر صفحة ١٧٦ .

(٢) أنظر كتابنا جمال الدين الأفغانى : حياته وفلسفته، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

جمال الدين عرف للعلم الحديث قيمته ، وأنه لاينكر ان تقدم أوروبا يعتمد على أساس من العلم الصحيح ؛ بل إنه ليأخذ على المسلمين ، وعلى علماء الدين منهم خاصة ، أنهم يقفون من العلم موقف العداء ، بحجة المحافظة على العقيدة وعلى التقاليد . ذلك أنه لا يجهل أن هذا الدين يدعو إلى العلم ، وأن القرآن يعجب لهؤلاء الذين يسوّون بين الذين يعلمون والذين لايعلمون .

وكيف يجهل الأفغانى موقف الإسلام من العلم ، وهو الذى لايفتأ يردد فى كل مناسبة أن الإسلام ليس عدّوا للعقل أو مناهضا له ، وأنه يمتاز عن غيره من الأديان بدعوة الناس إلى البحث النظرى والبرهنة على عقائدهم ، والسعى فى تحصيل العلم ولو كان فى أقصى أطراف الأرض ؟ فهل لأحد أن يزعم ، بعد ذلك ، أن الأفغانى كان رجعيا مقلداً ، وأنه وقف فى طريق نشر الثقافة الغربية فى الشرق؟ حقا لقد دحض بعض الآراء الفلسفية الإلحادية ونعنى بها نظرية الماديين ، أو أصحاب المذهب الوضعى ، وهو ذلك المذهب العلمى المزعوم الذى ساد فى أوروبا فى أواخر القرن الماضى ؛ لكننا نعلم الآن أن كل الآراء الفلسفية الإلحادية التى حيكت حول نظرية « داروين » هى أبعد عناصر هذه النظرية عن طبيعة العلم باعتراف المشتغلين بالفلسفة فى وقتنا الحاضر . كذلك نعلم أن العلماء فى هذاالعصر قد رجعوا عن المذهب الوضعى الذى زعم أن العلم قد أدرك غايته ، فاعترفوا أن آفاق العلم ما زالت أكثر امتداداً واتساعاً مما خيل لبعض الفلاسفة كأوجست كونت وأتباعه ؛ ممن كانوا يرون أن العلم كشف عن جميع القوانين الممكنة، وأنه يستطيع أن يحل محل الدين فى وضع أسس الأخلاق دون حاجة إلى العقائد الدينية ، كالإيمان بوجود الله وخلود النفس . فإذا كانت هذه

http://www.al-maktabeh.com

الآراء الإلحادية ، أو الفكرة المفرطة عن قيمة العلم ، هى التى حاربها جمال الدين فإنا لنعجب لأمر هؤلاء الذى يرمونه بأنه كان عدواً للعلم ؛ إذ كان أولى بهم أن يعترفوا بأنه كان صادق النظرة ، وأنه سبق علماء عصرنا فى هتك ستار هذه الآراء الفلسفية الخاطئة ؟

هذا إلى أن الأفغانى يأخذ على المسلمين أنهم لا يقتبسون من الحضارة الأوروبية سوى مثل هذه الآراء الفلسفية الواهية ، ولا يرتضون منها غير كل تافه لا خطر له ؛ بل هم أسرع الناس إلى اختيار كل شىء يزيدهم انحلالا وتدهوراً ، ثم يغفلون عن العلوم الحقيقية كعلوم الطبيعة والكيمياء والهندسة والميكانيكا ، وغيرها من العلوم التطبيقية أو الفنون التى لا غنى عنها فى تسخير قوى الطبيعة ، وكسب أسباب القوة الحربية . ولو أنهم فهموا دينهم حق الفهم لعلموا أن تحصيل مثل هذه العلوم واجب دينى ، قبل أن يكون واجباً اجتماعياً ؛ لأن الإسلام يدعو أهله إلى أن يكونوا أقوياء ، وذلك أمر لا سبيل إليه إلا عن طريق العلم . فمن العبث إذن أن يقال إن جمال الدين كان عدواً للعلوم الحديثة ؛ إذ كيف ينادى مصلح من طبقته إلى العودة إلى الدين الصحيح ثم يعلنها حرباً عواناً على العلم الذى يدعو إليه هذا الدين ؟ حقاً إن من يحارب العلم رجل يجهل حقيقة الإسلام وحقيقة العلم . وما نظن أن الأفغانى قد بلغ هذا الحد من الغفلة التى ربما نسبها إليه من لا علم له بآرائه الحقيقية !

ب ـ موقف المسلمين واليابانيين من العلم الأوروبى :

فإذا بقى بعد ذلك ريب فى نفوس من يصفون جمال الدين بأنه كان عدواً

مكتبة المهتدين الإسلامية

للعلم ، فمن اليسير أن يلتمسوا رأيه فى المقارنة بين موقف المسلمين واليابانيين من حضارة الغرب . فقد فتن الأولون - كما قلنا - بالمظاهر التافهة لهذه الحضارة ، كما شغلوا عقولهم بالآراء الإلحادية ؛ بينما احتفظ الآخرون بعقائدهم الوثنية ، ووقفوا فى طريق التبشير بالدين المسيحى ، واحتفظوا بتقاليدهم العتيقة ، لكنهم حرصوا كل الحرص على تقليد الأوروبيين تقليداً صحيحاً ؛ وذلك باقتباس علومهم المختلفة . لذلك رأيناهم يرسلون البعثات العلمية بالمئات لتحصيل كل نافع ، ثم توجهوا العلوم أولا ؛ لأن حاجتهم إلى العلم كانت أشد من حاجتهم إلى الأدب أو إلى مذاهب الإلحاد ، وهذا فيما نعلم عكس الاتجاه الذى سلكه المسلمون حتى زمن قريب ، ويفسر لنا هذا المسلك لماذا ما برحنا متأخرين عن الغرب بأشواط بعيدة . أما اليابان فقد نهضت نهضة علمية حقيقية ، وأرغمت الأوروبيين على احترامها ، لأنها سابقتهم فى ميدان العلم والصناعة حتى سبقتهم .

وربما أمكن تفسير هذا الفارق بين اليابانيين والمسلمين بأن أمة اليابان لم تشهد من الكوارث التاريخية ما شهدت الأمة الإسلامية . فقد ظل اليابان مغلقاً فى وجه الغرب والمسيحية أكثر من قرنين من الزمان . ثم فتح أبوابه على العالم الخارجى ، فرأى أنه يستطيع هو الآخر أن ينشىء امبراطورية عظمى، وأن تحقيق هذا الأمل لا يكون إلا باصطناع الأساليب التى يستخدمها الغرب من إعداد القوة ، وذلك أمر لا سبيل إليه إلا بتحصيل العلم . أما بلاد المسلمين فقد فتحت أبوابها منذ أجيال بعيدة للغزو الأوروبى ، سواء أكان حربياً أم فكرياً ؛ لكنها بقيت فى أثناء ذلك بمعزل عن الحركة العلمية الصحيحة . وساعد على ركودها أن فلاسفة الغرب حرصوا على

http://www.al-maktabeh.com

التغرير بالشرق ، فأطروا أهله بأن شرقهم مهبط الوحى ومسرح الخيال ، وأن العقلية السامية لا تقوى على التعمق والتحليل وسبرغور الظواهر للكشف عن قوانينها . وفرح الشرقيون ، ومن بينهم المسلمون ، بهذا الإطراء ، وحسبوا أن خيالهم وروحانيتهم شيء أصيل فيهم ، ولو بحثوا فى أعماق نفوسهم ، فى الوقت الحاضر ، لوجدوها على غير كثير من الخيال والروحانية ، وأنهم جماعة من المرضى ، وأن الغرب قد أحسن التغرير بهم حتى يقضى على كل محاولة جدّية لتقليده تقليداً صحيحاً ، وأن له فى ذلك التغرير أساليب شتى ؛ فهو يعلم أنه لن يستمر مسيطراً على الشرق إلا إذا وقف فى سبيل نهضته عن طريق العلم . فقد شهدنا كيف اجتهد الإنجليز فى صرف المصريين عن المناهج الصحيحة ، وحاولوا أن يدخلوا فى روعهم أن بلادهم زراعية فحسب ، وأنها لا تصلح لأى نوع من الصناعة ، وبخاصة صناعة النسيج التى تتطلب جواً انجليزياً لا مصرياً ؛ ورأيناهم كيف غيّروا اتجاه التعليم ، وجعلوا يعدّون طبقة من الموظفين الذين يشبهون الآلات الصماء ، ولا يقطعون برأى دون الرجوع إلى رؤسائهم من الأجانب . وهكذا قضى على روح الابتكار وعلى الرغبة فى حرّية التصرف . وساءت الأداة الحكومية بعد خروج هؤلاء الرؤساء ، لأن المرؤسين ألفوا ألا يبتوا فى أمر من تلقاء أنفسهم ؛ بل لابد من مسئول يرجع إليه . فغدا كلٌّ يطرح المسئولية عن نفسه ليلقيها على غيره ، وبين هذا وهذا وذاك تضيع حقوق الناس .

وكيف لا يحاول الغرب خديعة الشرق ؟ إنه يوهمه أنه جاء إلى بلاده لكى ينهض بأهلها ، فيظن الشرق أن سيطرة الغرب مؤقتة ، وينسى أن هذا

مكتبة المهتدين الإسلامية

الغرب لن يفي بوعده . وكيف له أن يحترم عهداً وهو يرى رأى العين أن كلّ شعب يستعمره ، هو شعب جاهل خامل يقيم ببقاع خصبة غنية بالمعادن والثروات الطبيعية ، وبأقاليم تتسع للمشروعات الاقتصادية الكبرى؟ هذا إلى اعتدال جوها وموافقتها لحياة الجنس الأوروبى الذى يؤمن أنه أحق الناس باستغلال هذه البلاد ، وأنه ليس للشرقيين أن يحتجوا إذ لو كانوا فى مكان الأوروبيين لفعلوا مثلهم .

ح — الجمع بين التعليم النظرى والعملى :

ولما كانت حياة أهل الشرق بالعلم الصحيح موتا لحكم الغرب فيهم (١) لم يكن بد من أن يحوّروا فكرتهم عن العلم تحويراً شاملا ؛ بحيث لا يكون العلم ثقافة سطحية هى أقرب إلى الجهل منها إلى أى شيء آخر . فيجب أن يهدف التعليم عندهم إلى الجمع بين الناحيتين النظرية والعملية. ذلك أننا نميل عادة إلى تقليد الأوروبيين فى مظهرهم، فنحسب أن العلم سبيل إلى الانصراف عن العمل اليدوى ، مع أن الأكثرية الغالبة من شباب أوروبا تنفر من الوظائف الحكومية ، وتتجه نحو الأعمال الحرة ؛ لأنها أقصر الطرق إلى تحصيل الثروة والرفاهية . فيجب إذن أن نقلّد الغرب فى اتجاهاته الصحيحة وأن ننظر بعين الحذر إلى اندفاع شبابنا إلى الدراسات النظرية التى تخلق طبقة من المستهلكين لا المنتجين . وقد آن للشرق أن يعلم أن مستقبله رهن بالعمل والإنتاج ، فإن أصغر دول الغرب رقعة ربما كانت تفوق فى إنتاجها ممالك الشرق الأوسط بأسرها .

---

(١) وهذه كلمة لجمال الدين الأفغانى .

http://www.al-maktabeh.com

وليس من بأس أن يُعلّم الطفل الحدادة والنجارة وتربية الحيوان إلى جانب القراءة والكتابة والحساب « حتى يخرج رجل علم وعمل ، لا رجل غطرسة وعجرفة وكسل ، يكثر به وبأمثاله العدد ولا ينتفع به أحد »، وحتى لا تجد الأقطار الشرقية نفسها أمام تلك الأزمات الشاذة التى يسمونها « أزمات المتعلمين » ويريدون بها ، أن خرّيجى الجامعات أو المدارس العليا لا يجدون عملا يتناسب مع مؤهلاتهم العلمية . ونقول إنها أزمات شاذة ؛ لأنها غير معروفة فى الغرب بل تجرى الأمور على عكس ذلك ؛ فإننا نسمع بين حين وحين أن إقبال الشباب المتعلم على الأعمال الحرة فى المعامل والمصانع يزعج أساتذة الجامعات إلى حد كبير ؛ لأنهم يرون أن خيرة المتخرجين ينصرفون عن مهنة التدريس فى الجامعات مما ينذر بهبوط المستوى العلمى عندهم .

أما فى الشرق فما زالت العلوم النظرية والآراء الفلسفية والدراسات التاريخية تحتل المقام الأول فى المعاهد . وكثيراً ما يتجه المتخرجون فى المدارس العملية إلى الكليات النظرية للحصول على مؤهل علمى يتيح لهم الظفر بإحدى الوظائف الكتابية ، فراراً من عناء مهنتهم العملية ، ومن سوء تقدير الناس لها . وهذا هو أحد أسباب تأخر الشرق حتى الآن . فإنه بدأ يقلد الغرب قبل اليابان ، لكنه لم يصل بعد إلى ما أدركته هذه الأمة من قوة وثروة . ذلك أن العلم الصحيح هو الذى يجمع بين الجانب النظرى والعملى . وقد ازدهرت الحضارة الإسلامية فيما مضى بسبب العلم . واليوم يفوقنا الغرب أيضاً بسبب العلم ؛ لأنه مصدر القوة والسطوة ، بينما يستسلم له الشرق بسبب الجهل، وهو منبع كل ضعف وتخاذل . وقد يقال إن شباب الشرق مكره على الاتجاه إلى الدراسات النظرية لأن منافذ العمل مسدودة

مكتبة المهتدين الإسلامية

أمامه بكل سبيل : ولا ندرى إذا كان أصحاب هذا الرأى جادون فيما يقولون ؛ لأننا نرى كيف نزح الأجانب إلى بلدنا ، فوجدوا فى مجال الاقتصاد والصناعة مجالا فسيحاً كان سبباً فى ثرائهم وفى سيطرتهم على توجيه الاقتصاد القومى . فالمسألة إذن مسألة تربية وإعداد وتوجيه . وربما كان حظنا فى هذه الأمور قليلا منذ عدة أجيال .

غير أنه إذا وجب علينا أن نأخذ عن الغرب علومه النظرية والعملية فليس معنى ذلك أن نعتقد أن الحضارة الأوروبية المادية هى المثل الأعلى الذى ينبغى لنا تحقيقه فى الشرق . حقاً إن العلم قد تقدم تقدماً مذهلا فى أواخر القرن التاسع عشر ، وما برح مجال التقدم فيه غير محدود . لكن العلم لا يوصف بالخير أو الشر فى ذاته ؛ بل الإنسان هو الذى يحسن أو يسىء توجيهه . وقد رأينا كيف غلبت النزعة المادية على أهل أوروبا فسخروا العلم ، لا لنفع البشر ؛ بل استخدموه أكثر ما استخدموه فى صنع أدوات القتال ، واستعانوا به على استرقاق الأمم المتخلفة واحتكار ثرواتها الطبيعية ، أو لأشعال نيران الحروب العالمية فى قارتهم وفى غيرها . وقد غلت الأمم الغربية فى هذا الاتجاه المادى إلى حد أن كثيراً من عقلائها يرى أن الحضارة الأوروبية مهددة بالإفلاس والتدهور إن سارت فى طريق النزعة المادية حتى نهايته . ومن قبل قال جمال الدين شيئاً من هذا القبيل فى أحاديثه الخاصة . وهذا هو ما ردّده « غاندى » من بعده ، وهذا هو ما يخشاه الأوروبيون أنفسهم فى منتصف القرن العشرين . فهل يحق لأحد أن يسارع إلى اتهام الأفغانى بعدائه للعلم ، مع أنه نادى منذ ستين عاما بأن العلم الصحيح هو الذى يقود إلى السلام والرخاء ، لا إلى الحرب والفناء ؟

http://www.al-maktabeh.com

وربما كان جمال الدين الأفغانى الذى قيل إنه يحارب العلم الحديث أكثر فهما لحقيقة هذا العلم من كثير من فلاسفة الغرب فى عصره من أمثال أوجست كونت ، الذى كان يسخر من الفلكيين الذين يريدون الكشف عن أجرام سماوية جديدة ، بحجة أن هذه الكشوف لا تعود على المجتمع الإنسانى بأى نفع ما ؛ فى حين يقول الأفغانى: « كل عناصر الوجود فى هذا العالم الفانى خاضعة للعقل المطلق الإنسانى فكل مستحيل اليوم فى الطب والصناعة سوف يكون غدا ممكنا ». كذلك كان يعتقد أن كل ما يوجد على وجه الأرض له سبب ، وإن خفى ، وأنه يمكن تفسير الأشياء جميعها بإرجاعها إلى أسبابها . أما تفسير بعض الحوادث والظواهر بالصدفة والاتفاق فلا يرتضيه سوى الجاهل . فإن الصدفة لا تفسر شيئا ؛ بل هى دليل جهلنا بحقيقة الأشياء . ولذلك تكثر الصدف عند الجاهل أما فى نظر العلم فهى قليلة ، وعند القدرة الإلهية معدومة ولا وجود لها . وهذا هو ما ردده العلماء الأوروبيون بعده ، وبعبارات تشبه عباراته شبها عجيباً . (١)

كذلك اهتدى جمال الدين إلى فكرة يعتز بها علماء العصر ، وهى نسبية العلم الذى لا يكاد يقف عن حد ، والذى يكمل مع الزمن ، دون أن يصل إلى غايته أبدا ؛ فإن العلم أوسع من أن تحيط به حياة الفرد أو حياة الأمم ، وكل ما وصل إلينا من العلوم مع خدمة ألوف الرجال لها متعاقبين من علماء محققين ، وعلى مدى الأجيال العديدة لم تزل بالنسبة إلى الحقائق الثابتة فيها

---

(١) قال هنرى بوانكاريه فى كتابه « قيمة العلم » : إن القانون (الطبيعى) من أحدث الكشوف التى اهتدى إليها العقل الإنسانى . وما زالت توجد شعوب تعيش فى معجزات مستمرة ، دون أن تبدى دهشتها لذلك . أما نحن فيجب أن ندهش من اطراد الطبيعة ونظامها .

مكتبة المهتدين الإسلامية

علوما ناقصة ، أو هى فى حقيقتها قشور لتلك العلوم فى غايتها وحقيقتها .» وتلك هى الفكرة التى سادت فى أوروبا بعد موت الأفغانى ، والتى ما زالت تسود حتى الآن . (١)

وإنما أبحنا لأنفسنا أن نستطرد قليلا فى حديثنا عن فكرة جمال الدين فى العلم ، لكى نبين أنه أكثر فهما لحقيقة العلم الصحيح ورسالته مما يظن هؤلاء الذين رموه بأنه كان مناهضاً للثقافة الغربية ، وأنه حرم الشرق من اقتباس هذه الثقافة ، وأنه عاد بالمسلمين إلى الوراء ، وشغلهم عن مستقبلهم بالدعوة إلى الهياج والثورة والعودة إلى القديم . ونقول إنه أكثر فهما لقيمة العلم مما يزعم هؤلاء الذين ينسبون إليه رأيا لم يقل به ؛ لأنه لم يقف فى دعوته عند حد الحض على الثورات السياسية ؛ بل دعا المسلمين إلى الخروج من ثقافتهم الراكدة ، وحثهم على تحصيل العلوم الحقة التى ربما أتاحت لهم الدفاع عن أنفسهم .

على أنه ينبغى ألا نخصص أكثر من هذا القدر للرد على هؤلاء الذين يحاولون الحط من شأن رائد المصلحين فى العصر الأخير ؛ إذ الحكم بيننا وبينهم هو مسلك الأمم الإسلامية فى الوقت الحاضر . فإن أكثر هذه الأمم تقدما هى تلك التى تبعت تعاليم الأفغانى ، فبدأت تجمع بين الدراسات النظرية والعلمية ؛ فى حين أن أكثرها تخلفا هى تلك التى ما برحت تقنع بالدراسات النظرية السطحية التى يخيّل إليها أنها هى المعرفة الحقة . ولقد حسب بعض الناس أن هذه المعرفة النظرية تكفى فى إصلاح حال المسلمين ؛

(١) إرجع إلى كتابنا فى المنطق الحديث ومناهج البحث، الطبعة الثانية ص ١٣٦ــ١٣٧

http://www.al-maktabeh.com

لكن خفى عن أصحاب هذا الرأى أن هذه الحال بلغت من السوء مبلغا لا يجدى معه أن تنشر الأفكار الفلسفية والأخلاقية لتنبيه الأفكار وتقويم الأخلاق فى أمم عم فيها الذهول، وسيطر الجهل فيها غير منازع. فماذا تجدى هذه الأفكار فى أمة قل قارئوها، وندر الفاهمون من بين هذه القلة؟ هذا إلى أن من قد يستطيع الفهم منهم ربما حمل الكلام على غير معناه «لضيق فى التصور أو ميل مع الهوى.»

حقاً إن مثل هذه الآراء الفلسفية قد تؤتى ثمارها فى الأمم المتحضرة، التى أخذت بنصيبها من العلم والرفاهية، فهفت نفوس أفرادها إلى الاطلاع على الجديد من النظريات الأدبية والسياسية؛ لأنها تجد فى ذلك نوعا من الترف العقلى الذى ينسيها مشاكل الحياة المادية لوقت قصير تعود بعده إلى حياة الجد والعمل. وليس ذلك الشأن فيما نعلم شأن البلاد الشرقية؛ بل إن الترف العقلى فى مثل هذه الحال يشبه الطعام الجيّد الذى لا يلائم طبع المريض فتزيد العلة حدة، وتزداد الصحة سوءاً. وكيف لنا أن نحدّث ذوى البطون الخاوية والأقدام العارية عن نظريات فلسفية كنظرية النشوء والارتقاء لدى «داروين» ونظرية الواجب الأخلاقى كما كان يفهمها «كانت»؟ إن ما يحتاج إليه أصحاب هذه البطون والأقدام هو معرفة علمية عملية تقتل جوعهم، وتحفظ أقدامهم من وهج الحر وقذارة الطريق. وبعد ذلك فقط يمكن أن نحدثهم عن نظريات العصر الحديث ونظريات العصر القديم. أما قبل ذلك فلابد من أن يحيا الإنسان قبل أن يتفلسف.

مكتبة المهتدين الإسلامية

هـ — العلم وحده لا يكفى :

لقد خيل إلى الإمام محمد عبده أن الإصلاح إنما يكون بإنشاء المدارس العامة دفعة واحدة ، فى كل بقعة من بقاع الممالك الإسلامية ، وبجعلها على نسق مدارس أوروبا . وهكذا تتم المعرفة بسرعة ، وتتقدم الأخلاق تبعا لتقدم العلم . لكن أستاذه كان أبعد نظراً وأصدق حدسا ، لأنه كان يرى أن العلم لا يكفى فى النهضة بالأخلاق ، وهذا ما أثبته تطور العلم فيما بعد ؛ فإن بعض المدارس الفلسفية فى أوروبا حاولت اتخاذ العلم أساساً للأخلاق بدلا من الدين ، ونعنى بها مدرسة علم الاجتماع الفرنسى ، غير أنها لم تفلح ؛ وعاد المصلحون يقولون بضرورة الدين لبناء الأخلاق [١] . كذلك فطن الأفغانى إلى أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى كانت تسيطر فى عصره لا تتيح تحقيق فكرة تلميذه . حقاً قد تكون الفكرة جليلة فى حد ذاتها ؛ لكنها عسيرة التحقيق ومشكوك فى نتائجها ؛ إذ «.. ما أبعد ما يظنون . فإن هذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوى قاهر يحمل الأمة على ما تكره أزمانا ، حتى تذوق لذته ، وتجنى ثمرته ، ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائباً عن سلطته ، قائماً مقامها فى تنفيذ ما أراد من خيرها ؛ ويلزم له ثروة وافرة تفى بنفقات تلك المدارس وهى كثيرة . وموضوع كلامنا فى الضعف ودوائه . فهل مع الضعف قوة تقهر ، وثروة تغنى ؟ ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين . فإن قالوا يمكن التدرج مع الاستمرار والثبات وافقناهم على الإمكان لولا ما يكون ، وما هو كائن من طمع الأقوياء ، حتى لا يدعوا إليهم سبيلا لأن يستنشقوا

---

(١) أنظر كتابنا جمال الدين الأفغانى حياته وفلسفته ص ١٣١ — ١٣٢

http://www.al-maktabeh.com

نسيم القوة ، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر ؟ على أننا لو فرضنا مسالمة الدهر ، ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفى لبث تلك العلوم فى بعض الأفراد والاستزادة منها شيئا فشيئا ، فهل يصح الحكم بأن هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية ؟ » (١)

ثم إن بعض الشرقيين قد يبلغ درجة الكمال فى تحصيل العلم والفلسفة ، وربما قيل إنهم يستطيعون إرشاد إخوانهم . لكن ليس القول بمنطبق دائما على الواقع ؛ فإنه لا يكفى أن تنقل النظريات إلى بيئة ما لكى تنجح فيها ؛ بل من الضرورى أن تعدل هذه البيئة وأن تحور تحويراً أساسياً حتى تستعد لقبول العلوم الحديثة . فإن هذه العلوم نشأت فى الأمم الأوروبية فى ظروف محددة ، ثم ازدهرت بعد أن قطعت فى نموها مراحل معينة . فإذا هى نقلت دفعة واحدة ، إلى بيئة لا تناسبها فإنها توشك أن تؤدى إلى عكس الغاية المرجوة منها ؛ إذ كيف تتسرب إلى الأذهان المشحونة بأفكار وتقاليد عتيقة لا تتلاءم مع هذه الآراء الجديدة ، وبخاصة إذا كانت آراء فلسفية أو نظرية لا تتصل بحياة الأمة ؟

إن الشرق فى حاجة إلى الحياة قبل حاجته إلى الفلسفة ، وهو أشد احتياجاً إلى الفنون العملية منه إلى الآراء النظرية . وإن أفضل النظريات السياسية أو الأخلاقية لتعجز عن تعديل أخلاق الأفراد وإرشادهم إلى طرق الرشاد بل من الضرورى أن يتم التقدم المادى أولا لأنه أساس لكل تقدم ثقافى أو فلسفى . فإذا قيل إن اليابان قد نجح فى نقله للعلوم الأوروبية دفعة واحدة

---

(١) خاطرات جمال الدين ص ٣٣٣ — ٣٣٤ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

وليس هناك ما يحول دون أن يسير الشرق الإسلامى كله على نهجه قلنا إن هذا الشرق لم يفعل كما فعل أهل اليابان ، لأن بيئة اليابان تختلف عن بيئتنا ، ولأن سياسة اليابان سياسة دولة مستقلة تأخذ ما تريد وتدع ما لا تريد ؛ فى حين أن الشرق الإسلامى كان تحت سيطرة أو نفوذ الغرب . وهذا هو السبب فى أن ناقلى هذه العلوم — إن وجدوا — يعجزون عن التحرر من أوهامهم المألوفة ومما رسخ فى نفوسهم ، على عهد الصبا ، من تعظيم الأمم الغربية ؛ فيأخذون عنها علوما نظرية يسمعونها وقد لا يفهمونها ، ثم لا يراعون مناسبتها لأبناء أمتهم . هذا إلى أنهم قد يفقدون حاسة النقد والحكم السليم ، فيعتقدون أنهم أدركوا غاية العلم .

وحقيقة فشلت حركة النقل والاقتباس حتى مطلع القرن الحالى ؛ لأنها كانت تتجه إلى العلوم النظرية والآداب أكثر منها إلى الفنون العملية وإلى العلوم الطبيعية . هذا إلى أهل الشرق لم يحاولوا الجمع أو التوفيق بين الثقافتين الغربية والشرقية ، على الرغم من البعثات العديدة التى أرسلت فى القرن الماضى . ذلك لأن الشرقيين عنوا فى الواقع بالمظاهر الغربية أكثر من عنايتهم بالجوهر لذلك لم تحقق بعثاتهم نفعاً كبيراً ، ولم تتغير أحوال هذه الدول من الضعف إلى القوة . وقد تساءل الأفغانى فقال : « هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك ، وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ هل صاروا أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الحبل الجديد ؟ هل استنقذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة ؟ . . وهل أحكموا الحصون وسدوا الثغور؟» ويمضى جمال الدين فى تسائله وتعجبه ، وهو آمن من أن يجد أحداً يناقضه . فإن التاريخ يشهد بأن مصر والدولة العثمانية أخذتا فى الانحلال فى القرن التاسع عشر

http://www.al-maktabeh.com

حتى سقطت الأولى فى يد الإنجليز ، وحتى أصبحت الثانية دولة مريضة، ثم لم تلبث أن فقدت ولاياتها فى الشرق والغرب .

فإذا قيل ألم يفد الشرقيون شيئاً من اتصالهم بالحضارة الغربية ، وهل يعقل أن الاحتكاك المستمر بهذه الحضارة لم يؤد إلى ثمرة ما ، أجاب الأفغانى : نعم ربما وجد بينهم أفراد يتفيقهون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وماشاكلها ، ويصوغونها فى عبارات متقطعة بتراء لاتعرف غاياتها ، ولا تعلم بداياتها ، ووسموا أنفسهم بزعماء الحرية ، أو بسمة أخرى على حسب مايختارون ووقفوا عند هذا الحد . ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل اليهم من العلم ، فقلبوا أوضاع المساكن والمبانى ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية ، وتنافسوا فى تطبيقها على أجود ما يكون منها فى الممالك الأوروبية وعدوها من مفاخرهم .

وربما قيل إن جمال الدين يقسو على معاصريه . لكننا إذا ألقينا ببصرنا على عهد سعيد وإسماعيل رأينا كيف شيدت القصور والحدائق وجمّلت مصر، كما يقولون ، ومع ذلك فإن كلا من التجميل والتحسين لم يتجاوز بعض المدن الكبرى ، كالقاهرة والإسكندرية ؛ بينما بقى الريف المصرى فى مظهره العتيق المحزن ، حيث تتجمع الدور البائسة كقطع من الطين التى تشوه جمال الحقول. هذا وما زلنا نرى فى عصرنا ، وفى كل مرافق الحياة الخاصة أو العامة ، فى أكثر الدول الشرقية ، أن العناية بالمظهر أكثر منها بالجوهر . فتقام الأبنية الضخمة للجامعات على نمط ربما لا نجد له مثيلا فى كثير من عواصم أوروبا. فإن جامعة باريس مثلا ، على شهرتها العلمية ، لتستحى من أن تقف إلى جانب

مكتبة المهتدين الإسلامية

جامعاتنا تطاولها بروعة البناء أو شدة البذخ، لكن الفارق الكبير بين الحركة العلمية فى كل من فرنسا ومصر أكبر من أن يشار إليه .

وإنك لترى جامعات الأقاليم هناك فى قصور أثرية قديمة ، ومع ذلك فهى لا تفتر ساعة من نهار : يتردد الطلاب على معاملها ومكاتبها دون انقطاع ؛ بل إن المكاتب هناك ربما فاقت قاعات المحاضرات فى نفعها . فالمظهر لا يهمهم بقدر ما تعنيهم جدوى الدراسات ونفعها . أما فى الشرق فقد تنفق مئات الألوف من الجنيهات على بناء معهد من المعاهد العملية ، فترى بناء شامخا ، لكنه لا يحتوى على المعامل الضرورية للبحوث . ولو وجدت هذه المعامل فسرعان ما يتطرق إليها العطب بسبب الإهمال وسوء الاستخدام ، فلا يتحقق الهدف من إنشائها ؛ بل ربما جال فى خاطر المرء أنه كان من الأولى أن تنفق هذه الأموال الطائلة فى أغراض أخرى . فإن الأمة أحوج إلى المال لملء بطون الجائعين منها إلى تبديده فى تجهيز المعامل التى لا يمكن الانتفاع منها .

تلك هى الأسباب التى دعت جمال الدين إلى النظر بعين الريبة إلى هؤلاء الذين تتلمذوا على الغرب فى عصره، أو فيما قبل ذلك . وربما وجب أن نتلمس له العذر ؛ فإن ملوك المسلمين وأمراءهم ما كانوا يعنون بالعلوم الحديثة عنايتهم بمظاهر الترف . وربما كان هؤلاء الذين أُخِذوا بمظاهر الحياة الأوروبية هم الذين سيطروا على مصائر الشعوب الإسلامية ، ومهدوا لدخول الأجنبى إلى بلادهم ، كما حدث فى إيران، وفى مصر عندما كان المتعلمون فى الغرب موضع ثقة المستعمر . وحقيقة حدث شىء من هذا القبيل ،فى جميع الأقطار الإسلامية التى وقعت تحت سيطرة الغرب . غير أننا نعتقد أن جمال الدين أفرط فى غلوه

http://www.al-maktabeh.com

وتشاؤمه حتى ظنه بعض الناس عدواً للحضارة الأوروبية، وإن لم يكن هناك ما يوجب هذا الظن .

على أن تجارب الشرق منذ بدء هذا القرن أثبتت أنه من الممكن أن توجد طبقة من صميم طبقات الشعب تستطيع الاطلاع على الحضارة الغربية ، دون أن تفقد شخصيتها ، أو تنسى أصولها ومنابتها ؛ بل رأينا أن كثيراً من الشعوب التى فرضت عليها الثقافات الأجنبية فرضا ، كما هى الحال فى شمال أفريقيا ، لم تزدد إلا رغبة فى التحرر ؛ لأن الطبقة المثقفة فيها بالثقافة الأوروبية هى التى تقود الجماهير هناك . ولا ريب فى أن تطور الحياة الاجتماعية فى بلاد الشرق فى عشرات السنين الأخيرة يؤذن بظهور طبقة من المطلعين على الثقافتين الشرقية والغربية ممن يستطيعون التوفيق بين الجديد والقديم فى غير إفراط ولا تفريط . وفى رأينا أن مستقبل البلاد الإسلامية رهن بهذا التوفيق . فإنه لا يجدى فى شىء أن نظل جامدين ؛ بينما يسير العالم بأسره بخطا واسعة فى الاتجاه العلمى . وليس من حسن السياسة فى التفكير أن نحارب الجديد باسم ما ينطوى عليه القديم من خرافات وأوهام ؛ بل الأجدر الجمع بين خير العناصر فى القديم والجديد .

أما فيما يمس تشاؤم الأفغانى فهناك مايبرره ، لأنه عاش فى عصر غير عصرنا ، وفى زمن تمزقت فيه الأمة الإسلامية ، وأحدقت بها الأخطار من كل جانب . فهو فى عجلة من أمره ، لا يريد أن يتبع رأى المثبطين للهمم من القائلين بضرورة التدرج . وهو يعجب لهم كيف يرجئون الإصلاح فى أشد الأوقات حاجة إليه . إنهم لايفعلون سوى أن يلقوا على الزمن عبئا يعجزون هم عن النهوض به ، ثم يظنون أن الأيام كفيلة بحل المشاكل دون أن يبذلوا

مكتبة المهتدين الإسلامية

من ذات أنفسهم شيئا ، أو دون بذل القليل منها . لقد كان أولى بهم فى رأيه أن يبحثوا عن العوامل التى صحبت نشأة الأمة الإسلامية وأدت إلى نهوضها الأول . ولئن اهتدوا إلى هذه العوامل لعرفوا أن الدين كان سبباً فى جمع كلمة هـــذه الأمة وبسط سلطانها . فالعودة إلى الدين أقصر طرق الإصلاح وأسلمها .

٥ — النهضة عن طريق الدين

— الدين والوحدة الإسلامية :

لقد ظهر الإسلام بين أمة تشبه أن تكون أمة بدائية مزقتها العصبية الجاهلية ، وسادت فيها الفردية المفرطة فلا تعاطف ولا إخاء ، وإنما تنابذ وتفاخر بالأجداد والأسلاف ، فمحا الدين ذلك كله دفعة واحدة ، وتشربت به النفوس فغدا الناس بنعمة الله إخوانا ، وامحت العصبية القبلية ، وأصبح الفضل لذوى التقوى ، من العرب والعجم على حد سواء . وقد نجح الدين الجديد فى توحيد القلوب والتسوية بين الأجناس نجاحاً لم يحظ به دين آخر . وعلى الرغم من المحن والكوارث التى حلت بالمسلمين فى عصور تدهورهم فما زالت فى طيات نفوسهم آثار من هـذه العاطفة الإسلامية . حقا إنها آثار ضئيلة لا تدفع شراً ، ولا تأتى بخير فى عصرهم الراهن ، ولكنها بذرة صالحة يمكن أن تنمو وتزدهر ، فتقضى على عوامل الخلاف بينهم .

لذلك يرى أنصار الإصلاح الدينى ، وعلى رأسهم جمال الدين ، أن المسلمين لو عادوا — والعود يسير لا يقتضى جهداً ولا زمنا ، وإنما يتطلب

http://www.al-maktabeh.com

من كل امرئ منهم أن يضحى بعناصر الشر التى تسكن أو تختمر فى قلبه — نقول لو عادوا إلى دينهم لاستطاعوا أن يقضوا على أسباب الخلاف بينهم ، ولعلموا أنه ليست هناك وراثة فى الملك فى الإسلام ، أو امتياز فى الجنس أو قوة العصبية ؛ بل الميزة التى يفضل بها الناس بعضهم بعضا هى الوقوف عند أحكام الشريعة ، والقدرة على تنفيذها ، والعمل على النهوض بالأمة عن طريق الاشتراكية الإسلامية التى تقوم على حكم الشورى . وهذا الإخاء ، الذى يقوم على أساسه الإصلاح السياسى والاجتماعى ، هو ما يمكن تلخيصه فى قول الرسول : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية . »

فالرابطة الإسلامية الحقيقية كفيلة بالقضاء على أسباب الخلاف وعلى الصراع الطائفى أو المذهبى . وبها وحدها يستطيع المسلمون أن يكوّنوا أمة واحدة ، يحسب لها الأجنبى حسابها . وقد أحسن السلطان عبد الحميد الإفادة من هذه الرابطة للتهويل على الأمم الأوروبية عندما كان ينذرها بأن أى اعتداء أوروبى على أية ولاية عثمانية سوف يثير المسلمين فى مختلف البلاد الإسلامية وبخاصة فى الهند . وقد أفلحت هذه الحيلة فترة من الزمن ، حتى بلغت دولة آل عثمان من الضعف غاية لا تجدى معها ثورة المسلمين فى بلاد الهند أو فى غيرها . وهكذا نفهم لماذا ألح الأفغانى فى ضرورة تقوية هذه الرابطة ، ولماذا حاول جمع المسلمين على كلمة واحدة . وأيا كان الأمر فقد أبرأ ذمته ، وبذل من أجل هذه الأمة كلّ ما ينبغى أن يبذل .

ولئن أدركه اليأس من أمرها إثر هذا الجهاد المستمر فإن دعوته وجدت آذانا واعية ، وبدأت الأقطار الإسلامية طريقها نحو الاتحاد . ولم يعد

مكتبة المهتدين الإسلامية

الغرب يسخر برابطتهم ؛ بل يقدّرها قدرها ، ويعترف أنها أقوى من أية رابطة يعقدها دين آخر بين أتباعه . فمثلا يشهد لوثرب ستودارد بأن من يريد حقيقة أن يعلم الهدف الذى يرمى إليه الإسلام من الرابطة الدينية فليلق ببصره على المسلمين فى العصر الراهن ، وليستمع إلى تجاوب التعاطف والحنين بينهم حتى يقف على سر هذه الرابطة ، وعلى مكانتها فى نفوس المسلمين . ففى الحق ليس هناك دين من الأديان يؤلف بين قلوب أبنائه ويوحّد شعورهم ويحفزهم إلى التضامن والأخوّة والاستمساك بعروتها كالدين الإسلامى . ولقد فتح المسلمون من الأمصار ما فتحوا ، ودخل فى دينهم كثير من الأمم ، ثم حلت بهم الكوارث فلم نسمع أن شعبا صبأ بعد أن أسلم .

ونقول نحن من جانبنا إن الرابطة الإسلامية التى كانت غاية فى الوهن فى أواخر القرن التاسع عشر قد تأكدّت وقويت ، ولم تعد مجرد عاطفة سطحية عابرة ؛ بل أصبحت رابطة تدعو إلى العمل ، بعد أن كانت قاصرة على مجرد التحسر والشكوى . وإن فى موقف الدول الإسلامية من ثورة الجزائر ومراكش فى هذا العام دليلا على جدوى التعاوى بين المسلمين فى مختلف أقطارهم . حقا لم يتكشف الزمن بعد تماما عن نتائج هذا التضامن . ولكننا نرى أن المستعمرين بدأوا يحسبون لرغبات أهل المغرب حسابها ؛ فى حين أنهم لم يحفلوا بالرأى الإسلامى عندما قامت ثورة الريف المراكشى منذ نحو من ثلاثين عاما .

ب — الدين والإصلاح :

فالدين إذن أساس لكل إصلاح ، ولكن بشرط أن يكون بريئا من

http://www.al-maktabeh.com

محدثات البدع ؛ إذ به يأتلف الشمل ، وتنبعث النفوس إلى تفضيل الشرف على لذة الحياة نفسها ، وإلى كسب الفضائل والعلوم ، وهى سلاح المجتمع فى القديم والحديث . ولقد آن للمسلمين أن يدركوا أن ما عرض لأمتهم من التدهور إنما كان بسبب الخروج على الأصول الدينية السمحة والتشبث بالبدع التى أقامها الناس مقام الأصول والعقائد الصحيحة . فالعلاج الناجع لا يكون إذن إلا برجوع هذه الأمة إلى أصول دينها ، والأخذ بأحكامه ، وإرشاد العامة إرشاداً قويما يكفل تطهير القلوب من الدغل ، وتهذيب الأخلاق من الدنس ، ويوقد نيران الغيرة ، ويبعث المسلمين على بيع أرواحهم من أجل أمتهم .

والحق أن الإصلاح الدينى أيسر منالا وأقصر طريقا ، وفيه تفضل القدوة الحسنة كل موعظة أو خطابة . والعاطفة الدينية الملتهبة تصنع من المعجزات ما تقصر دونه أية عاطفة أخرى ؛ بل هى أساس ومنبع لكل عاطفة سامية غيرها ، سواء أكانت عاطفة وطنية أو أخلاقية . وإن من يطلب الإصلاح من غير هذه الطريق فإنما يركب من أمره شططا ، فيجعل النهاية بداية ، ويعكس أساليب التربية ، ويخالف قوانين التطور الاجتماعى . فماذا يجدى علم دون دين أو خلق ؟ إنه أولى أن يؤدى إلى عكس ما يريد المصلحون ، وربما كان سببا فى أن تزداد الأمة فساداً وانتكاسا .

وقد تخيّل جمال الدين كيف يمكن أن يتم الإصلاح عن طريق الدين ، فضرب لنا هذا المثال فقال : لو أن حاكما صغيراً من بين أمراء المسلمين اهتدى إلى طريق الإصلاح المثلى ، فجعل الأوامر الدينية قانونا لولايته ، وأخذ ينفذ حدود الدين فى غير تفرقة بين رعيته وأهله وساهم مع المحكومين

مكتبة المهتدين الإسلامية

فى التزام الأخلاق الإسلامية ، وصدف عما ابتلى به ملوك المسلمين من الرغبة فى التظاهر بالعظمة والبذخ المخجل لاستطاع أن ينال عظمة الملك وبسطة السلطان ، وأن يكتسب الأنصار والأتباع ، فى مختلف البقاع الإسلامية ، دون أن يتجشم فى ذلك تعبا أو جهداً ، أو يضطر إلى إنفاق المال لإعداد الجيوش أو التحالف مع الدول الكبرى ؛ إذ سيجد نفسه فى غنى عن ذلك كله بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع إلى الأسس الإسلامية الأولى ، وسوف يكون منهجه قدوة لغيره من أمراء المسلمين .

وهذا هو ما يعتقده دعاة الإصلاح الدينى عادة . غير أننا نراهم يضعون حلولا ساذجة لمشاكل ضخمة ، ويتخيلون طرقا مثالية بعيدة عن واقع الحياة ونواميسها . ولذا فإن فكرتهم لا تثبت أمام النقد . حقا إننا لا ننكر مطلقا أن الإصلاح الدينى أساس لكل إصلاح آخر ؛ لاعتقادنا أن الأخلاق ترتبط ارتباطا وثيقاً بالدين ، وأنه لا أمل فى نهضة أمة تدهورت أخلاقها . لكننا نرى الأفغانى يبسّط الأمور أكثر مما يقتضيه الحكم السديد الذى عرفناه له ؛ لأنه ينظر إليها من زاوية ضيقة . فإن هذا الحاكم الصغير لا يستطيع تغيير قوانين العمران أو بسط سلطانه على بقية الأقطار بمثل هذا اليسر البالغ . فإنا نرى ملوكا طبقوا الشريعة وأقاموا الحدود غير أنهم بعيدون عن أن يبسطوا سلطانهم على العالم الإسلامى . هذا إلى أن الناحية الدينية ترتبط بمختلف مظاهر الحياة الاجتماعية من اقتصاد وسياسة وثقافة ، وجميع هذه العوامل يؤثر بعضها فى بعض ، وهى لا تتطور فرادى كل فى طريقها لا تلوى على شىء ؛ بل إنها تتشابك وتتداخل وتتقاطع وتفضى إلى ظواهر جديدة .

فالعودة إلى الحياة الاجتماعية التى عرفها السلف مثال أعلى يستحيل

http://www.al-maktabeh.com

تحقيقه . ولكن من الممكن أن يعود المسلمون إلى أخلاقهم الأولى فى الوقت الذى لايهملون فيه النواحى العلمية والاقتصادية والعمرانية . وفى جملة القول لا نرى أن الإصلاح يمكن حصره فى مجال أو ميدان واحد ؛ بل من الضرورى أن يمتد إلى جميع الميادين الأخرى ؛ إذ كيف نتطلب جودة العقيدة وحسن الخلق لدى الجاهل المعدم الذى تضطره حياته أن يمد يده إلى مال غيره ؟ لاريب فى أن قطع هذه اليد خير رادع للآخرين . لكن أليس من المستحسن أيضا أن يقل عدد الأيدى المبتورة لاعن طريق الإرهاب مع البؤس الشامل ، بل بالنهضة الاقتصادية والأساليب الاجتماعية التى تتبعها الدول المتحضرة التى ترى رعاية الفقير من أهم واجباتها؟ ولو فرضنا أن أمة إسلامية استطاعت تحقيق شروط الحياة الاجتماعية التى عاش فيها المسلمون فى الصدر الأول فإن ذلك لا يحول دون أن تؤدى عوامل التطور إلى نفس النتائج ، بمعنى أن هذا المجتمع المثالى سوف يخضع لعوامل تاريخية وسياسية تجعله يتحول شيئا فشيئا حتى يشبه المجتمع الحديث .

غير أنه يجب علينا أن ننصف جمال الدين فنقول إنه نادى بضرورة الإصلاح فى النواحى السياسية والدينية والعلمية ، وكل ما يمكن أن يوجه إليه من نقد هو أنه لايلح فى بيان الصلة الوثيقة بين هذه النواحى المختلفة . ويمكن توجيه مثل هذا النقد أيضا إلى تلميذه الأكبر . فإن محمد عبده ظن أن الإصلاح السياسى يمكن أن يتم بمعزل عن الإصلاح الدينى والعلمى . وقد زادت هذه التفرقة وضوحاً فى ذهنه بعد اختلافه مع أستاذه فى باريس وعودته إلى مصر . فهو يخبرنا أن فكرة الإصلاح لديه تتلخص فى الدعوة إلى أمرين خطيرين ، وهما تحرير الفكر من التقليد ، وفهم الدين فهما يتفق

مكتبة المهتدين الإسلامية

al-maktabeh
مكتبة المهتدين

مع ما درج عليه السلف قبل ظهور الفرق الكلامية . وبهذا وحده يمكن الرجوع إلى المصادر الأولى التى ترينا أن الدين ليس عدّوا للعلم والحضارة ؛ بل باعث على الكشف عن أسرار العالم ، وداع إلى قبول الحقائق العلمية الثابتة ، ودافع إلى أكمل الخلُق وأفضل العلم . أما الأمر الآخر الذى كان يشغله فهو إصلاح أساليب اللغة العربية ، حتى يسهل فهم النصوص الدينية ، وحتى تتسع اللغة ، من جانب آخر ، لما تتطلبه الثقافة العلمية الحديثة .

كذلك ينبئنا الشيخ محمد عبده أنه عنى ، أول الأمر ، بدعوة المصريين إلى معرفة حقوقهم على حكامهم ، وضرورة احتساب نفر منهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأنه جهر بهذا القول ، والاستبداد فى أشد عنفوانه ، قبيل الثورة العرابية وفى أثنائها . ثم يستمر فيقول إنه كان روح هذه الدعوة ، وإن لم يكن إمامها المتبع أو رئيسها المطاع . غير أنه يعترف ، فى نهاية الأمر ، أنه عدل عن فكرة الإصلاح السياسى ؛ إذ لم يحن بعد وقتها فى ظنه . وهنا يحيل الإمام مشكلة هذا الإصلاح على القضاء والقدر ، لأنه أيقن أن النهضة السياسية « ثمرة تجنيها الأمة من غراس تغرسه ، وتقوم على تنميته السنون الطوال . فهذا الغراس هو الذى ينبغى أن يعنى به الآن . . . » فهو إذن من أنصار فكرة التدرج فى الإصلاح ، وهى تلك الفكرة التى لم يكن ليرتضيها جمال الدين . وفى رأينا أن التلميذ كان أقل طموحا وأملا من أستاذه ، وأنه كان يرتضى بعض آرائه ، وبخاصة رأيه القائل بأن إصلاح المسلمين من طريق دينهم أيسر وأسلم من إصلاحهم عن طريق التقليد الأعمى للحضارة الغربية .

http://www.al-maktabeh.com

حـ — التدين والتعصب :

ظن بعض المصلحين ممن تسربلوا بسرابيل الغرب ، وذهبوا فى تقليد الأوروبيين مذاهب الخبط والخلط ، أن الإصلاح المرجو لا يتم عن طريق الدين ؛ بل أولى به أن يتحقق باطّراح التعصب الدينى ، والاتجاه صراحة نحو الحضارة الغربية لاقتباسها بأكملها ، غير حافلين بالفروق العميقة التى توجد بين البيئة الإسلامية والبيئة الأوروبية ، ولا مميزين بين ما يصلح منها ومالا يصلح . ويصف الأفغانى هذه الفئة من دعاة الإصلاح بأنهم يتشدقون بأشياء لا يعلمون من حقيقتها شيئا ، ولا يفرقون فيها بين الحق والباطل ، وهم أبواق تردد ما يزعمه الغرب من تعصب المسلمين . مع أن هؤلاء هم أقل الناس تعصبا لدينهم بحسب الحق والواقع ، ولا أدل على ذلك من تفرقتهم بين العقيدة والعمل ؛ لأنهم لو كانوا يؤمنون بدينهم إيمانا تاما لما كان هذا الإيمان مجرد صيغ تجرى على الألسنة أو عبارات تُقرأ فحسب ، فى الوقت الذى نرى فيه تخاذلهم وشقاقهم .

ففكرة التعصب التى تنسب إلى المسلمين زعم يزعمه المستعمرون ، وبخاصة إذا حاول رعاياهم من المسلمين أن يجمعوا كلمتهم أو يؤلفوا جبهة منهم للمطالبة بالقوت الذى يدفع عنهم المجاعة، بينما ينعم الأجانب المستعمرون بكل خيرات بلادهم . ففى هذه الحالة يفتنّ المستعمرون فى وصفهم بالتعصب وكراهيتهم للمستعمرين لأنهم على دين غير دينهم ؛ وذلك لكى يثيروا الرأى الأوروبى المسيحى ضد هؤلاء الذين يجرأون على المطالبة بحق الحياة لأنفسهم . ثم تُعلَن التعبئة العامة ، وتجهز الجيوش وترسل لقتال هؤلاء المتمردين ، فتلقى القنابل على القرى الآمنة ، وتهدم الدور على أهلها ، وتسفك دماء

مكتبة المهتدين الإسلامية

المئات بل الألوف من الثائرين ، وبعد ذلك يقال إنهم من المتعصبين الذين يضمرون الكراهية للأوروبيين وينكرون فضل هؤلاء عليهم : ألم يعمروا الأرض، وينشئوا المدن ؟ ولكن لمن عمروا و بنوا : ألأنفسهم أم للآخرين ؟ ويثور الرأى الأوروبى المسيحى حنقا على هؤلاء الذين يدفعهم تعصبهم إلى نكران الجميل وجحود أفضال الحضارة الأوروبية . أما إذا نجح الثائرون فى فرض ثورتهم فإننا لا نسمع حديثا عن تعصبهم ؛ بل يسارع أعداء الأمس إلى أساليبهم الأخرى للاحتفاظ ببقية من النفوذ فى ديار المسلمين .

من هذا يتبين لكل ذى فطنة أن أهل المسيحية أكثر تعصبا لبنى ملتهم من المسلمين فيما بينهم . ومع ذلك فكثيرا ما ينخدع المسلمون لدعاية الغرب فيصدقون أن رابطة الدين بينهم منبع كل عناء ، وأنها حجاب كثيف أوسد منيع بينهم وبين الفوز بتقدير أمم أوروبا ، وينسون أن التعاون الذى توجبه رابطة الدين فضيلة من الفضائل ؛ لأنه خير الوسائل لحفظ كيان أية أمة من الأمم ، وهو صفة موجودة فى كل شعب من الشعوب .

فليس التمسك برابطة الدين — أو التعصب لها أن شئت — أمرا مرذولا فى ذاته ؛ وإنما يقبح إذا خرج عن حد النخوة والنجدة إلى محاولة إلحاق الضرر بأتباع الديانات الأخرى ، بل هو مثار الحمية وهو الذى ينأى بأصحابه عن التسفل والخيانة وارتكاب الدنايا مما يعود على الأمة كلها بالضرر . أضف إلى ذلك أن تماسك الأمة واتجاهها نحو الفضيلة يكون بقدر تعاون أفرادها الذين تربطهم رابطة الدين ، وهى أقوى من رابطة الجنس . فإن هذا التعاون يزيد من قوة الأمة ، بحيث يصبح كل فرد من أفرادها بمنزلة العضو فى الجسد السليم ، الذى لا يجد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم ،

http://www.al-maktabeh.com

ولا يرى القدمان فى تطرفهما انحطاطا فى رتبة الوجود»[١] فإذا انعدمت هذه الرابطة الدينية فى أمة من الأمم كان ذلك دليلا على تحلل الروابط الاجتماعية فيها ، وعلى تفرق الكلمة وتعدد الأهواء والنزعات . وعندئذ يجد الأجنبى سبيلا إلى استعبادها ، ولا تتاح لها النجاة إلا إذا تجددت الروابط بينها مرة أخرى . وفى الحقيقة لنا أن نعجب لأهل أوروبا الذين لا تخلو كتاباتهم من الحديث عن الروح المسيحية والحضارة المسيحية ، ثم نراهم يضجرون أو يسخرون من هؤلاء الذين يتحدثون عن الروح أو الرابطة الإسلامية .

غير أن للتعصب حدودا ، وخيره ما كان وسطا بين الإفراط والتفريط . فالتآخى والتعاطف والتعاون على الخير بين أفراد ملة واحدة لا يمكن أن يوصف بأنه تعصب ؛ بل هو نوع من التعاون الاجتماعى الذى تقرره الأديان جميعها ، ويوجبه كل عقل سليم . ومن ثم فإنا لا نأخذ على المسيحيين تضامنهم على الخير ، ولا نفهم كيف يأخذون على المسلمين تضامنهم على الخلاص من سيطرتهم ؛ فإن ذلك التضامن من أسمى ضروب الخير .

ثم إن التعاون بين أبناء الملة الواحدة يحتمل النقص والزيادة . فإذا انمحت الأخوة ، وحل العداء والشقاق محل المحبة والتضامن تسرب الوهن والضعف ؛ ولذا حق للأفغانى أن يصف أهل التفريط فى الرابطة الدينية بأنهم من الزنادقة الذين يزعمون أن التضامن بين أبناء كل دين يبتعد بهم عن طريق الحضارة ، ويحجبهم عن العلم والمعرفة ، ويحملهم على الجور والظلم تجاه من يخالفهم فى دينهم . ويظن هؤلاء الزنادقة أن انحلال الرابطة الدينية هو الشرط الأساسى

(١) العروة الوثقى ص ٩٩

مكتبة المهتدين الإسلامية

فى التقدم ، ويزعمون أن الفوز معقود بتخليص العقول من العقائد والعودة إلى قانون الطبيعة . وإلى مثل هذا الرأى ذهب الملحدون فى جميع الأمم فى العصرين القديم والحديث ، ولدى الإغريق والفرس والعرب، فكان مذهبهم الإلحادى سببا فى القضاء على حضارات أممهم . (١)

إن أهل أوروبا ينكرون على المسلمين اعتزازهم بدينهم ، ومحاولة نجدة إخوانهم ممن تنكل بهم دول الغرب. ومع ذلك فإن الأوروبيين يفعلون أكثر مما يفعل المسلمون . حقا إنهم يقولون إنهم يعتزون برابطة الجنس لا برابطة الدين . ولكن ذلك لايغير حقائق الأشياء ، لأن رابطة الجنس عندهم رابطة دينية فى الوقت نفسه ما دامت أوروبا مسيحية بأسرها . وإذا تظاهر أهلها بكراهية الحديث عن رابطة الدين إذا كانت خاصة بالمسلمين أو بهم هم أنفسهم فإنهم لايخدعون أحدا . هذا إلى أنهم ينظرون ، فى كثير من الأحيان ، إلى من لا يتبع دينهم المسيحى من أبناء قارتهم ، نظرتهم إلى من ليس من جنسهم، مع أنه من الثابت تاريخيا أن معظم يهود أوروبا ينحدرون من نسل آرى لاسامى ، ذلك أن الدين اليهودى كان دينا تبشيريا فى عصوره الأولى ، وقد تسلل إلى أوروبا وانتشر فى كثير من بقاعها حتى جاءت المسيحية فأوقفت زحفه .

ولا نريد أن نتطرق هنا إلى مناقشات تاريخية سبقنا إليها بعض الكتاب من المحققين(٢) ، وإنما يكفينا القول بأنهم إذا أصروا على التفرقة بين التعصب للجنس والتعصب للدين فإن رابطة الدين تشبه رابطة الجنس فى أنها من أجل

(١) انظر كتابنا عن جمال الدين الأفغانى من صفحة ١٢٩ — ١٧٤

(٢) كتب الدكتور عوض محمد عوض بحثا عن اليهودية

الفضائل وأكثرها نفعا إذا لم تتجاوز حد الاعتدال ، ولم تدفع أصحابها إلى ظلم الآخرين أو انتهاك حرمة المخالفين لهم فى العقيدة . ومن قبل حكم المسلمون شعوبا مسيحية ولم نسمع من المسيحيين أنفسهم أن حكامهم المسلمين جاروا عليهم أو أكرهوهم على ما يخالف عقائدهم . لكننا نعلم من جانب آخر أن رابطة الجنس التى يعتز بها الأوروبيون ، والتى يحاولون إقناعنا أنها ليست من الرابطة الدينية فى شىء كانت سبيلا إلى الجور ؛ بل ذريعة إلى إبادة أجناس بأسرها لكى تفسح المجال أمام الجنس الأبيض الذى اتفق أن كان يدين فى الوقت نفسه بالمسيحية .

وليت المسلمين أشبهوا المسيحيين الذين يعيشون بينهم فى ترابطهم وتعاونهم ! فإن هذا المسلك جدير بالإعجاب والمحاكاة ؛ بل إنا لنجد أن أهل الإسلام أولى بذلك لأن دينهم يدعوهم إلى محو الفروق بين الأجناس المختلفة فى ألوانها ولغاتها وعاداتها ؛ بل أديانها أيضا . وهذه — فيما نعلم ويعلم الأوروبيون المسيحيون أيضا — إحدى فضائل الإسلام الذى لا يفرق أهله بين الناس تبعا لألوانهم ؛ وإنما يرونهم جميعا إخوانا ، وهو الدين الذى وقف رسوله عند مرور جنازة يهودى فقيل له إنه يهودى ، فقال أليس نفسا ؟

ء — التعصب فى الإسلام والمسيحية :

ومهما يكن من شىء فإن الرابطة الدينية التى تجمع بين المسلمين فى مختلف بقاع الأرض ، والتى تختلف قوة وضعفا تبعا لاقترابهم أو ابتعادهم عن أصول دينهم ، هى تلك الرابطة التى يخشاها الأوروبيون ، ولا يدخرون ذخرا لتفكيك عراها وصرف المسلمين عنها . وهم سيعجزون عن تحطيمها مادام

مكتبة المهتدين الإسلامية

المسلمون يسترشدون بقبس من دينهم الذى نادى بالإخاء والمساواة وحققهما بالفعل بين أتباعه على اختلاف أجناسهم وألوانهم . وهذه الرابطة الاجتماعية الإنسانية هى التى يطلق عليها الأوروبيون اسم التعصب الدينى لدى المسلمين ، ويخلطون بينها وبين ما شهده الغرب من حروب وصراع بين المذهبين الكاثوليكى والبروتستانتى منذ بدء حركة الإصلاح الدينى . فلما انتشرت مبادىء الماسونية فى أوروبا فى القرون الأخيرة اكتسبت كلمة التعصب لديهم معنى جديدا ، وهو غلو رجال الكنيسة وأتباعهم ووقوفهم فى وجه كل إصلاح مدنى أو سياسى .

أما التعصب الدينى لدى المسلمين فله معنى آخر لا بأس من الإلحاح فى بيانه ؛ لأنه يعبر عن الأخوة الدينية التى تسوى بين الأصفر والأبيض والأحمر ؛ وهذه المساواة طبيعية بين أهل العقيدة الواحدة ؛ وهى كفيلة بتحقيق أسباب القوة لهم مما يرد عنهم طمع الأمم المخالفة لهم فى اعتقادهم . وقد أدت هذه الرابطة رسالتها ، فدفعت بأمة كانت من أعرق الأمم فى الجاهلية وغلاظة الأكباد وموات الضمير ، فجعلتها من أرقى الأمم فى وقت قصير ، ونعنى بها تلك القبائل العربية التى خرجت من شبه جزيرتها القاحلة فعمرت شطرا كبيرا من المعمورة حتى وقتنا هذا . ومع ذلك ظلت أكثر الأمم تسامحاً مع ذوى الديانات الأخرى ، فلم تخرج أحداً من دينه بالقوة أو العسف ؛ إذ كانت تعلم، بلسان كتابها، أنه لا أكراه فى الدين وأنه لو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة .

ويشهد التاريخ أن العرب لم يكرهوا أمة على ترك دينها ؛ بل اوصاهم الرسول خيرا بأهل الكتاب ، على الرغم من غدر اليهود وعدائهم لدعوة

http://www.al-maktabeh.com

الإسلام. وأكثر من ذلك رأينا كيف حمى العرب اليهود فى بلاد الأندلس، وكيف عاش أصحاب الملل الثلاث عصوراً طويلة فى الشرق والغرب فى وفاق ووئام؛ إذ تركت لغير المسلمين حريتهم الدينية لقاء جزية رمزية هى الثمن البخس للدفاع عن أموالهم وأرواحهم وعقائدهم؛ بل قل إنما هى السبيل إلى مقاومة انتشار الدين الجديد لو شاؤوا مقاومته. وذلك شأن القوى الكريم الذى لا ينازل أحداً إلا إذا وضع فى يده سلاحا يدفع به عن نفسه.

حقاً إن بعض الولاة اضطهدوا أهل الكتاب، فى فترات نادرة من التاريخ الإسلامى، ولكنهم كانوا ولاة ممن لا ثقة بعقلهم أو دينهم كالحاكم بأمر الله الذى ادعى الألوهية، وكان يغضب على المسيحيين أو اليهود فينكل بهم، ويهدم معابدهم، ثم يرضى عنهم فيقربهم إليه حسبما كان يمليه عليه مزاجه المضطرب. غير أننا لا نجد فى تاريخ المسلمين ولاة يشبهون الحاكم بأمر الله. وليس هناك من يستطيع اتهام المسلمين بأنهم فكّروا أو حاولوا التفكير فى إبادة مخالفيهم فى الدين ومحق وجودهم؛ فى حين يشهد المسيحيون أنفسهم بأنهم تدفقوا على بلاد الشرق فى القرون الوسطى لا للدعوة إلى دينهم بالحسنى، وإنما للفتك والإبادة. ذلك أن الحروب الصليبية التى اكتوى بها المسلمون والمسيحيون على حد سواء كانت وليدة التعصب الدينى، لكنه كان تعصباً دينياً من جانب واحد، أى أنه كان تعصباً دينياً مسيحياً. كذلك فتك الإسبانيون بمسلمى الأندلس. ولا ريب أننا لا نأخذ على الإسبانيين أنهم أرادوا استرداد حريتهم وبلادهم. غير أن هناك فارقاً كبيراً بين الجهاد من أجل الاستقلال السياسى، وبين التعصب الدينى العنيف الذى تمثل فى محاكم

مكتبة المهتدين الإسلامية

التفتيش وفى إبادة المسلمين فى جزيرة الأندلس أو فى إكراههم على ترك دينهم إن أرادوا البقاء بها .

ويمكن الاستشهاد لتعصب المسيحيين بما وقع فى العصور المسيحية الأولى عند ما حصلت الشوكة لأهل هذا الدين ؛ فإن صاحب السلطان من المسيحيين جمع اليهود فى القدس وأحرقهم . ومهما اشتط المسلمون فى تعصبهم فإنه « لم يصل بهم الإفراط إلى حد يقصدون فيه الإبادة وإخلاء الأرض من مخالفيهم فى دينهم ، وما عُهد ذلك فى تاريخ المسلمين بعد ما تجاوزوا حدود جزيرة العرب ، ولنا الدليل الأقوم على ما نقول ، وهو وجود الملل المختلفة فى ديارهم إلى الآن حافظة لعقائدها وعوائدها من يوم تسلطوا عليها وهم فى عنفوان القوة ، وهى فى وهن الضعف . » وعلى الرغم من الفتوح الإسلامية لم يخرج المسلمون عن المبادىء التى حدّدها لهم دينهم فى معاملة المخالفين لهم فى عقائدهم ، وكان شعارهم دائماً هو أنه من يرضى بحمايتهم فله ما لهم وعليه ما عليهم ؛ بل بلغ من تسامحهم أنهم أتاحوا لأتباع الديانات الأخرى أن يرتقوا إلى أسمى المراكز فى بلادهم .

وهذا أمر لم تعرفه البلاد الغربية إلا فى عصور متأخرة ، وفى بعض الدول دون بعض ، حيث نرى بين حين وحين أن يهودياً يرأس الوزارة . ومع ذلك فإن باب الاضطهاد الدينى لم يوصد بعد. وإن من يطلع على الآداب الأوروبية الشعبية وغير الشعبية لـيرى كيف يحاول المسيحيون النيل من المسلمين ومن صاحب الرسالة بصفة خاصة . فهم يريدون تنشئة الأجيال على كراهية المسلمين والحط من دينهم .

ومما يزيد فى كراهية الأوروبيين وعدائهم للإسلام أنهم يعلمون أن هذا

http://www.al-maktabeh.com

الدين يقف حائلا بينهم وبين السيطرة التامة على بلاد المسلمين . ذلك لأن الرابطة الدينية بين هؤلاء تعترض سبيلهم إلى تحقيق أطماعهم الاستعمارية التى لا تكاد تقف عند حد . ولو استطاعوا أن ينهجوا مع المسلمين ما نهجوه مع هنود أمريكا لما ترددوا لحظة واحدة . ألم يذهب أحدهم فى أوائل القرن الحالى إلى حض المسيحيين على نبش قبر الرسول وتحطيم الكعبة وإلى القضاء نهائياً على الأمة الإسلامية ؟ (١)

قد يقال إننا نفرط ، بدورنا ، بعض الإفراط فى تحليل عواطف الأوروبيين تجاه المسلمين ، وربما ظن بعض الناس أن التعصب المسيحى قد أفسح مكانه للتسامح والشفقة والإحسان . لكننا ندفع عن أنفسنا تهمة الغلو بما قرأناه أخيراً لكاتب فرنسى يأخذ على الأمريكيين أنهم يعطفون على أهل الجزائر ومراكش فى ثورتهم ضد الاستعمار الفرنسى ، ويذكرهم بأنهم فعلوا أكثر مما يفعل الفرنسيون ؛ فإنهم أبادوا قبائل الهنود الحمر ، ولم يحتفظوا من هؤلاء الهنود إلا بعدد قليل كوسيلة للدعاية السياحية . فكأن هذا الكاتب يطلب إلى الأمريكيين أن يطلقوا أيدى المستعمرين فى رقاب ملايين المسلمين ، حتى لا تضيق أراضيهم بمئات الألوف من الأوروبيين الذين لا تتسع لهم بلادهم ! إذن لو استطاع أمثال هذا الكاتب أن يبيدوا المسلمين لفعلوا . ولا يحول دونهم ودون ذلك سوى الرابطة الإسـلامية فى مختلف أقطارهم .

لذلك نراهم لا يألون جهداً فى محاربة هذه الرابطة باسم التعصب الدينى حتى يتحلل المسلمون من روابطهم فيسهل القضاء عليهم فرادى . غير أنهم لم

(١) انظر تاريخ محمد عبده جـ ١ ص ٨٠١

مكتبة المهتدين الإسلامية

ينجحوا إلا فى تسخير نفر قليل من زعانف المسلمين لنشر آرائهم ، أى ممن فقدوا الاعتزاز بدينهم ، ولم يستعيضوا عنه بحبهم لوطنهم . « فمثلهم كمثل من يهدم بيته ، قبل أن يهيء لنفسه مسكناً سواه ، فاضطر للإقامة بالعراء معرضاً لفواعل الجو وما تصول به على حياته . » (١)

وهؤلاء هم من وصفهم جمال الدين وتلميذه فى العروة الوثقى بأنهم الدهريون ممن يستترون باسم الإسلام ، وينشرون آراء الإلحاد باسم العلم الحديث . وقد عجب الأفغانى لأمر كثير من سذّج المسلمين الذين يقعون فى حبائل الدعاية الاستعمارية مع محافظتهم على عقائدهم ، وتمسكهم بإيمانهم ؛ ومع ذلك فهم « يسفكون الكلام — كما يقول — فى ذم التعصب ويهجرون فى رمى المتعصبين بالخشونة والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بذلك يشقون عصاهم . . . ويخربون بيوتهم بأيديهم . . . »

لقد نسى هؤلاء السذج أن الغربيين الذين ينشرون بينهم مثل هذه الآراء ويزعمون أنهم أعداء للتعصب هم أكثر الناس تعصبا فى الحقيقة ، وأحرصهم على حماية الدعاة إلى دينهم والقائمين بنشره فى البلاد الخاضعة لسلطانهم ؛ كما يتجلى ذلك التعصب فى تضامن البلاد الأوروبية ، على اختلاف مذاهبها السياسية ، وفى تعاونها للقضاء على كل حركة استقلالية يقوم بها المسلمون فى إحدى المستعمرات الأوروبية . وقد لمسنا عن قرب كيف شوهت ثورة المغرب الأخيرة ، وصورت فى مختلف الصحف الأوروبية بأنها وليدة التعصب الدينى ، مع أن قليلا من العقلاء والمنصفين من الأوروبيين يقرّون أنها وليدة البؤس والفقر ، إن لم تكن فى رأيهم دليلا على رغبة الشعوب فى تقرير مصيرها .

(١) العروة الوثقى ص ١٠٧

http://www.al-maktabeh.com

وإن ما نراه اليوم من اجتماع كلمة الأوروبيين على الطعن فى كل نهضة إسلامية هو ما لحظه أصحاب العروة الوثقى منذ سبعين عاما فى سياسة الدول المسيحية ، فإنك « تراهم على اختلافهم فى الأجناس وتحاقدهم وتنابذهم فى السياسيات وترقب كل دولة منهم لعثرة الأخرى حتى توقع بها السوء ، يتقاربون ويتآلفون ويتحدون فى توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم فى الدين ، وإن كان فى أقصى قاصية من الأرض ، ولو تقطعت بينه وبينهم الأنساب الجنسية . أما لو فاض طوفان الفتن ، وطم وجه الأرض ، وغمر البسيطة من دماء المخالفين لهم فى الدين والمذهب ، فلا ينبض فيهم عرق ، ولا ينتبه لهم إحساس ؛ بل يتغافلون عنه ، ويذرونه وما يجرف ، حتى يأخذ مده الغاية من حده ، ويذهلون عما أودع فى الفطر البشرية من الشفقة الإنسانية والمرحمة الطبيعية ، كأنما يعدون الخارجين عن دينهم من الحيوانات السائمة والهمل الراعية ، وليسوا من نوع الإنسان الذى يزعم الأوروبيون أنهم حماته وأنصاره . وليس هذا خاصا بالمتدينين منهم ، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين فى تعصبهم الدينى ، ولا يألون جهداً فى تقوية عصبيتهم . وليتهم يقفون عند الحق ، ولكن كثيراً ما تجاوزوه . » وقد رأيت أنت كيف تجاوزوه عندما بلغوا فى تنكيلهم بالمسلمين إلى أن تحالفوا مع من زعموا أنهم قتلوا المسيح ، ومهدوا لهم وساعدوهم لتشريد مئات الألوف من المسلمين الذين يظهرون لهم العطف باللسان ، ويضمرون لهم الفتك بالعمل الوئيد المستمر .

فليس للمسلمين أن يصدقوا إذن ما يقال عنهم من أنهم متعصبون وأنهم مفرطون فى تعصبهم ؛ بل أولى بهم أن يعلموا أن تمسكهم بالدين واعتزازهم

مكتبة المهتدين الإسلامية

بالرابطة الإسلامية هو السلاح الذى يملكونه فى وقتهم الحاضر ، فى انتظار أن يقذفوا بأعدائهم إلى البحر كما فعل أسلافهم من قبل ، ولكن دون أن يهبطوا إلى ما هبط إليه الأوروبيون من البطش والعدوان . لقد سبق أن طردهم صلاح الدين من الأراضى المقدسة ، ولكننا لم نسمع منهم هم أنفسهم إلا أنه كان مثال الفروسية والسماحة الإسلاميتين . ذلك أن الدين الإسلامى لا يرضى إكراه الناس على مالا تطمئن إليه قلوبهم ، ولو كان الإسلام نفسه ؛ بل إنه يصارح المفرطين فى التعصب بأنهم ليسوا مسلمين . أفبعد ذلك يقولون إن المسلمين متعصبون وإنهم يمقتون أهل الديانات الأخرى ويقسمون على إبادتهم ؟ أليس الأجدر أن يعترف الغرب بما يعلمه المسلمون حق العلم من أن « الروح الصليبية لم تبرح كامنة فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم ، كما كانت فى قلب بطرس الناسك من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقراً فى عناصرها ، متغلغلا فى أحشائها ، ومتمشيا فى كل عرق من عروقها ، وهى أبدا ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء والحقد . . . . »(١)

لقد نظر المسيحيون إلى الإسلام دائما نظرتهم إلى الخطر الأكبر الذى لا يفوقه خطر آخر ؛ بل قال بعضهم إن الإسلام كان طعنة خنجر وجهت إلى المسيحية ، وذلك فى الوقت الذى يحث فيه الإسلام أتباعه على حسن معاملة أتباع المسيح بصفة خاصة ! ولا ندرى لماذا يصر أهل الصليب على تعصبهم ؟ ألم يأمرهم المسيح بمحبة أعدائهم ؟ فلماذا لا يطبقون هذا المبدأ على المسلمين ، ولا سيما إذا كان هؤلاء لم يضمروا لهم حقداً حتى فى

(١) من كلام جمال الدين الأفغانى .

http://www.al-maktabeh.com

أيام قوتهم وسلطانهم ؟ والحق أن التفاهم بين المسلمين والمسيحيين ليس أمراً مستحيلا إذا طبق كل من الفريقين مبادىء دينه وتعاليمه .

لقد مضى الزمن الذى كان فيه أهل الشرق غفلا يؤمنون بما يوحى إليهم به دعاة الغرب وزعانفه . فهم يعلمون حقا أن الغرب لا يريد بهم خيرا ، وأنه لو استطاع أن يمحوهم محواً لفعل ، وأن مايحفظ عليهم بقاءهم حتى الآن هو أن دول أوروبا عجزت عن القضاء على الرابطة الإسلامية التى يسمونها تعصبا وهى فى الحق ليست تعصبا . ولو سلمنا جدلا أنها كما يقولون ، لما كانت شيئا ذا قيمة بجانب تعصب مسيحيي أوروبا ؛ إذ « قد يكون للمسلمين[1] فى التعصب ألفاظ وكلمات ، ولكن الذى يكون من جمهور المسيحيين إنما هو أعمال وضربات فى المعاملات . »

فإذا بقى بعد ذلك شىء من ريب فى نفوس هؤلاء الذين يحلو لهم أن يخدعوا أنفسهم بأساليب الغرب ودعايته ، فليس لهم إلا أن يلقوا ببصرهم على ما يصطنعه الأوروبيون من وسائل الشدة والقهر فى المستعمرات الإسلامية التى ما زالت فى أيديهم ؛ وعلى التقدم الهائل الذى تخطوه البلاد التى نجحت فى التحرر من سيطرة الغرب .

ولكننا نؤكد آخر الأمر أن التعصب الأعمى لن يفيد المسلمين ولا المسيحيين شيئا ؛ إذ لا يورث هذا التعصب سوى الحقد والكراهية ، والشر لا ينتج إلا شراً مثله . إذن فالسبيل القويمة إلى النهضة الإسلامية هى أن ينقطع المسلمون عن المفاخرة بماض مجيد لم يكونوا أمناء عليه ، وأن يعلموا أن عصر المعجزات قد انقضى ، وأنهم لن يكونوا أهلا للانتماء إلى هؤلاء الذين يفخرون بهم إلا إذا لحقوا بهم عن طريق العلم والعمل والأخلاق والوقوف على سر تقدم الغرب وقوته ومحاولة الوصول إلى مرتبته فى العلم والقوة .

---

(١) للأمام محمد عبده فى الاسلام والنصرانية ص ١٦١ .

مكتبة المهتدين الإسلامية

فهرس

صفحة

المقدمة ٣ — ٤

الفصل الأول [من صفحة ٥ إلى صفحة ٧٩

تدهور المسلمين

١ — حالة المسلمين فى العصر الأخير :

« ا » الاستعمار والمسلمون . . . . ٥ — ١٠

« ب » المسلمون بين عهدين . . . . ١٠ — ١٤

« حـ » الفقر . . . . ١٤ — ١٦

« ى » الجهل . . . . ١٧ — ٢٠

٢ — ابتعادهم عن الدين :

« ا » الصراع السياسى والدينى . . . . ٢٠ — ٢٣

« ب » التفرقة بين العقيدة والعمل . . . . ٢٣ — ٢٦

« حـ » تصوف المتأخرين . . . . ٢٦ — ٢٩

« ى » مظاهر الشرك . . . . ٣٠ — ٣٢

« هـ » الدفاع عن عقيدة التوحيد . . . . ٣٢ — ٣٦

٣ — يأس وجبن :

« ا » يأس . . . . ٣٦ — ٤٣

« ب » جبن وذل . . . . ٤٣ — ٥٠

٤ — ضعف الأخلاق وتمجيد الرذيلة :

« ا » الخلاف والتقاطع بين المسلمين . . . . ٥٠ — ٥٤

« ب » اختلال المعايير الأخلاقية . . . . ٥٤ — ٦١

http://www.al-maktabeh.com

٥ — هل الإسلام سبب فى انحطاط المسلمين ؟ :

«أ» الحركة العقلية فى بدء الإسلام . . . . ٦١ — ٦٦
«ب» انتشار الإسلام على الرغم من تدهور المسلمين . ٦٧ — ٧٠
«حـ» الإسلام والنصرانية . . . . ٧٠ — ٧٧
«ى» مسئولية المسلمين . . . . ٧٧ — ٧٩

الفصل الثانى [من صفحة ٨٠ إلى صفحة ١٥٧]

أســـباب التدهور

١ — فساد الملوك واستبدادهم :

«أ» تنافس طلاب الملك وترفهم . . . . ٨٠ — ٨٥
«ب» جهل الملوك وغرورهم . . . . ٨٥ — ٨٩
«حـ» خيانة الملوك . . . . ٨٩ — ٩٤
«ى» أعوان المستبد . . . . ٩٤ — ٩٩

٢ — تحالف الملوك مع رجال الدين :

«أ» اتحاد الهدف . . . . ٩٩ — ١٠٤
«ب» اتحاد الوسائل . . . . ١٠٤ — ١٠٦
«حـ» نهاية التحالف . . . . ١٠٧ — ١١٢

٣ — مسئولية رجال الدين :

«أ» جبناء أو مراءون . . . . ١١٢ — ١١٨
«ب» محاربة الإصلاح . . . . ١١٨ — ١٢٦
«حـ» روح العداء للعلم . . . . ١٢٦ — ١٣٢
«ى» يجهلون الدين أيضا . . . . ١٣٢ — ١٧٣
«هـ» ماذا جنى المسلمون منهم ؟ . . . . ١٣٧ — ١٣٧

مكتبة المهتدين الإسلامية

الفصل الثالث [من صفحة ١٥٨ إلى صفحة ٢٢٤]

طرق الإصـــلاح

١ — نهضـة الشرق :

« ا » شدة القهر تؤدى إلى الانفجار . . . . ١٥٨ — ١٦٣

« ب » مجددون ورجعيون . . . . . . ١٦٣ — ١٦٩

« حـ » الوحدة السياسية والدينية . . . . ١٦٩ — ١٧٤

٢ — طريق الثورات السياسية والاجتماعية :

اتجاهات ثلاثة . . . . ١٧٤ — ١٧٧

٣ — الإصلاح الســياسى :

« ا » مثال من الغرب . . . . ١٧٧ — ١٧٩

« ب » ضرورة الثورة على الاستبداد . . . . ١٧٩ — ١٨٦

٤ — النهضة عن طريق العلم :

« ا » العلم والدين . . . . ١٨٦ — ١٨٩

« ب » موقف المسلمين واليابانيين من العلم الأوروبى . ١٨٩ — ١٩٢

« حـ » الجمع بين التعليم النظرى والعملى . . . . . ١٩٢ — ١٩٨

« د » العلم وحده لا يكفى . . . . ١٩٨ — ٢٠٤

٥ — النهضـة عن طريق الدين :

« ا » الدين والوحدة الإسلامية . . . . ٢٠٤ — ٢٠٦

« ب » الدين والإصلاح . . . . ٢٠٦ — ٢١٠

« حـ » التدين والتعصب . . . . ٢١١ — ٢١٥

« د » التعصب فى الإسلام والمسيحية . . . . ٢١٥ — ٢٢٣

فهرس . . . . ٢٢٤ — ٢٢٦

اســتدراك ٢٢٧

http://www.al-maktabeh.com

استدراك

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢	٤	تلبيته	تلبية
٢٧	١٣	ينسبونها	ينسبون
٣٣	١٨	كانت	كادت
٣٤	١٩	ولأن	لأن
٥٣	٤	فيما	فى
٥٧	١٢	الضعف	الضغط
٩٥	٨	منهم	بهم
٩٨	٢٠	الثورة	الثروة
١١٦	٣	مع	مع أن
١٢٣	٧	القديم	بالقديم
١٣٢	١	منه غلوا	غلوا
١٣٩	٣	إلى من	لمن
١٣١	٨	التعصب	التصوف
١٨١	٨	يحبوت	يحبون
١٩٦	١٥	سلك	مسلك

مكتبة المهتدين الإسلامية

سلسلة فى الدراسات الفلسفية والأخلاقية

يشرف على إصدارها الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

أسماء الكتب التى ظهرت من هذه السلسلة :

١ — المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالى

(الطبعة الثانية : مزيدة ومنقحة) مع مقدمة مستفيضة فى منطق التصوف

للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود

٢ — فلسفة ابن طفيل ، ورسالته « حى بن يقظان »

للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود

٣ — الفيلسوف المفترى عليه « ابن رشد »

للأستاذ الدكتور محمود قاسم

٤ — التصوف عند ابن سينا

للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود

٥ — التفكير الفلسفى فى الإسلام

للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود

٦ — مناهج الأدلة فى عقائد الملة لابن رشد

مع مقدمة فى نقد مدارس علم الكلام — للأستاذ الدكتور محمود قاسم

٧ — جمال الدين الأفغانى « حياته وفلسفته »

للأستاذ الدكتور محمود قاسم

٨ — الإسلام بين أمسه وغده

للأستاذ الدكتور محمود قاسم

http://www.al-maktabeh.com